

رواية

أحمد سلامة

# الزعرانة

موعد مع السيدة الجميلة

دار دؤن

أحمد سلامة

# الزعفرانة

موعد مع السيدة الجميلة

رواية

دُونْ



للنشر والتوزيع

إهداء

إلى السيدة الجميلة: مایسة عبد الرحمن

«عندما تفرح، أفرح. وعندما تحزن، أحزن. وحين تكون،  
أكون أنا أيضًا.  
لأنني أنت، وأنت أنا»

(١)

## يحيى

لم يكن عليها سوى أن تبسم، ليتغير التاريخ كله بعد ذلك.

أمام باب غرفتي الصغيرة في كامب «وادي حبيبة» طلبت وهي تبسم أن تدعوني إلى القهوة لأنها لا تعرف أحدًا هنا.. وكيف كان لي أن أعتذر رغم أنني اعتذرت؟ وهل كانت «زينب» لتساعني على هذه الذلة؟ وهل كانت الذلة الأولى في ردّ الابتسام بابتسام؟ أم في تصستي على ياسمين منذ البداية وهي تتشاجر مع بائع التماثيل الفرعونية في البازار؟

سقط قلبي بين قدمي وهرب مبتعدًا بعدها.. ربما لهذا السبب ظللت ألفت في غرفتي بالكامب بعد أن تحدثت معها لتلك الدقائق القليلة.. كنت أهرب منها.. أو أنني كنت أهرب من عيني زينب الحزيتين. الأمر المؤكد هو أنني كنت أبحث عن قلبي الذي نطق منذ صمتٍ طويل بين جبال هذه المدينة الصغيرة جارة البحر.

في السنوات الثلاث الأخيرة لم أكن أنحمل جدران نفس الغرفة لفترة طويلة. أصبحت الجدران تضغط أنفاسي وتحبس صدري، حتى صرْتُ أتمنى أن أسكن العراء للأبد.. لكن غرفتي الأخيرة في

كامب وادي حبيبة كانت الأكثر لطفًا مما سكنت سابقًا.. الغرفة معظمها من الخشب المضغوط خفيف الحمل، تشعرني أحيانًا أنها قابلة للتمدد مع ضيق نفسي.. جدرانها قابلة لل فك والتركيب في أي لحظة كجميع عُرف الكامب المترابطة ببعضها البعض.. كرافانات متراسة وملتصقة ببعضها.. خفيفة الحمل وغير مكلفة.. الكامب كله تقريبًا كان معدًا لل فك والتركيب للانتقال في أي لحظة.. كان أشبه بغرف عمال التنقيب والحفر في شركات البترول المترامية طيلة الطريق بين الغردقة وطريق السويس.. وكانت غرفتي تقريبًا هي أكثر الغرف اتساعًا.. وكان هذا طبيعيًا جدًا؛ فأنا الوحيد الذي كان يقضي الليل هنا في قلب الصحراء ولا يعود مع العاملين بالمكان إلى نزل عاملي الفندق التابع له الكامب بالغردقة، بعد انتهاء أنشطة الكامب المسائية.. ورغم أن الغردقة لم تكن تبعد أكثر من عشرين دقيقة بالسيارة.. إلا أنني كنت أحب المبيت هنا في الصحراء وبين الجبال.. خاصة في ليالي الشتاء الباردة، حيث يندر الزبائن من السائحين العرب والأجانب الذين ينظم لهم الفندق بالغردقة رحلات السافاري وتسلق الجبال والسهر في الوديان المحيطة.

في ليالي الشتاء الباردة تحديدًا كان الجميع يعود للسكن بالغردقة باستثناء حارسين عجوزين يسهران طوال الليل أمام خزان المياه الرئيسي جوار بازار الكامب.. يشعلان النار للتدفئة ويستمعان إلى أغاني بدوية بديعة ويظللان يدخان الحشيش ويطلقان النكات البذيئة على السائحين وحتى مطلع الفجر.

أما أنا فكنت أترك نفسي إلى الليل والصحراء.. أحيانًا أقضي الليلة وحدي وأحيانًا أخرى أستضيف وجهًا ما للمسامرة.. تارة «زنب»

وتارة «سباستيان».. ليلة أستضيف وجه جدي «سليم» للسمر وتارة أستضيفه للاعتذار.. وفي أحيانٍ قليلة جدًا كانت «ميريت» تقتحم السهرة بوجهها اللعوب ليتكدر من الليلة ما بقي منها.. فأناام مبكرًا قبل أن تزور الشمس الجبل، وأضطر إلى الاستيقاظ مبكرًا رغم ندرة العمل.. مثلما حدث هذا النهار.

صحوت كدراً ناقماً على وجه «ميريت» الذي أفسد سهرة البارحة.. لعتُها في سري مرة وبصوت مسموع مراتٍ أخرى، بعد دقائق وجدت اتصالاً من الشيخ «ياسين» لم أسمعه وأنا نائم، أعدتُ الاتصال به وكانت التغطية سيئة للغاية، فعلمت أنه بقرية الجبل. ألقىت على كتفي غطاءً ثقيلاً اتقاءً للبرد الهارب من ليلة البارحة، وخرجت من الغرفة لأسمعه بوضوح، إلا أن التغطية كانت لا تزال سيئة، ربما أصبحت أكثر سوءاً.. أنهيت الاتصال يئساً ودخلت لأغسل وجهي بأحد الحماطات المشتركة، فعاد الهاتف يرتعش في جيبِي، ووجدت الشيخ ياسين يتصل ثانية.. رددت عليه سريعاً ويدي ما زالت مبتلة وكنت متوقعاً نفس التغطية السيئة للشبكة، إلا أن صوته جاء واضحاً وعالياً أيضاً.. كان يؤكد على موعدنا المسائي عنده بقرية الجبل مساء اليوم.. وظل يؤكد أن الأمر هامٌ وضروريٌّ. رفض بالطبع أن يعطيني أي تفاصيل متعللاً بسوء التغطية عنده.. نظرت إلى ساعتِي وأنا أحدثُه فوجدت أنه ما زال أمامي وقتٌ كافٍ قبل الموعد.. أخبرته أنني سأحضر، ثم عدت إلى الغرفة لأجفف وجهًا لم أغسله بالكامل.

ما زال أمامي ساعتان لأتناول أي إفطار أجده في كافيتيريا الكامب، ثم أبحث عن سيارة دفع رباعي بالأجرة تقبل أن تقلني إلى قرية الجبل.

انتعلت حذاءً ذا رقبة عالية انقاءً للعقارب التي بدأت تظهر مؤخرًا وعلى استحياء في محيط الكامب الذي أقطنه منذ تركت طابًا.. ثم ارتديت المعطف الوحيد الذي أملكه تحسبًا لبرودة الجبل لو خانتنا المودة في خيمة المجلس مع الشيخ وطال الحديث لآخر الليلة.

عند باب الغرفة وقبل خروجي مباشرة لمحت حركة خفيفة في المرأة المعلقة بباب الغرفة، أجفلت لحظة ثم انتبهت إلى أنه انعكاسي في المرأة.. لمت نفسي للمرة الألف على عدم تغطية المرأة لكرهي الشديد للمرايا.. لم أعد أطيق المرايا منذ رحلت زينب.. وكان هذا بالضبط ما حدث.. عندما اعتدلت كنت قد رأيت وجهها كاملاً في المرأة مكان وجهي وقد رقدت عمدة على الفراش أمامي بدموعها الصامتة التي لم تفارق وجهها أبدًا.. ابتسمت لها في المرأة محيياً إياها حتى بدأ طيفها يخفني رويداً إلى أن غاب وعاد وجهي الذي أكرهه في المرأة ينظر لي في لوم.. فعلمت أن اليوم لن يكون عادياً أبدًا.

خرجت متجهًا إلى الساحة.. ربما أجد سيارة أحد العرب تقبل أن تنقلني داخل الجبل قبل أن يحل الليل.. وفي طريقي لم تفارق عينا زينب الدامعتين رأسي.

تمشيت قليلاً إلى أن وصلت لنافورة صخرية خربة تتوسط الساحة جوارها الجاراج خالٍ تمامًا.. ولم أجد أيًا من العربات بالطبع.. الوقت ليس موسمًا لأنشطة الكامب، ومعظم السائقين إما لم يأتوا.. وإما أنهم بالجبل الآن مع من التقطوهم من فئات السائحين.

وقفت قليلاً أتلفت حولي.. يبدو المكان كأنه مهجورًا للوهلة الأولى.. فقط سائحان يتمشيان إلى الكافيتيريا.. تذكرت الإفطار الذي



لم أتناوله بعد، ثم قررت أن أدخل أولاً إلى بازارا «عارف» الملحق  
بالكامب أسأله عن إمكانية طلب سيارة ذات دفع رباعي لتوصيلة  
داخل الجبل.. عارف بالتأكيد أحد أقرباء الشيخ ياسين، كلهم أقرباء  
بعضهم هنا، ربما يتم بطلي إن عرف بنية ذهابي إليه.

كان مدخل البازار يحتل قسمًا صغيرًا من سور الكامب.. سُكِّل  
على هيئة كهف صخري صغير تحتل قسمه العلوي يافطة زرقاء  
عريضة مكتوب عليها (بازار عارف - تحف - هدايا - مستلزمات  
سافاري).. وُقِّشَتْ عليه رموزٌ لاتينية وفرنسية بشكل مبعثر.

عندما قدمت هنا للمرة الأولى منذ ولحت هذا البازار جربت  
قراءة بعض الكلمات الفرنسية المبعثرة على مدخل البازار.. وأذكر  
أنني لاحظت من بينها كلمات مكتملة فعلاً وتشكِّل معنى مفهومًا  
مثل «سيد-عظيم-معبود» وكلمات أخرى كثيرة وأحرف أخرى  
لا تشكل أي معنى رسمت على سبيل الزينة.. إلا أنني أذكر جيدًا  
أنه من بين التجميعات كانت توجد كلمة «أحق» وفكرت أن أخبر  
صاحب البازار بذلك.. لكنني لما تخيلتني وأنا أخبره لم أعلم هل  
سيشفع لي كوني كنت أقوم بدراسة تلك اللغة المصرية القديمة حتى  
برعت فيها؟ أم إنه سيظنني أسخر منه؟

بحثت عن الكلمة فوق اللافتة ووجدتها بسهولة.. ترى من  
السخيف الذي قام بتركيب هذه الأحرف ليضع سُبَّةً مصرية قديمة  
على لافتة بازار فقير في قلب الصحراء بين الجبال؟.. وهل كان  
يقصد ذلك، أم أنه فعلها جهلاً بمعناها؟

تذكرت سياستيان وقتها.. وجالت بذاكرتي أيام كنت أعلمه كلمات  
الغزل المصرية القديمة كي يرسل بها الخطيئة في لبنان قبل أن ينفصلا..

وقبل أن يسافر إليها ليستعيدها.. ليتك لم ترحل أبدًا يا صديقي..  
لشدة ما احتجتك بعدها.

قررت بيني وبين نفسي أن أخبر عارف صاحب البازار، أو من  
يعمل به حاليًا بهذه المعلومة القيمة إن كان كريبًا معي ودبر لي سيارة  
لتنقلني إلى قلب الجبل، وقد بات من الواضح أني ربما أتأخر على  
موعدي مع الشيخ ياسين.

دفعت الباب الخشبي بيدي ودلفت إلى البازار فأصدر صوت  
موسيقى أجراس الأطفال.. والتقطت أذني صوتًا عاليًا وكأنه شجارٌ  
صمت فورًا عند دخولي.. لكنني كنت قد التقطت الجملة الأخيرة  
من صاحبها التي كانت تقول في عصبية:

- Fifty dollars! For such poor quality?!

كانت صاحبة الصوت توليني ظهرها وأمامها عارف نفسه وقد  
أحمر وجهه وبدأ أنه كان ينصب على إحدى السائحات في سلعة ما  
ولكنه فشل في ذلك.. وكانا يقفان في ركن البازار.

أريكني صمتهما المفاجئ.. فتركت الباب ينسحب من يدي  
ودخلت أقلب في البازار بعيني مبتعدًا عنهما.. التفت إليّ عارف بينما  
هي ما زالت توليني ظهرها فوجدت مساحة أكبر للفضول إلا أن  
عارف بادرني بالسؤال هربًا من مواجهة واضح أنه لن يربح منها  
شيئًا:

- اتفضل يا دكتور يحى.. تحت أمرك.

اضطرتني سؤاله للاقتراب منهما فوضعت كلتا يدي في جيبي  
معطفي وقلت:

- أين ذهبت العربات جميعها؟ أريد توصيلة ضرورية إلى الجبل  
حالا.

وقبل أن يحاول الهروب من مساعدته لي سارعت محاولاً توريطة:

- عندي موعد هام مع الشيخ ياسين.

فردّ متبهاً:

- آه.. تقصد الشريف ياسين.. للأسف يا دكتور.. العربات الأربع

كلها بالجبل الآن.

خبطت بأطراف أصابعي في سرعة فوق زجاج الفاترينة التي  
أمامي مبدئياً استياثي، ثم اقتربت منها خطوتين معلناً عدم  
استسلامي لتهرّبته منّي بسهولة وقبل أن أبدي المزيد من غضبي  
التقطت رائحة عطر قوية جداً تفوح منها.. رائحة غلبت على  
رائحة البازار، وهزمت عبق البخور المعتق الذي يستخدمه عارف  
دوماً، هربت عيني تتفحصها وهي ما زالت لم تمنحني وجهها بعد،  
بينما خرجت نبرة صوتي أقل حدة مما انتويت.. احتراماً لهذا العطر:  
- من فضلك يا عارف، تصرف بأي طريقة، الأمر هام جداً، لقد  
أكد عليّ الشيخ ياسين وهو ينتظرنّي الآن، أعلم أنك تستطيع مساعدتي.

تابع عارف متهرباً:

- يعلم الله يا دكتور أني أريد مساعدتك لكن ما باليد حيلة.. ربما

بعد ساعة.

عندها استدارت صاحبة العطر وهي ما زالت تُشبه متكئة  
على البار أمامها ورمقتني بعينيها الواسعتين اللتين احتلتا البازار..  
ووجدتهما جيلتين كعطرهما.

كانت ترندي «جاكيت» من الجلد الضيق الذي يرسم عودًا  
أوروبيًا منتظمًا وبنطالًا من نفس التكوين، ويحتل قدميها وساقها  
حتى المنتصف حذاء ذو رقبة طويلة جدًا.. نظرت إليها متفحصًا  
أكثر، وحاولت أن أثبت جنسيتها من ملامح وجهها لكنني فشلت.  
كان وجهها يحمل ملامح لكل الجنسيات تقريبًا باستثناء ملامح  
أهل البلاد الاسكندنافية الباردة.. كما أن عطرها كان يوحي بالدفء..  
وجهها إغريقي تمامًا، وجنتان كاملتا الاستدارة كأفروديت.. ذقنها  
ممدد يلتف بنعومة ليكمل استدارة وجه إيطالي عريق.. معظم شعرها  
بنام متردد فوق ظهرها حائز بين البني الداكن والأسود المحترق..  
وكان راضيًا بخصلتين هاربتين تعكسان شقرة خفية فضحتها إضاءة  
النجمات المعلقة بسقف البازار وزادت ملامحها حيرة.. حتى سنّها  
كان ممتدًا يصعب تحديده بدقة.

استجمعت شجاعتي وأضفتها إلى فضولي ونظرت مباشرة إلى  
عينها فكانتا مصريتين تمامًا.. وكانتا تعكسان الفضول الشرقي  
الذي كان يغمرني في اللحظة نفسها.. فقط نحن الشرقيين من نملك  
الفضول الفاضح تجاه الآخر ببراءة هكذا.. أي وجه هذا وأي سيدة  
تلك التي تحملها؟! وبصعوبة منعت نفسي من الابتسام لها.

قاطع عارف مناجاننا اللحظية الصامتة هذه وهو ما زال يحاول  
التهرب من مساعدتي وكرر عرضه:

- لو تمر عليّ بعد ساعة يا دكتور.

هنا اعتدلت الجميلة تمامًا من ميلتها ووجدتها طويلة.. تحركت  
ومرت جوارى بالمر الضيق الذي يقف فيه كلانا وكعب حذاءها  
ينقر فوق الأرضية الخشبية بانتظام وتركت المر لتفسح لي مجالًا  
أكثر اتساعًا للتفاوض مع عارف بحرية، واتجهت ناحية الباب وهي

تحمّل بيدها ما خيل إليّ أنه تقليد سيء جدًّا لتمثال فرعونى بحجم  
دمية أطفال.. تابعت محاولتي الفاشلة لاستمالة عارف قائلاً:

- لكن الشيخ ياسين سوف يـ... .

فقاطعنا صوتها آتياً من مؤخرة البازار وهي تنفحص تمثالاً آخر  
وتردد لنفسها بصوت مسموع وواضح جدًّا:

- So there is nothing here but poor copies!

ووجدنا صوتها رغم غضبه يبدو متلاعباً.. ابتسمت مرغماً،  
وكذلك عارف الذي غمز لي بعينه قائلاً:

- السواح يا دكتور.. وآه من السواح.

التفتت إلينا بغتة ورمقته بحدة وبدأ أنها فهمت أنه يتحدث  
عنها.. احمرَّ وجه عارف تماماً واضطربت ابتسامي فقررت الانصراف  
وقلت لعارف مستسلماً وأنا أتحرك ناحية الباب:

- أرجوك يا عارف.. حاول بأي طريقة.

- عيوننا لك يا دكتور.. وللشريف ياسين طبعاً.. ساعة بالظبط.

ثم استأذنت منها أن تتحرك من أمام الباب لأفتحه، ولم أستطع  
منع نفسي من التطلع إلى وجهها الصبوح، وقلت لها مرتبكاً: «excuse  
me» فابتعدت بلطف وردت مبتسمة بشيء لم أسمع من فرط نعومتها.

خرجت من البازار أجرّ خييتي وترددت في مكالمة الشيخ ياسين  
للاعتذار فهو لم يقصدني في شيء من قبل وكان كريماً معي منذ قدمت  
إلى الكامب.. لا أدري حقاً ماذا أفعل.. ولكن.. هل سمعتها تقول  
«تفضل» بالعربية وأنا أخرج من البازار؟! أم أنه خيّل إليّ؟!



عدت إلى الغرفة مسرعًا كأنني أهرب من شخصٍ يطاردني، في الطريق إلى الغرفة أحسست بالحر فاختنقت وأحسست بالارتباك فاختنقت أكثر وأكثر، دفعت باب غرفتي دفعةً وألقيت المعطف فوق الفراش وزفرت في ضيقٍ.. ثم اندفعت بغضب إلى مرآة الباب ونظرت إليها في عنيدٍ.

لم تظهر زينب، فقط وجهي ينظر إليّ في المرآة وكأنه يتحدثني ويقول لي: «لن تأتي زينب.. تعلم هذا».. وكنت أعلم أنها لن تأتي الآن تحديدًا، اتكأت إلى الباب بيدي وتركت رأسي يسقط على المرآة وقلت بغضب: «لماذا تذهبين الآن يا زينب؟ لم يكن هذا الاتفاق بيننا».. ونظرت إلى المرآة مرة أخرى ولم تظهر أيضًا.

ظللت مستندًا إلى الباب لا أرغب في فعل شيء وقد غمرني قنوط شديد.. لا أرغب في أي شيء بالمرّة، ما الذي جذبني إلى تلك السيدة؟ ما الذي أخذني تمامًا هكذا في تلك الجميلة؟ منذ متى يا يحيى وأنت تجذبك الجميلات؟ ألم تكن قد انتهينا من هذا العبث منذ زمنٍ بعيدٍ؟ لقد كنت ترصد حركاتها في البازار، حتى عطرها ما زال يداعب أنفك إلى الآن.. ما زال يداعب روحك الشقية وقلبك التعس.

نظرت للمرآة مرة أخيرة ولم تظهر زينب أيضًا.. اختفت تمامًا وكأنها غضبت، نعم بالطبع غضبت مم فعلت.

تركت المرأة يشّسا واستدردت ناظرا إلى الغرفة.. أي خرابٍ هذا الذي أعيش فيه حتى أدمته؟ لقد تفننت في نقل خرابي الداخلي إلى هذه الغرفة الصغيرة التي تشبه عربة الخردة.

كل شيء مع كل شيء في كل مكان، الفراش مع الكتب، الملابس مع القصاصات القديمة، صور الأصدقاء مع أقذاح القهوة المتربة

مع زجاجات المياه الفارغة مع بقايا الطعام، الخطابات القديمة  
لسباستيان مع خطابات البنك الجديدة التي لم تُفَتَّح، أصبحت لا  
أضع أي شيء في مكان معين لاستخدامه مرة أخرى، كل شيء يتخذ  
مكانه وفق ما يحلوه، وأنا أنظر إلى الأشياء بعيني فيختارني منها ما  
يجب أن يستخدمني، إن اختارتني القهوة شربتها وإن ناداني طعام  
أكلته، لو لمحت عيني خطاب قديم لسباستيان أعدت قراءته،  
وإن جذبني حذاء أو معطف ارتديته وخرجت، لم أعد لنفسِي وإنما  
صرت للأشياء.

بحثت فوق الفراش عن منسج ألقى عليه جسدي وتناولت  
المعطف لألقيه فوق طاولة جانبية يسكنها «جرامافون» عتيق مترب  
لقلة استخدامة.

فور أن وقعت عيني على الجرامافون ناداني إليه ولم أتردد وقلت  
«نعم الجرامافون.. ولم لا؟ قد يصلح هذا روحها قليلاً لتهدأ وتركني  
أهدأ».

قمت إليه في بعض الحواس وجذبت الأسطوانة الوحيدة خلفه  
والتي جلبتها معي من شقة القاهرة عندما انتقلت إلى هنا نائياً،  
كانت أسطوانة «لأسمهان»، أخرجتها من مغلفها بحرص شديد،  
وضعتها على الجرامافون برفق، كانت الأسطوانة مكتوباً عليها بخط  
مزيج جميل «إلى حبيبي.. أعشقتك - زينب».

بدأت نوبة الاكتئاب من جديد، ووضعت إبرة التشغيل فوق  
الأسطوانة وتركت أسمهان تشدو بأغنية زينب المفضلة «إمتى هتعرف»  
وقلت لنفسِي «كنت أعرف دوماً.. ومنذ كنا صغاراً يا زينب».

كانت تصغرنى زينب بأربعة أعوام سبقتها فيها إلى الدنيا لانعرف على الأهل والجيران والأصدقاء وعلى جدنا سليم، سبقتها لأعرف كل محلات الألعاب في ميدان السيدة زينب وأصدقاء أطفال الجيران من الحارات المجاورة لمنزل العائلة وأصير زعيمهم.. وكان كل شيء كان معداً لكي تتعلق بي زينب.

أزهرنا سوياً في بيت جدي سليم.. شبت على يدي منذ ساعاتها الأولى، قال لي جدي وأنا أداعب الطفلة الجديدة «سَم الله يا يحيى».. فهمت خطأ أنه يطلب مني أن أطلق عليها اسماً.. وكنت عائداً بالأمس معه من حضرة للذكر في مسجد السيدة زينب القريب من بيتنا، كانت الليلة رائعة والمنشد منتشياً للغاية، ظل يهيم بنا إلى أن جاء الفجر، قلت لجدي بعفوية «زينب.. أسمها زينب».. فضحك جدي حتى دمعت عيناه، وضحك عمي وزوجته، ولم يردّا اختياري لاسم ابنتهما.. وبكت زينب فور تقبيلي لها.

منذ الصغر رافقتني زينب كظلي، صرت بديلاً لأبيها الذي رحل سريعاً بعد ولادتها.. وكنت في البداية أشعر بالزهو وهي تمسك يدي بكفها الدقيقة كالفراس ونحن نلغلف في حوارٍ وأزقة السيدة زينب.. أحكي لها بفخر العارف بالأسرار تاريخ كل منزل وأسرار أصحابه وحكاياتهم بطريقة مسلية تأخذ عقلها.. كانت تفتح عينها من فرط الدهشة والاستمتاع بالحكايات، وكنت أضيف تفاصيلاً مثيرة من وحي خيالي الصغير حتى تصبح الحكايات أكثر إبهازاً، فيزداد إعجابي بنفسي، وتزداد تعلقاً بي.. فهذا منزل هجره أصحابه لكونه أبلاً للسقوط.. فيصير منزلاً تركه أصحابه هرباً من المارد العتيد الذي يسكنه.. وفي حكاية أخرى ليوم آخر عن نفس المنزل



أخبرها أنني رأيت هذا المارد مرة فلم أخف أو أهرب منه، تعبد عليّ الحكاية الأخرى لترد كذبي فأنهرها وأعتزلها بقية اليوم.. فتعود دامعة العينين إلى جدنا سليم حتى يصلحنا على بعضنا مساء.. وننام معاً في نفس الصالة على الأريكة الكبيرة أمام التلفزيون حتى يطفئه جدي عند الفجر.. وكنت أنام ليزورني المارد الذي كذبتُ بشأنه في أحلامي، وتنام هي لأزورها يومياً في أحلامها الصغيرة.

كنت أكبر سريعاً ويزداد طولي يوماً بعد يوم.. يشتد صدري ويتباعد كتفائي ويكبر معهما كذبي على زينب التي لا تكبر.. تظل تصدّق حكاياتي مهما نضج عقلها واتسعت مقاسات ملابسها..

بعد بضعة سنوات من ميلاد زينب تركني أبواي مع جدي وسافرا إلى الخليج. كانت تلك هي الموضة السائدة لدى المدرسين في تلك الأيام البعيدة.. وتولى جدي وزوجة عمي مسؤولية تربيته أنا وزينب، وقد صارت إقامتهما الدائمة في منزل جدي بعد رحيل عائلتهما.. وصرت مسئولاً عن نفسي وعن زينب.. نذهب سوياً في الصباح إلى مدرستها أولاً.. أطمئن إلى دخولها من باب المدرسة ثم أذهب إلى مدرستي أو إلى تسكّعي حسبما راق لي مزاجي.. وفي نهاية اليوم أمرّ عليها، تبدأ هي في حكاياتها الصغيرة أولاً ثم أقوم أنا بفقرة الكذب المعتادة، حتى نصل إلى مطعم فقير يقدم الفطائر المطعمة بالجبن المملح في شارع بورسعيد جوار مسجد السيدة زينب.. نشترى فطيرتين ثم زجاجتي كولا أو نتقاسم زجاجة واحدة لو خائنا ما بقي معنا من مال.. ولم تصرّح زينب أبداً أنها كانت تحب مشروب البرتقال بدل الكولا، ولم أعرض عليها يوماً أن نجربه سوياً رغم أنني كنت أعرف أنها تحبه كمعظم البنات.

نقطع شارع بورسعيد عرضاً أمام المسجد إلى محلات الألعاب والملابس على الجانب الآخر، تسلبنا الفاترينات اللامعة فترة النهار كلها تقريباً قبل أن نعود إلى منزلنا في شارع «الشيخ ربحان» جوار ديوان عام المحافظة.. نظل يومياً نضع الخطط الفاشلة سويّاً لتوفير المال من مصروفنا المشترك لشراء لعبة جديدة لا توافق أمها ولا جدي عليها.. وتحولت اهتمامات زينب مع الوقت من ألعاب العرائس والزينة وألعاب المطبخ البلاستيكية إلى مسدسات الصوت وطائرات حربية تعمل بالبطاريات الجافة وسيارات السباق.. وتظل تلح على جدي وأمها كي يشتريا لها أياً من هذه الألعاب فتنال نصيبها من التعسف بدلاً مني، بينما أتصنع الانشغال بمشاهدة التلفزيون أو مراجعة دروسي.

لم أكن أجد صعوبة في التحصيل.. دخلت الدراسة متأخراً عاماً كاملاً عن أقراني بسبب سفر والدي، فكانت الدراسة يسيرة.. ولا أعلم من أين كنت آتي بكل هذا الوقت للهو والعبث.. وكانت زينب بطيئة في التحصيل رغم ذكائها ونباهتها الواضحين في كل تصرفاتها.. وفي المدرسة كانت تتباهى بي أمام صديقاتها كلما مررت عليها لنعود سويّاً إلى المنزل، وكان يخشاني أصدقاؤها من الأولاد ويتجنبونها لطولقامتي وغرابة ملابسني الثائرة على سني والخارجة عن طبيعة مرحلتي الدراسية.

كنت في تلك السن قد بدأت أطيل من شعري مقلداً الممثل المشهور وقتها «ميل جيسون» في أحد أفلامه.. وأتبع الموضة السائدة في بدايات التسعينيات لمعظم الممثلين والمغنيين الأجانب، حتى أن جدي سليم فقد صبره ذات مرة وعنفني بشدة على مظهري

ولم يكن هذا طبعه معي.. وعندما رأي أرتب خصلات من شعري على هيئة ذيل حصان قام من مجلسه على أريكته العتيقة وأسمعني وصلة طويلة من اللوم، قلت له مجادلًا أن مدرّس التربية الدينية قد أخبرنا مرة أن النبي كان يسدل شعره فوق كتفيه.. فحلف بالنبي ثلاثًا أنه لو رأي هكذا ثانية سوف يقص شعري بنفسه.. ولم أخش من تهديده وقتها، ولم يطعه قلبه أن يفعل بي شيئًا.

في المساء كان الفتية في الحارات المجاورة يلحون عليّ للنزول للعب كرة القدم معهم لإجادتي لها.. وكنت أعتذر دائمًا؛ وقد بدأ جدي يرفض لعبي في الشارع وأجبرني على الاشتراك في نادٍ قريب تابع للمدرسة الفرنسية بشارع نوبار لأمارس فيه ما أشاء من الألعاب، وهذا فقط إن أتممت واجباتي، فكنت أكتفي بمراقبة الأولاد وتشجيعهم من البلكونة شديدة الاتساع المزينة بأصاير من الياسمين والريحان التي يشرف جدي بنفسه على رعايتها.. وأضافت زوجة عمي إليها بعض الستائر الثقيلة عندما بدأ جسد زينب في الاستدارة. وعندما ينتهي اللعب، كنت أبدأ متكاسلًا في تحصيل الدروس.. وتبادل أنا وجدي فناجين القهوة التي أدمتها من يد زينب بعد أن علّمتها كيف تصنعها وهي في الثانية عشر من عمرها.. علّمتها أن تمزج البُن الفاتح بنفس مقداره من البُن المحترق مع مسحة خفيفة من التحويجة التي يخفيها جدي في المطبخ.. فكان إن تذوق جدي القهوة من فنجاني يقول مازحًا «يا بختك يا يحيى».. فأبتسم في غرور بينما يتورد خدا زينب اللذان اكتملت استدارتهما قبل جسدها، ثم يقوم جدي متباطئًا ليضع أسطوانة «كلنا نحب القمر» لمحمد عبد الوهّاب التي حفظناها من كثرة سماعه لها، ويظل يدندن بها طوال الليل وحتى ننام.

لم أعلم أبدًا هل كان وجود زينب جوارى طيلة الوقت هو السبب في قلة أصدقائي؟ أم أقول ندرتهم؟ أم إنني كنت انطوائيًا بطبعي كما صرت الآن رغم شقاوتي الواضحة في مستقبل حياتي؟ لكنني أذكر دومًا أنني لم أحظ بصديق حقيقي أقضي معه اليوم كله سوى زينب، وحتى نهاية الثانوية العامة.. وكان الدائرة قد ضاقت علينا وحدنا تلك الأيام، فاقصر يومي على تحصيل الدروس وعليها.. ثم على السينيا لاحقًا من وراء جدي وزوجة عمي.. وكانت زينب تلح عليّ دومًا أن آخذها معي ولو مرة واحدة فكنت أرفض دائمًا متعللاً بأنه «عيب» وفي مرة بكت وقالت إنها تعرف أنني ذهبت الأسبوع الماضي مع أخت صديقتها «وداد».. فخفت أن تفتن عليّ لجدي أو لوالدي عندما تعود في إجازة نهاية العام من الخليج وقد اقتربت الإجازة.. فوعدتني أن آخذها معي بعد انتهاء الامتحانات تلبية لطلبها.

جاء مجموعتي بالثانوية العامة مرتفعًا كما توقع جدي وتمنّت زينب، وعكس ما انتظرت تمامًا، وغلبت الفرحة المنزل كله، فقد كان مجموعتي هو الأعلى بين سكان الحي.. وكافأني جدي بمبلغ من المال وباركني زوجة عمي مرات ومرات.. وكانت زينب تتلقى المباركات والتهاني وكأنه نجاحها هي، وذكّرتني في نهاية اليوم بوعدني لها بالذهاب إلى السينيا.. فلم أنكره كعادتي، كانت تغمرني نشوة وزهو فكنت أوافق على أي طلب.

اتفقنا فيما بيننا على حضور حفلة نهائية في السينيا حتى لا يشك أحدٌ في أمرنا.. ارتدت زينب يومها فستانًا ربيعياً جميلاً جعلها تبدو كأميرات أفلام الرسوم المتحركة، كانت قد رأت شبيهًا له في أحد ملصقات المجلات التي أزين بها غرفتي.. وكان الفستان ضيقًا نوعًا ما

فبدت على عتبات الأنوثة.. ألقى جدي عليها نظرة لائمة ولم يعلق.. وانصرفنا ولم يسألنا أحد عن وجهتنا.. فقد تعود جدي وأمها على خروجاتنا المتكررة منذ طفولتنا.

قصدنا سينيما «أوديون»، لم تكن بعيدة يمكن التمشية إليها في نصف الساعة أو أقل بقليل.. اخترت لنا فيلم «الخطايا السبع» الذي كان يُعرض حديثاً وقتها.. كان معظم الموجودين فتياناً وفتيات في مثل سنِّي.. وبعد أن بدأ الفيلم وأظلمت القاعة تماماً شرع معظم من حولنا يتبادلون الغزل والقبلات المسروقة وأحياناً بعض الكلمات الخارجة.. وبعد أن اندمجوا كانوا لا يتوقفون حتى وإن سمحت إضاءة بعض المشاهد بكشفهم.. وكان وجه زينب يزداد تورُّداً وجرت فيه الدماء حتى أصبح صوت نفسها مسموعاً، سألتها في حرج إن كانت تريد الانصراف، فانسعت عيناها بشدة وكأنها صُدِمت وقالت بعنيد «ألا تأتي هنا مع البنات دائماً؟.. أنا أيضاً بنت». فلم أستطع أن أرد عليها، وكنت أرغب حقاً في الخروج، لكن الفيلم كان مشوقاً للغاية.. وكلما تفاجأ «براد بيت» و«مورجان فريمان» باكتشاف إحدى الجرائم الجديدة التصقت بي زينب أكثر واختبأت تحت ذراعي، إلى أن تندمج في المشهد فتعتدل من جديد أو يصرف انتباهها عن الفيلم إحدى القبلات الجريئة من مقعد قريب.

خرجنا من السينيما وكانت زينب متمشية حد الرقص، تمشي أمامي وتعطي ظهرها للطريق كي تحدّثني عن الفيلم وتناقش كل مشهد، أخبرتني أنها حزنت كثيراً على «براد بيت» وزوجته في النهاية.. ثم خرجنا إلى شارع طلعت حرب وخطفت عينيها فاترينات العرض الكبيرة فتباطأت خطواتنا تدريجياً وانفقنا ضمناً

على ممارسة هوايتنا القديمة المشتركة بالفرجة على العروضات،  
ووقفنا أمام فاترينة عرض كبيرة لمحل ملابس يبدو معروفًا لكثرة  
الزحام أمامه.. كانت الفاترينة أكبر وأزرقى من اللاتي تعودنا عليها  
في شارع بورسعيد.. أشارت زينب إلى قميص طوي اللون على أحد  
مانيكانات العرض وقالت «سيكون هذا جميلًا عليك».. نظرت إلى  
المانيكان وإلى تفصيلة القميص عليه ثم قلت:

- يبدو جميلًا.. لكن المانيكان أكبر مني.. لن أجد مقاسًا يناسبني  
بسهولة، يحتاج شابًا أطول مني وأعرض..

قاطعتني زينب:

- أنت أجمل من كل الشباب.

فابتسمت لها وتأبطت هي ذراعي لتتحاشى الزحام الشديد أمام  
الفاترينة.. قلت لها إن المحل يبدو غالي الأسعار وأود أن أحتفظ بالمال  
حتى دخول الكلية لأشتري ما يناسبني وقتها.. ثم عدنا إلى شارع  
عبد الخالق ثروت وقطعنا المسافة مسرعين ونحن نقاوم الفتارين  
والمعروضات بصعوبة حتى وصلنا إلى المنزل، فور صعودنا استأذنت  
زينب وألحّت على أمها أن تذهب لإحدى الجارات وعادت بعد  
نصف ساعة وهي تلهث وكأن أحدًا يطاردها.. ثم نامت مبكرًا  
جدًّا تلك الليلة، وقبل الفجر بقليل كنت أقف في الشرفة الواسعة  
التي اتخذت منها مكانًا خاصًا للمذاكرة ظاهريًا وغيبًا للتدخين سرًا  
والذي كنت قد بدأت مؤخرًا.

أحسست بخطواتها خلفي فالتفتُ إليها وكان وجهها مبتسمًا بشدة  
وتحمل في يدها القميص الذي رأيناه سويًّا.. نظرت إليها في دهشة  
وقلت محاولًا أن أخفض من صوتي كي لا يشعر بنا جدي:

- كيف؟ ومتى ذهبت؟

أشارت وهي تضع أصابعها على شفتي وقد خرج صوتي عاليًا  
رغمًا عني:

- قسه أولاً..!

أخذته ملهوفًا من يدها وأنا أردد:

- مجنونة.. كيف ذهبت وحدكِ؟ لو علم جدك سيذبحك.

فردت: جدي نائم في الصلاة.

جذبت ستائر الشرفة الثقيلة كي لا يلمحنا أحدٌ وقلت لها:

- اعملي قهوة حتى أرتديه.

- قهوة؟ الفجر!

فقلت: «نعم.. الآن.. اذهبي». وكنت أخجل أن أخلع ما أرتدي  
أمامها.. فذهبت، وعندما ارتديته وجدته مريحًا جدًّا وأحسست  
أنه أفضل لجسدي خصيصًا وتعجبت كيف اختارت زينب مقاسًا  
يناسبني دون وجودي؟! ثم تسحبت إلى داخل الغرفة ووقفت أمام  
المرآة فوجدته رائعًا، ثم عدت أدخن في الشرفة حتى تعود زينب  
لتراه قبل أن أخلعه، وعندما أتت شهقت واضعة يدها على فمها  
ومست وهي تناولني القهوة:

- قمر يا بحى..

فازداد زهوي بنفسي وأخذت رشفة من قهوتها الرائعة وقلت  
وهي واقفة جوارى وكل ما في وجهها يتسم:

- نسلم يدك..

فسألت بدلال:

- على القهوة أم القميص؟

ونظرت إليّ في عيني طويلاً وكانت نظرة الحب الأولى التي أراها في عينيها.. كانت تختلف عن كل ما رأيته منها قبل الآن.. لقد صارت زينب أنثى، حتى إن نظرتها لي أربكتني رغم سنّها ولم أنزل عيني من فوقها حتى فاجأتني بقبلة خاطفة على خدي، وقبل أن أتكلم أو أبادر أو حتى أفكر، تحرّك باب الشرفة مصدراً صوتاً جمدنا سوياً في مكاننا فعلقْتُ نظري بالباب وتجمدت زينب مكانها حتى إنها لم تلتفت لثرى مصدر الصوت.. وتعالّت ضربات قلوبنا حتى كادت تغطي على صمت الشرفة.. ومضت دقائق ولم يدخل علينا أحد وكانت زينب أكثر منّي شجاعة فتسلّلت بعدها ثم دخلت غرفتها وسمعت باب الغرفة وهو يُغلق فاطمأن قلبي.

بقيت في مكاني لا أتحرك ولا أفكر سوى فيما قد فعلته زينب ولملمس شففتيها فوق خدي تداعبه نسائم الليل فيأخذني إلى أفكار غريبة لم تزرني من قبل.. قطع شيطاني صوت أذان الفجر وانفتح باب الشرفة بقوة ودخل جدي عليّ.. نظر إلى القميص ثم حوّل بصره عنه وقال من بين ترديده خلف المؤذن:

- مبروك القميص..

نظرت إلى نفسي ووجدت أنّي نسيت أن أبدله.. رددتُ بصوت خافت: «الله يبارك فيك».. فلم ينظر إليّ، ظل يردد خلف المؤذن حتى انتهى ثم تبع الأذان بالأدعية وبعض الذكر الهامس وحين انتهى قال:

- ارتد شيئاً لائقاً وتعال.. ستصلي الفجر معي في المسجد.

قلت متعجباً وهو لم يطلب مني ذلك من قبل:



- الفجر ١٩

فقال وهو ينصرف:

- نعم الفجر، ألم تصبح رجلًا؟



بعد الصلاة جذب جدي مقعدًا من على المقهى المقابل لمسجد السيدة زينب.. وقال بهدوء وهو يجلس عليه متثاقلاً:  
- اجلس يا يحيى.

كان الميدان يتحضر لبوم الجمعة وأنشطة سوق ما بعد الصلاة التي تتسم بالازدحام الشديد في ذلك اليوم، طلب لنا جدي قهوة فقلت أنه يمكننا شربها في الشقة بدلاً من الجلوس في الشارع فجراً هكذا، فقال:

- أريد أن أريح قدمي قليلاً بعد الصلاة وقبل التمشية.

ثم تابع بشروء:

- جدك عجز يا يحيى.

فرددت:

- ربنا يخليك لنا يا جدي.

وضع الصبي القهوة أمامنا بعينين ناعستين لا يكف عن فركهما بيده الحرة وسكب بعضاً من قهوة جدي خارج فنجاناه سهواً منه فنهره جدي:

- انتبه يا زفت!

فردّ:

- لا مؤاخذه يا حاج سليم.

وكان ما زال يفرك عينه حتى كادت أصابعه أن تحترقها.. بذلك  
فهوني مع قهوة جدي وتناول رشفة كبيرة من فنجانه واستطعمهاني  
تلذذ وقال وهو ينظر إلى الميدان:

- نريت على أي كلية يا يحيى؟

كنت قد حسمت أمري قبل فترة مضت إن جاء مجموعتي مناسبًا،  
فرددت مباشرة:

- كلية الآثار.

- ترغب في السفر مثل والديك.. لم يعد أحد يريد أن يبقى في  
البلد.

وقبل أن أنفي ما قال وأكذب عليه أكمل:

- إن كنت تريد السفر فعلاً اختر كلية أخرى.. قلبي يحدثني أنك  
تريد أن تسافر.

- ليس موضوع السفر فقط.. إنما أحب دراسة التاريخ، لا أنكر  
أنني سأسعى إلى السفر في أقرب فرصة بعدها، لكن الهدف الأساسي  
هو دراسة التاريخ بشكل ممتع، فأنا أستمتع بقراءته وأظن أنني  
سأصل فيه إلى شيء ما لو تخصصت فيه.

سألني وقد التفت إليّ أخيرًا:

- لماذا لا تختار دراسة التاريخ مباشرة؟ كلية الآداب قسم التاريخ  
مثلًا.

لم أجد ردًا مناسبًا فقال:

- زهو المجموع الكبير طبعًا وآفة كليات القمة.. تريد أن تدرس

ما نحب وأن تلتحق بكلية مجموعها كبير في نفس الوقت.. هذا حقك بالطبع لا يستطيع أن يلومك أحد.

ثم عاد يتفحص الميدان مرة أخرى وقال وقد قارب أن ينهي قهوته:

- اشرب القهوة يا بني.. القهوة مشروب الرجال.. فهي إن لم تُذهب خجلك لا تُظهره.

لم أفهم ما يقصد لكنني تناولت القهوة بصورة آلية وأخذت أشرب منها ببطء شديد بينما تابع وهو يشرد أكثر وأكثر:

- ستعود والدتك نهائيًا الأسبوع القادم.

فاجأني قوله الغريب هذا.. لم يخبرني أحد بذلك رغم أننا تكلمنا معها بالأمس وهي تبارك لي على النتيجة.. وقال جدي:

- لكنك إن أردت دراسة التاريخ حقًا يجب أن تقرأ الشارع وليس الكتب.. هل تعرف اسم هذا الشارع مثلًا؟

وكان يشير بعيدًا ناحية شارع خيرت فقلت متعجبًا من سؤاله:

- بالطبع.. شارع خيرت.. لكن ظننتك قلت إن أمي ستعود!

تابع وكأنه لم يسمع:

- نعم نعم.. كل الناس تعرف أنه شارع خيرت، لكن مَنْ هو «خيرت» هذا؟

لم أرد؛ فلم أكن أعرف.. فأكمل:

- كان خطاطًا ماهرًا.. يُدعى «عبيد الله خيرت».. كافأه الخديوي توفيق بأن منحه هذه المنطقة بالكامل.. وكانت أرض زراعة وبركًا يركد ماؤها بعد الفيضان.. كافأه لأنه كان أمينًا فلم يطمع فيما تبقى

من قشرة الذهب الخاصة بأزرار بدلات الضباط في الجيش بعدان  
نقش عليها جميعا اسم الخديوي وإنما أعاد القشرة إلى السراي..  
ولما وجدوا ما فيه من أمانة أهدها الخديوي منطقة «بركة الفيل»  
بالكامل.

قلت متسائلاً:

- بركة الفيل.. أين؟

نظر إلي بلوم وقال:

- وتدعي أنك تحب التاريخ وتحب أن تدرسه؟! كل هذا هو بركة  
الفيل سابقاً يا مَنْ تحب التاريخ.

وكان يشير بيديه لما كان حولنا من مبانٍ.

لم أجدر دأً على عتابه جهلي.. فأنتهى ما بقى من قهوته ونادى على  
الصبي ليحاسبه ثم قال وهو يقوم من على كرسي القهوة:

- لكل شارع هنا يا يحيى، لكل حارة وكل منزل في القاهرة  
وخارجها.. في مصر كلها يا بني.. لكل شبر من تراب حكاية..  
ولكل حكاية تاريخ.. ووراء هذا التاريخ أناس عاشوا قبلنا.. فرحوا  
وحزنوا، أحبوا وكرهوا، قاتلوا وقُتلوا..

وصمت ثم أكمل بحزن:

- عاهدوا وخانوا.. إن كنت تريد دراسة التاريخ يا يحيى فاقراء  
في الشوارع قبل الكتب.. اعرف تاريخك جيداً يا ولدي وفتش عنه..  
فلم يُملك هذا البلد سوى جهل أهله بالتاريخ.

وبقينا نتمشى في ببطء إلى المنزل وكان متأبطاً ذراعي وقد وجدتُ أن  
خطواته صارت بطيئة جداً.. ولا أعلم متى أصبحت حركته محدودة

هكذا.. وعند باب المنزل كان يجاهد وهو يتنفس استعدادًا للمعركة السلم القاسية.. قال مرة أخرى وهو يضحك:

- جدك عجّز يا يحيى.

وقبل أن ندخل انتبه وكأنه تذكّر شيئًا ما فقال وهو يشير إلى سور مبنى المحافظة المقابل لبيتنا:

- أتعرف هذا المبنى هناك؟

فقلت: مبنى المحافظة.

ضحك ساخرًا وقال وهو يدخل المنزل:

- كان هذا وما زال قصر عابدين.. منذ أقل من مئة عام فقط وقف عرابي على بُعد أمتارٍ من هنا وأجبر الخديوي على التحدث معه هو وجنوده.. بالمناسبة.. هو نفس الخديوي توفيق الذي منح عبيد الله تلك الأرض.

ثم صعد السلم بصعوبة حتى وأنا أسنده.. وفور أن دخلنا الشقة ذهب مسرعًا إلى الحمام معدت إلى الشرفة مرة أخرى ووجدت القميص ما زال على المقعد. جاء جدي بعد دقائق ونظر إلى القميص.. ثم مد يده يزيح ستائر الشرفة بقوة وقال وهو يشير إلى السماء:

- ما دامت هذه السماء، وما دُمت تراها بعينيك.. لا تُذَلَّ نفسك أبدًا إلى ذنبٍ تحتها.. أنت كريمٌ وابن كرام.

ثم بدا وكأنه قد تذكّر شيئًا فقال بمرارة:

- غدًا تعود زينب والدتها إلى بيتها. لن يكون هناك من متسعٍ في البيت بعد أن تعود والدتك نهاية الأسبوع. لقد تزوج والدك من أخرى وترك لأمك بيته هذا لتعيش فيه.

وتركني وانصرف خارجًا.

شئت جلته الأخيرة رأسي فبقيت في مكاني لا أجرو على التفكير فيما قال.. والدي تزوج؟ أي عبث هذا؟ متى وكيف؟ بعد كل هذا العمر؟!

وتركت جسدي يسقط فوق المقعد وفوق القميص.. وكانت قهوة زينب ما زالت على المنضدة وقد باتت باردة.



رحلت زينب عني للمرة الأولى منذ ولدت، احتلت المنزل كآبة غير عادية بعدها.. لم تحاول أن تخفي دموعها وهي تخرج من الشقة مع أمها التي قالت إنها ستجيء الجمعة القادمة لتسلم على أمي. وقالت زينب في حزن شديد «في كل جمعة سنجيء لنبيت معكم». وبكت ولم تكمل كلامها.. أوصلتها إلى سيارة الأجرة أمام البيت، ورفضت زوجة عمي أن أذهب معها لأوصلها إلى بيتها. وكنت مهمومًا برحيل زينب أكثر من طلاق أمي المقبل كما علمت من جدي، كل الأمور تداخلت في رأسي وانقلبت الحياة بين يوم وليلة، لم تكن أمي من ربتني من البداية.. بل جدي وزوجة عمي.. ثم أي شقة تلك التي لن تنزع للجميع لزيادة فرد واحد عليها؟! هل تعمد جدي أن يبعدي عن زينب؟ أترأه من حرّك باب الشرفة ليلة أمس؟ ثم ماذا ستفعل أمي في مصر؟ هل ستعود إلى التدريس في مدارس الحكومة أم ستبحث عن مدرسة خاصة؟ أم أنها ستجلس في المنزل دون عمل؟ والنقود أيضًا.. هل سيستمر أبي في إرسال النقود أم سيوفرها لعروسه الجديدة؟

تراحمت الأسئلة وتراكمت في رأسي وأصبحت أخاف من المستقبل للمرة الأولى في حياتي.. حاول جدي طوال الأسبوع أن يخفف عني

واقعة انفصال والدي، فكان يأخذني معه للصلاة يوميًا ثم نجلس بعد الفجر على نفس المقهى.. ويحكى لي عن تاريخ منطقة السيدة زينب وما حولها.. ثم القاهرة.. وبعدها تاريخ القاهرة القديمة كلها وحتى جوهر الصقلي.

عادت أمي، وكانت طبيعية في كل شيء. لم يبدُ عليها أي أثر لصدمة الانفصال، وكأنها جاءتنا فقط في زيارة طويلة. وفي ظرف أسبوعين كانت قد قدّمت أوراقها بإحدى المدارس الخاصة القريبة. وقبل أن تبدأ دراستي بالجامعة كانت قد اندجحت في حياتها وكأنها قضت عمرها كله هنا. وأصبحت تتردد على بيت أهلها معظم أيام الأسبوع. لكنها منذ يومها الأول أبدت جفاءً غير عادي تجاه زينب وأمها وكأنها تنتقم فيهما من فعلة أبي. وكانت تسيء معاملته زينب تحديدًا. ولاحظ جدي ما لاحظته.. حتى إنني سمعته مرة وهو يعاتبها على معاملتها واتهمها أنها تغار منها علينا.. حتى تباعدت زيارتهما تدريجيًا وانقطعت أقدامهما تقريبًا من البيت باستثناء المناسبات المباشرة.. ثم سرقني الكلية تمامًا بعد بضعة أشهر.

في الجامعة قررت أن أعمل بنصيحة جدي وأضفت عليها.. لم أترك معلومة طالتها يدي إلا وقتلتها بحثًا.. وقررت أن آخذ التاريخ من بداياته. حتى تخصصت في الحضارة المصرية القديمة في النهاية. وبين الجامعة وأسوارها والتاريخ وأسراره غاب وجه زينب عن عيني. واقتصر على السيرة عنها مع جدي أو السلام السريع عبر الهاتف من شهرٍ لآخر. وحزنت عليها عندما علمت أنها رسبت للمرة الأولى في حياتها بامتحان الثانوية العامة.

في نهاية عامي الثالث بالكلية دخلت المنزل على صوت مشاجرة

بين جدي وأمي. فور أن دخلت الشقة كان وجه أمي محمراً وعيناها  
غاضبتين تماماً وجدي يصيح بها:  
- هذا حقها علينا.. نحن أولاد أصول وهي حفيدتي مثلها مثل

يحيى.

فردت:

- اشرح لها أنت يا حاج سليم. أحضر لها أفضل المدرسين  
وسادفع لهم أنا ما يطلبون.. لكن اترك ابني خارج هذا الموضوع.  
استفسرت منها بشأن ما يدور وسبب الخلاف بينهما فصاحت  
أمي غاضبة:

- المحروسة الفاشلة لا تستطيع أن تبتعد عنك.

فقاطعها جدي:

- حلفت لك بالله أنني من اقترحت عليهم.

لم ترد عليه وإنما ذهبت إلى غرفتها. وقال لي جدي إنه اقترح على  
زينب وأنها أن نستضيفها لعدة أيام، كي أساعدها في تحصيل ما  
يستعصي عليها من المواد كي لا ترسب ثانية. خاصة أنها رسبت في  
التاريخ الذي صار تخصصي. فقلت لجدي:

- وما المشكلة في ذلك؟ هذا حقها.. بل أقل من حقها.

فقال جدي:

- أعلم أنك ابن أصول يا يحيى.

- ولم المبالغة يا جدي.. أليست هذه زينب؟ لقد عشتُ معها  
أكثر مما عشت مع أمي؟  
فابتسم رغم حزنه وقال:



- المشكلة أن والدتك تخشى عليك أن تتزوجها.

تصنعت المفاجأة وأنا بالطبع أفهم ما يدور في رأس أمي وقلت:

- أتزوجها؟ حتى وإن كان كذلك؟ ما علاقته بمساعدتها في

المذاكرة؟ لقد كانت تسهر جوارى طول الليل أيام امتحاناتي بالثانوية

العامة، حتى كادت أن ترسب هي في الإعدادية.

ضرب جدي كفًا بكفٍ وصاح:

- قل لها يا بحيمى!

هدأت من غضبه قدر ما استطعت وقبل أن أتركه قلت له:

- بالمناسبة يا جدي.. لا أمي ولا أي إنسان يستطيع أن يجبرني على

الارتباط بشخص أو أن يمنعني عنه.

قال وكأنه ينتظر أن يفتح معي الموضوع:

- وزينب.. هل ترى أنها..

فقلت مقاطعًا قبل أن يكمل ما أعرف أنه في نفسه:

- لا زينب ولا غير زينب.. لا أفكر في أحد سوى في نفسي الآن.

بدا عليه الإحباط نوعًا ما، لكنني كنت محققًا وصادقًا مع نفسي

فيما أقول.. منذ دخلت الكلية لاحظت أن الفتيات هن من يتوددن

ويتقربن إليّ وليس العكس كما كنت أتوقع.. رأيت في أعينهن حبًا

لشيء لم أعلمه ولم أراه في نفسي ولا في المرأة.. ربما كان طولي أو ملاحظة

وجهي.. ربما تفوقي في الدراسة وعلاقاتي المتأصلة بالأساتذة في الكلية..

ربما كنت جميلًا حقًا كما ادعت زينب كثيرًا.. لم أعرف حقًا ولم أكن جافًا

أو فظًا معهن. تركت نفسي للموجة الخفيفة الأولى في الكلية وتناولتني

موجات أخرى أكثر عنفًا في سهولة ويسر.. وكنت لا أرتوي من أحد..

يعجبني البحر لكن لا تروق لي السباحة لفترة طويلة. في البداية كنت أشعر أنه ثمة شيئاً ينقصني فيهن.. ومع الوقت أصبحت أشعر أن كل شيء تقريباً يكون ناقصاً.. وعلمت مبكراً أن رحلتي مع النساء وإن كانت طويلة وممتدة.. ستكون في الغالب دون نهاية.

اتفقت مع جدي أن تأتي إلينا زينب نهاية الأسبوع في اليومين اللذين تقضيهما أمي في بيت أهلها بالبلد.. ولتعلم بعد ذلك ألا تعلم بشأن قدوم زينب في غيابها.

هاتف زينب في اليوم التالي وكان صوتها حزيناً في المكالمة.. اتفقت معها أن نقسم المذاكرة على جلستين على مدار الأسبوعين المقبلين في يومي الخميس والجمعة.. على أن تحضر بعد عصر الخميس كي نكون أمي قد رحلت.. وتعللت بالكلية وإن أحسست أنها فهمت دون كلام. جاءت متأخرة مساء الخميس ولم أكن أذكر متى التقينا آخر مرة. ربما منذ أكثر من عام.. وكنت متعباً يومها حتى إنني سلمت عليها وعلى زوجة عمي في سرعة ودخلت غرفتي لأنام بعد تعب الكلية.. لكنني عندما رأيتها ذلك المساء كنت كأني أراها لأول مرة.

كبرت زينب.. كبرت بسرعة شديدة وصارت فتاة جميلة وجذابة.. وحزينة أيضاً، كان وجهها رغم نضارتها يورايه ذبول واضح.. كزهره اقتطفها أحدهم ونسي حتى أن يتأملها قليلاً. لكن رحيقها كان فواحاً. ووجدت أنني سأتعامل مع زينب الأنثى وليست زينب رفيقة الطفولة.

اتخذنا مجلسنا المعتاد بالشرفة.. فكرت في شيء أكرسه الجو كي أخفي ارتباكها منها وكى نكسب من الوقت ما استطعنا فلم أجده بادرته هي وقالت:

- أعمل لك قهوة قبل أن نبدأ؟

وكانت تسأل وكأنها تأمر وتحركت من جلستها فقلت لها رافضاً:

- لا سأصنعها أنا.. شكراً.

ووجدتني قد أخرجتها فقلت مطيئاً خاطرها: «أدعك تعملينها..

بشرط أن تشربين معي» فابتهجت.. وطلبت منها أن تسأل جدي إن

أراد هو أيضاً.. ثم سألتها مازحاً وهي في طريقها للمطبخ:

- تذكرين الخلطة السرية؟

فقال مبتسمة وقد بدأ ذبولها يضعف أمام نضارتها التي حلت:

- طبعاً.. غامق على فاتح.

وأخفضت من صوتها وهي تكمل «على مسروق».. ثم ضحكت

وطارت كالفراشة إلى المطبخ.

كان الغروب قد حلّ.. ومن الشرفة استطعت أن أرى ديوان عام

المحافظة بوضوح ومصابيحه المضاءة المنسية من الليلة الفائتة والحركة

بدأت تهدأ في الشارع مبشرة بليلة هادئة من ليالي شهر مايو.. والصيف

لم يعلن عن نفسه بقوة بعد. وفي دقائق كانت زينب قد عادت مبتهجة

بنفجانيين من القهوة وقد تغيرت عن زينب الصامتة منذ دقائق..

وضعت الفنجانين ثم خلعت الشال الذي كانت تضعه على كتفيها،

ووجدتها قد أصبحت فتاة فعلاً.. لاحظت مجرى عيني على جسدها

فقالت هاربة بعينيها:

- هل دراسة التمريض صعبة؟

استغربت سؤالها فقلت:

- لماذا التمريض؟

- أتمنى أن أدخل تمرّض بعد الثانوية.

- لا أعرف عنها شيئاً.. أظن أنها صعبة.. غالباً كل الدراسات الطبية صعبة.. دعينا من الكلية وقولي لي ما المشكلة الآن؟ لماذا رسبت في التاريخ؟ التاريخ مادة سهلة ومسلية جداً.. كله حكايات ومذاكرته بسيطة.

قالت:

- المشكلة ليست في التاريخ.. المواد كلها صعبة ومعقدة.. لقد نجحت في المواد الأخرى بالصدفة.

- ستنجحين هذه المرة بإذن الله.. وسنختار معاً كلية مناسبة معي في نفس الجامعة.

أشرقت زينب بشدة وبش وجهها وقالت:

- ونعود سوياً من الجامعة كل يوم.. كما كنا نفعل بعد المدرسة؟ ابتسمت وقلت لها:

- ونعود نلغف على فاترينات المحلات كل يوم.

وكنت أنظر في عينيها العسليتين الجميلتين وكانتا تلمعان من الفرحه ووجدتها تنظر إليّ تلك النظرة القديمة التي لم أنسها أبداً.. قلت هرباً من عينيها:

- لا بُد أن نعرف الآن ما المشكلة في المذاكرة: ردت بسرعة:

- لا مشكلة في المذاكرة.

ثم أشارت إلى صدرها وقالت:

- المشكلة هنا.. المشكلة هي أنت.

ووضعت يدها على يدي فوق سور الشرفة وقالت:

- أنا أجُتُّك يا يحيى.

ولم أعلم أبداً مَنْ منا بدأ في تقبيل الآخر. ولم نهتم بذلك. ولم نهتم حتى بساتن الشرفة المفتوحة. ولا بالتاريخ ولا بالثانوية العامة وكانت أول مرة أقبل فيها أحداً.. وطالت القُبلة لا أدري متى.. ولم أمنعها ولم تمنعني، ولم نهرب من شفاهنا ولا حتى كي نلفظ أنفاسنا.. كانت الغواية أقوى وأسرع من كل شيء.. وصاح جدي من خلفنا: «لعنك الله يا يحيى».. وكان وجهه متفخفاً من الغضب ويداه ترتعشان فوق عكازه وعيناه بهما من الغضب ما لم أنسَ طوال حياتي. حتى إنني لم أتحرك من شدة الخوف ولم أفلت زينب من بين يدي حتى تناولت هي شالها وهي ترتعش وتركت كتبها وحقيبتها وهربت مسرعة خارجة من الشرفة ومن المنزل كله.



كانت أسطوانة أسمهان تصدر أصوات دقات متوترة تحت إبرة الجرامافون بعد أن انتهت دون أن أدري متى. وكان وجهي محمراً وأنا أتذكر عيني جدي بعد كل هذه السنوات الطويلة. حتى إنني تَلَفْتُ في غرفتي بالكامب وكأنني أبحث عن عينيه الغاضبتين المختبئتين في أركانها تراقبانني.

قمت من فوق فراشي وما زال قلبي يدق بعنف من الذكرى ومرارتها. أسكتت الجرامافون بغضبٍ وقد وترني صوت دقاته وهممت بأن ألقي بنفسي فوق الفراش ثانية لكنني انتبهت أن الدقات

لم تنتهِ بعد. نظرت إلى الجرامافون متعجبًا فوجدت أن الدقات كان  
مصدرها باب الغرفة.

انجهت إليه لافتحه وقلت لنفسي ربما عارف قد دبر لي السيارة  
بسرعة كما وعد. فتحت الباب فوجدت سيدة البازار واقفة أمامي  
ومن خلفها الشمس كاملة.. وكانت تبسم وهي تسأل بلهجة عربية  
واضحة:

- أنت دكتور يحيى؟



(٢)

## ياسمينا

عزيزتي بيلا:

قال لي «زين» أن كبيرهم يعمل في وادي حبيبة.. وطلب مني أن أبحث عنه هناك.. ورفض أن يضيف أي تفسير أو أن يشرح لي شيئاً.. منذ قابلته وهو لا يتحدث إلا بالرموز وكل جملة مغلفة بالشفرات والأسرار.. لكنني حمدت الله أنني وجدته في النهاية.

عملت بكلام «زين» وذهبت بالفعل إلى «وادي حبيبة» بحثاً عنه حتى وجدته أخيراً.

عزيزتي بيلا.. أم أقول أمي الحبيبة. لشدة ما أفتقدك يا حبيبتني. لبتك كنت معي اليوم في البازار لترى بنفسك؛ شاب وسيم.. أم أقول رجلاً وسيماً له وجه عجوز حزين دائماً وإن ابتسم لي بعينه أول ما التقينا.. ذكرني وجهه بـ«أندريا بوتشيلي» فور أن رأيته بالبازار.. له تقاسيم وجه «بوتشيلي» الذي أدمن سماع أغنياته. أترأى يمتلك حنجرة عذبة مثله؟ وكأنه رجل إيطالي يعيش في مصر. آه يا أمي.. هل تذكرين شجارنا الدائم سويًا عندما كنا في الإسكندرية..

كنت دائماً تغضبين مني عندما أقول لك إنني في الأصل إيطالية نسبة  
لأبي.. كنت تخاصميتني ويلتوي وجهك وتتجاوزني عيناك وتقولين  
لي: «أنت يونانية.. يونانية مثل أمك.. والدك تركنا وحدنا، لكن  
هل كنت أفعل ذلك حقاً لأنني كنت مثل كل البنات في سني أريد  
أباً أنتسب إليه؟ أم كنت ألومك في سري لأنني كنت أعلم أنه تركنا  
لإصرارك على العودة إلى مصر وإلى منزل جدي «روز» بالإسكندرية؟  
ولإصرارك على بحثك عنها منذ اختفت في مصر وانقطعت أخبارها.  
سامعيني يا بيلا.. سامعيني يا حبيبتني لقد كنت طفلة لا أعني ما  
أقول.. لكنك إن شئت الحق فدائماً ما كنت أجدني مصرية، مصرية  
مثل جدي روز ومثل الخال أنطوان. مصرية تماماً مثل ذلك الوسيم  
الذي وجدته في بازار «عارف».

يقول «عارف» إنه دكتور بالجامعة.. وأنه كان يدرّس الآثار. عندها  
تأكدت من أنه من كان يقصده «زين» وكان عارف يساومني على بيع  
تمثال سيء جداً للملك فرعوني. لمحت لعارف أنني سأعطيه ما يريد في  
البداية كي أستنتقه عن ذلك الوسيم الذي جاء لدقيقتين ورحل..  
وبعدما انصرف سألت عنه عارف وأنا أبرز له الخمسين دولاراً ثمناً  
التمثال الرديء فقال لي كل شيء في دقائق، قال إنه دكتور آثار بالجامعة،  
وأنه ترك التدريس منذ سنوات، وأنه يقيم في الغردقة منذ وقتها لكن  
بيت دائماً وحده في غرفته بكامب وادي حبيبة. ثم تابع عارف قائلاً  
إنه غريب وأن وراءه سرّاً لا يعرفه أحد.. كما يعتقد أنه هارب من  
جريمة ما ويختبئ هنا في وادي حبيبة. وعندما بدأ عارف في الاسترسال  
بمعلومات واضح أنها خيالاته هو، سألته عما كان يطلبه منه في الحاح



ويصر عليه.. فأخبرني أنه يريد أن يستأجر سيارة يذهب بها إلى قرية ما في داخل الجبل ليقابل أحد العرب بها.. لكن السيارات كلها كانت غير متوفرة وقتها. خيل إليّ أنه ربما تكون هذه فرصة لن تتكرر.. سألت «عارف» عن مكانه بالكامب فابتسم اللعين في خبثٍ وأشار إلى ممر بعيد توجد به مجموعة من الكرفانات المتصلة ببعضها.. وقال إن غرفته هي الأخيرة في الممر.

عزيزتي بيلا.. لا أريد أن أطيل عليك في هذا الخطاب أكثر من ذلك.. لقد قابلته يا أمي.. اسمه يحبي، كان يبدو حزينًا جدًا، وكاد أن يلين ويقبل عرضي عليه.. لولا حظ ابتك التعمس دومًا.. لكنني أنتظره الليلة لعله يأتي، ليت يأت، فأنا وحيدة هنا.. وحيدة جدًا يا بيلا. وصرت أكثر وحدة بعد أن قابلت يحبي.

أحبك وأفتقدك..

ابتكت المحبة: ياسميننا.



عندما كنت في البازار رأيت في عيني «يحبي» شيئًا يناديني بقوة. يقول لي أن تعالي وستجدين عندي ما تبحثين عنه.. وأنا كنت أبحث منذ سنوات، لكنني كنت أجهل ما هذا الذي أبحث عنه.. يأتيني النداء كل فترة منذ رحلت والدتي بيلا.. وكان آخر نداء هو ما رأيته جليًا في عيني «يحبي» وهو يستأذنني قبل أن يخرج من البازار. لكن إن كان نداء حقيقيًا فلماذا رفض عرضي عليه عندما ذهبت إلى غرفته؟! وهل رفض حقًا أم أنه ادّعى الرفض. بدالي وكأنه يقاوم شيئًا قبل

أن يوافقني لكنه أساساً سلم له في النهاية ورفض عرضي. هل ستغذاني أنت أيضاً يا يحيى؟.. كان نداؤك لي قوياً حتى إنني تعمّدت أن أرد عليك بالعربية في البازار عليك تلتفت إليّ أكثر.. حاولت أن أستبقيك رغم أنني أتعمد دائماً أن أخفي نطقي للغة العربية منذ رجعت إلى الإسكندرية بعد فراق دام أكثر من خمسة عشر عاماً، لكنني لم أياس منك.. وقررت أن أحاول حتى النهاية.

يقول زين إنني سأجد لديه الإجابة؛ لذا لا سبيل لدي سوى الإجابة التي لم أكن أعلم من الأساس ما هو سؤالها.

استجمعت شجاعاتي واتجهت إلى غرفة يحيى حيث أشار لي عارف وأخذت أقرع الباب مرات ومرات ولم يأتني رد.. خشيت أن يكون قد دبر سيارة بطريقة ما وضاعت عليّ الفرصة. ولم أتلق ردّاً من خلف الباب. قررت أن أستسلم في النهاية وأجرّ خييتي وأعود إلى الاستوديو الذي أعيش فيه مؤخراً بالغردقة. وقبل أن أحرك قدمي وجدتها لا تطاوعني على الرحيل، وسألت نفسي: هل وراء الإصرار هذا شيء آخر غير الإجابة؟.. وخفت جداً.. فأنا أهرب من الرجال ولا أسعى إليهم منذ ما حدث مع فيليب. ويجب أن أفيق لنفسي.. لقد كدت أن أفقد حياتي في آخر مرة.

اتخذت قراراً بالرحيل عندئذ، لكن خائنتني يدي وقرعت هي الباب وحدها من ورائي، وسمعت حركة واضحة خلف الباب ثم فُتح فجأة ووجدته أمامي.. ارتبكت بشدة فور أن رأيته أمامي، وقلت دون حتى أن ألقى التحية:

- أنت دكتور يحى؟

بدا مشدوفاً فور أن رأني وسمعني، وكنت أحاول أن أصطنع ابتسامة لأخفي ارتباكى الشديد، ردّ عليّ بعينين متستعتين:

- ولكنك..! أتحدثين العربية؟

قلت وقد زاد ارتباكى حتى بلغ أقصاه:

- نعم نعم.. أنا أصلاً مصرية.. أعني جدتي كانت كذلك.. لقد عشت هنا كثيراً.

ولم أدري لماذا أجبته مباشرة هكذا وأخبرته عني وعم جدتي منذ أول عادثة. كان يقف مفروداً الجسد أمام باب غرفته كأنه يحميها من دخول أي أحد. ووجدت الموقف قد أصبح سخيفاً وكان لامع العينين وكأنه على وشك البكاء. ظللنا صامتتين مكاننا حتى أحس رأسي قليلاً في استفهام واضح فأدركت أنني لم أقل له أي شيء بعد فقلت:

- عذراً، لقد فهمت من عارف أنك تبحث عن سيارة لأمر عاجل ولا توجد سيارات متوفرة حالياً بجاراج الكامب ولقد جئت هنا بسيارة مستأجرة من الفندق لفترة الإقامة.. ففكرت أنك ربما... قاطعني يحى:

- ولماذا تتخفين إذا وراء لغة أخرى؟! من أنت؟

أحسست هجومًا في كلامه وتهكمًا في لهجته، وجدنتني أدافع عن نفسي:

- أنا ياسمين.. أنا يونانية في الأصل.. لكن جدتي كانت مصرية وعشت هنا في منزلها سنوات طويلة.

قال بفضول وقد بدأت جدّته تهدأ:

- عشت هنا؟ في الغردقة؟

- لا في الإسكندرية.. كان هذا منذ زمنٍ بعيدٍ..

وكان يجيى ينظر إلى وجهي وعيناه تتفحصان شفاهي وكأنه يمررها على جهازٍ لكشف الكذب داخل رأسه، ولم أكن أكذب.. قلت لـ  
وأنا أفسّر تحدّثي الإنجليزية:

- أما بالنسبة للغة فقد..

لكنه قاطعني مشيرًا بيده وقال:

- أفهم أفهم.. تبغين معاملة خاصة طول الوقت كالأجانب.

ثم ابتسم وتابع:

- لكنك ستدفعين كثيرًا طوال الوقت أيضًا.

ضحكت وقلت وأنا أشير إلى التمثال الرديء في يدي:

- فعلاً.. لقد دفعت خمسين دولارًا في هذا العبث.. أتصدق؟!

تناول يجيى التمثال من يدي وأخذه ثم بدأ يتفحصه بعينين خبيرتين وقال:

- هممم.. التمثال سيئ فعلاً.. لكنه ليس سيئًا جدًّا كما رأيته  
غاضبة في البازار.. هذا تقليد مقبول نوعًا لرئيس الثاني.

- ماذا تقول.. بل سيء جدًّا.. انظر إلى قدمه اليسرى أعرف أنه  
رئيس الثاني بالطبع.. لكن أهذه قدم ملك أو حتى قدم رجل  
عسكري؟

ولم أستطع أن أشرح أكثر فقلت:

- Left leg step, You know this for sure!

وهنا انتبه يحى لما أقصد وقال:

- نعم نعم فهمت مقصدك.. التمثال هنا ضامم قدميه جوار بعضهم وليس كما هو شائع عند الملوك والعسكريين أن يتقدم بقدمه اليسرى خطوة إلى الأمام.

رددت عليه منتصرة: أرايت؟

ثم بدا وكأنه انتبه لشيء ما فسأل:

- ولكن من أين لك بهذه المعلومة؟ ولماذا تستنكرين عليّ الجهل بها؟ هذه معلومة يعرفها المختصون فقط.

ارتبكت قليلاً وخفت أن أفقد ثقته وقلت:

- سألت عارف عنك وأخبرني أنك دكتور بالآثار.

- وكيف تعرفين بالمعلومة أنت؟ هل تعملين بالآثار أيضًا؟

- لا إطلاقاً. أنا أعمل بالتسويق. أعني كنت أعمل بالتسويق سابقاً في شركات متعددة الجنسيات.. لكنني قرأت المعلومة ذات مرة لا أذكر أين.

عاد يحى يتفحص التمثال مرة أخرى وقال:

- تقليد سيء فعلاً.. يمكنك أن تستعيدي نقودك إن أحببت.

أتريدني أن أكلم لك عارف؟

قلت مقاطعة: لا لا بالطبع.. ما كنت اشتريته من البداية.

ثم صمت وبدأ أن الكلام انتهى ولم أجد ما أقوله ولا حظت أن  
يجبى كان ينظر خلف قدمي ناحية الأرض باهتمام.. هممت أن التفت  
لأرى ما الذي ينظر إليه فعاجلني بالسؤال قائلاً:

- ظننتك كنت تقولين شيئاً عن سيارة لديك؟

ابتهجت وقد بدأ يلين وقلت:

- نعم نعم.. لدي سيارة مستأجرة هنا معي إن كنت تريد

استخدامها.

نظر إلى ساعة يده وفكر قليلاً ثم ناولني التمثال بيده وقال:

- أحتاج إلى سيارة فعلاً لكنني لا أستطيع القيادة.

أخذت منه التمثال فلمست أنامله يدي فارتعبت وابتعدت  
خطوتين وجزع من ردة فعلي المبالغ فيها، فقلت متداركة الموقف:  
- لا بهم يمكنني أن أوصلك.

وكان قلبي يدق خوفاً من أثر تبعات لمسته يدي.. قال معترضاً:

- أشكر عرضك لكنني أفضل أن أنتظر عازف.

أحسست أنني فقدته مرة أخرى بسبب ردة فعلي الحمقاء.. وكانت  
يدي تتحسس مندبلاً في حقيبة يدي استعداداً للمفاجأة. قلت في محاولة  
بائسة وقد رأيت في عينيه رغبة قوية في قبول عرضي لا أدري لم يقاومها:

- ظننتك في عجلة من أمرك.. كنت تلح على عارف في البازار.

وعلى ذكر السيرة ظهر الملعون عارف فجأة من تحت الأرض.  
جاء على ناصية الممر المؤدي إلى الغرف وقال:

- السيارة جاهزة يا دكتور يجبى.

وابتسم بحبٍ لي عندما رأيَ واقفةً مع يحيى أمام باب غرفته ثم انصرف. التفت إلى يحيى وقال:

- لقد حُلت مشكلة السيارة.. أشكرك على أي حال.

ثم عاد يلتفت إلى الأرض من خلفي.. قلت بإحباط شديد:

- عفوًا.. لا داعي لذلك.

واستدرت كي أرحل وكلي غضب وإحساس بالفشل.. حرَّك يحيى باب غرفته متأهبًا لإغلاقه فقلت مسرعة في محاولة أخيرة فاشلة لاستبقائه:

- هل تعرف مقهى يقدم قهوة تركية جيدة في مارينا في الغردقة.. سمعت من عارف أنك تعيش هنا منذ سنوات.

قال وقد وارب معظم الباب:

- يبدو أنك سمعت عني الكثير من عارف.. جربي كافيه «the cave» قهوته ممتازة على أي حال.

وقبل أن يغلق الباب تمامًا قلت بسرعة وأنا أبتسم:

- نشرب معي قهوة الليلة عندما تعود؟

فردَّ دون تردد:

- متأسف سأكون مشغولًا.

وبدا مرتبكًا بعدما استأذنتني أن يغلق الباب.

أوليته ظهري وانصرفت، وسمعت يغلق الباب خلفي وأحسست وكأنه قد أغلقه على روحي.



كان وجهي محمراً وقد أحسست بحرارته الشديدة.. تناولت المنديل الذي أحمله معي دومًا من حقيبتني وضغطتُ برفق فوق شفتي وأنفي.. ونظرت إلى المنديل فوجدته كما هو.. وفررت من الكامب كله وعدت إلى الاستديو في الغردقة.

وصلت الاستوديو خلال وقت قليل جدا بعد قيادة سريعة متهورة على غير عاداتي.. وكان وجهه يحبى وهو يقول لي معتذراً «متأسف سأكون مشغولاً» لا يفارق عيني.. وأنا التي لم أتوسل إلى رجلٍ من قبل طيلة حياتي.

ألقيت حقيبتني فور أن دخلت الاستديو وخلعت ملابسني على عجل ورحت الحمام لأغتسل من أتربة الكامب.. ومن عيني يحبى. أدت أغنية «سيلين ديون» هذا هو الطريق، ورفعت صوت «الأي بود» إلى أقصى درجة ممكنة.. وتركت نفسي للمياه الساخنة تغسلني.. وفور أن بدأ الماء يداعب جسدي بدأت روحي تهدأ.. فأنا ابنة البحر سواء هنا في الغردقة أو سابقاً في اليونان.. أو حتى قديماً في الإسكندرية.. نظرت إلى جسدي في مرآة الحمام الكبيرة وقد بدأ بخار الماء يعلق بها وتشوش انعكاس جسدي فيها.

كانت أمي «بيلا» تقول أنني لم أرث من أبي سوى طوله.. بينما ورثت منها ومن جدتي المصرية «روز» وجهها إغريقياً وعينا مصرية. وقع جدي اليوناني فيليب في هوى جدتي عندما كان يعمل على متن إحدى سفن الشحن بميناء الإسكندرية في الخمسينيات.. وقد أخذه الجمال المصري وصرعه دلال جدتي حتى إنه ظل عامًا كاملاً



يسعى لنيل رضاها ولم يخش من والد جدتي الضابط في الجيش المصري. وقد كانت بداية حكم محمد نجيب. وفي الفترة التي نشب فيها الخلاف بين عبد الناصر ونجيب سافر جدي إلى اليونان ومعه جدتي روز هرباً من مصر. وأرسلت هي خطاباً بعد سنوات إلى أختها الكبيرة تريز وبه صورتها هي وجدي ويحملان الصغيرة «بيلا» بين أيديهما.

تقول أمي إن أهلها حاولوا مراسلة «روز» لأعوام طويلة لكنهم لم يعرفوا لها عنواناً.. ولم يعلم أحد لماذا قررت جدتي فجأة وبعد عشرين عاماً أن ترجع إلى الإسكندرية.. وكان هذا في بداية أوائل السبعينيات.. تركت ابنتها «بيلا» مع جدي فيليب وكانت أمي في الثامنة عشر من عمرها. وراسلت أمي وجدي وطمأنتهم على أمورهما في مصر. ثم انقطعت أخبارهما فجأة وظل جدي يحاول أن يصل إليها بأي طريقة فلم يجد بُدّاً من السفر إليها في مصر.. وعاد يحزنه وحزنه وراءه. قال لأمي إنها أخذت تنتقل بين مدن مصر ومعها الصبي النوبي «زين» والذي كان يعمل خادماً في سراي والدها المصري في أنفيلد بالإسكندرية. وكان آخر خبر عنها أنها كانا يجهزان لسفيرة إلى مدينة في الجنوب ظن والدي وقتها أنها مدينة «قنا» بصعيد مصر. ولكنه لم يجد أي خيط يدلّه من أين يبحث. خاصة أنها كانت أيام حرب في مصر.

عندما كنت في السادسة من عمري وكانت أمي قد تزوجت واستقرت في نفس البلدة باليونان. صحوت على مشاجرة تكرر منذ أيام ولا أفهم منها شيئاً بين أمي وأبي.. وكان يشير إليّ ويؤكد صائحاً على أمي أنه لن يسمح بذلك.. ولا أذكر من المشاجرة أي شيء سوى

أنني وجدت نفسي مع أمي بعدها بيومين في طائرة قالت لي أمي إنها  
ستذهب بنا إلى الإسكندرية.

لم أعلم كيف قدّمت بيلا نفسها في منزل عائلة روز القديم.. وكان  
قد مضى على اختفاء روز أكثر من خمسة عشر عامًا.

كنت طفلة.. وفرحت بالقبلا الكبيرة وبالغرفة الواسعة المطلّة  
على البحر والتي أعطوها لنا كي نعيش فيها.. قالت لي أمي أننا  
سنظل هنا لمدة عامٍ كاملٍ.. فسألتها عن المدرسة، وعن أصدقائي  
الذين كنت ألعب معهم.. فصاحت بي غاضبة وقالت لي كلامًا كثيرًا لم  
أفهمه وقتها لصغر سني.. ولم أكن غاضبة أو أشعر بأي غربة.. كانت  
الإسكندرية بالنسبة لي لا تختلف عن «رودس»<sup>(١)</sup> كثيرًا.. فكلاهما على  
البحر.. وهو الشيء الوحيد الذي كان يهمني. ولم أعلم أنني سأقضي  
في الإسكندرية عشر سنوات قبل أن أرجع إلى اليونان مرة أخرى.

منذ اليوم الثاني لوصولنا بدأت بيلا رحلة البحث عن الصبي  
«زين».. فكما عرفت من خالها كان آخر شخص يعرفونه موجودًا  
معها.. وكانت تأخذني كل فترة للبحث في حي مختلف من أحياء  
الإسكندرية العديدة.. وبعد عدة أشهر.. وبعد أن اكتشفت أن الأمر  
سيطول توسط لنا خالها أنطوان وقدّم أوراقني للدراسة في «ليسه  
الحرية» لإكمال دراستي في مصر.. والتحقّت بيلا لتدريس اللغات في  
نفس المدرسة، وفي غضون أعوام قليلة صرت طفلة مصرية خالصة..  
حتى إن بيلا كانت تداوم على الحديث معي باليونانية كي لا أنساها.  
في عامي الأول في ليسيه الحرية كان الأولاد والبنات ينظرون إليّ جميعًا

(١) هي جزيرة يونانية تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا.

نظرة استغراب طوال الوقت.. رغم أنني لم أكن شقراء، لكن ملامح وجهي كانت إغريقية تمامًا.. خاصة ذقني وشفتي.. ورغم إحساسي بالاختلاف عنهم إلا أن ذلك لم ينتج عنه انطواء أو خوف.. انغمست في الصداقات وصادقت كل من استطعت.. صرت الصديقة المفضلة لكل بنت وكاتمة أسرار الأولاد في الفصل.. وفي بداية العام الجديد أصبحت زعيمة لأهم شلة في المدرسة.. خاصة بعد أن أصبحت والدتي «بيلا» هي مدرّسة اللغة الإنجليزية للمرحلة الابتدائية.. وأصبحوا ينادونني في المدرسة «ياسميننا بنت بيلا».

كان يومي في الإسكندرية ينقسم نهارًا بين المدرسة والبحث مع بيلا عن أي خيط يقودها إلى جدي «روز» أو حتى إلى الصبي المختفي «زين»، وكان المساء غالبًا أفضيه مع بيلا وخالها أنطوان، الذي اتّنس بوجود أحد معه في الفيلا الواسعة التي أصبح يعيش فيها وحده تقريبًا.

في العام الثالث لي بمصر كنت قاربت العاشرة من عمري، وفي المساء وأنا أجلس مع الخال أنطوان وكان يحاول جاهدًا أن يعلمني لعبة الشطرنج كي أشاركه اللعب بعد رحيل صديقه المقرب والآخر قالي لي:

- أنت ذكية جدًا يا ياسميننا.. مثل والدتك.. بل أنت ذكية مثل جدتك «روز»

قلت له: كيف كانت جدتي روز ؟

شرد بعينه وهو يشير إلى صورة لها على الجدار قائلاً:

- كانت أجمل بنات الإسكندرية.. وأكثرهن ذكاء.. ولولا أن خطفها

منا جدك «فيليب» هذا لكانت زوجة رجل مهم الآن.. كان شباب الإسكندرية جميعهم يخطبون ودّها.. حتى أن رجلاً ذو شأن هنا طلب يدها لابنه الذي كان مهندساً كبيراً في البحرية. إلا أن جدتك تركت كل هذا وأجبت عاملاً بسيطاً من قرية فقيرة في اليونان.. وهربت مع في أيام سوداء.

- ولكن بيلا تقول إنها عادت إليكم من النهاية.  
- لا يا ابنتي.. لم نعد إلينا.. عادت لأمر لا يعلمه أحد.  
- كيف؟

- قلت لك لا أحد يعلم لماذا عادت.. لم نكن نعرف لها عنواناً في اليونان.. فقط بعد موت أختنت الكبيرة تريز ظهرت جدتك فجأة.. لم يعاتبها أحدٌ على اختفائها كل هذه السنوات.. رحبنا بها وأكرمناها حتى إننا طلبنا منها أن ترسل إلى زوجها إن كان يريد أن يأتي هو أيضاً ويعيش معنا.. وكانت قد تركت والدتك معه وهي شابة.. لكنها رفضت تماماً وأحسنا أن الأمور بينها وبين جدك لم تكن نعيماً تترك مصر من أجله كما تخيلنا.. وقضت معنا شهراً ثم اختفت هي والدعو «زين».

كنت قد حفظت اسم «زين» من كثرة ما كانت تردده بيلا ونحن نبحث عنه.. وفي سهرة أخرى وأنا أجاهد كي أحافظ على وزيري من تربص الخال أنطوان به في الشطرنج دخلت علينا «بيلا» صانعة بعد محادثة هاتفية:

- لقد وجدت منزل «زين».

وكانت ترقص من الفرحة.

سألها أنطوان كيف وصلت إليه فأجابته أن مدرسًا زميلًا لها سأل عنه سمسرة شقق أصدقاء له حتى عرف مكان الغرفة التي كان يعيش فيها.. كانت «بيلا» من شدة فرحتها تود لو تذهب إليه فورًا فسألها أنطوان أن تذهب باكراً لتأخر الوقت.. فأطاعته احتراماً له.

وفي غرفتنا قبل النوم أخذتُ ألح عليها أن تأخذني معها لكنها رفضت.. فاصطنعت بكاء فقالت أنهم سيعاقبونني في المدرسة قلت لها بين بكائي في فخر لم ألقه «أنا ياسمينا بنت بيلا» لا أحد يستطيع أن يؤذيني، فضحكت واحتضنتني ثم وافقت.

جاء الصباح غميصاً لكل آمال بيلا. كان العنوان بأحد الأزقة المنزوية في حي رأس التين. ولم يكن بعيداً عن فيلا أنطوان. دخلنا إلى حارة «زاوية بكير» وصعدنا إلى سطح المنزل المذكور لكن الباب الحديدي الخاص بغرفة «زين» المغلقة كان ينظر إلى بيلا في عناد واضح.. وسألت أمي سيدة تفرش الأرض أمام غرفة مجاورة له على السطح فقالت إنها لم تسمع عنه.. وقالت إن الغرفة لم يسكنها أحد منذ جاءت هي إلى السطح.. لم تستلم بيلا في البداية وسألت عن صاحب العقار فلم نجد سوى زوجته.. وكانت تعرف زين جيداً وقالت أنه سكن هذه الغرفة قديماً لكنهم لم يروه إلا مرات نادرة منذ زمن.. ورغم ذلك عادت بيلا إلى غرفة زين وأخرجت قصاصة ورقية كتبت فيها شيئاً وألقتهما تحت عقب الباب.. ثم ذهبنا.

خرجنا أنا وأمي من «زاوية بكير» إلى الشارع الرئيسي.. وعند

ناصيته كان هناك بائعًا على عربة للسندوتشات مكتوب عليها برسم ملون «أكل بحري».. وكان منظره جذابًا بشدة فأشرت لأمي وقلت أنني جائعة.. لكنها لم تلتفت إليّ وأشارت إلى التاكسي.. وظلت صامتة طوال يومين يغلبها الإحباط الشديد.. ثم بدا أنها قررت أن تنسى.. ولم نعلم أنا وأنطوان أنها بدأت تراسل والدي من وراء ظهورنا.

طال صمتها وطالت وحدتها واكتئابها.. بينما زادت مهارتي في الشطرنج وأصبحت أهزم أنطوان في بعض الأحيان.. وزادت شعبيتي في المدرسة أيضًا.. وانضمت إلى فريق المدرسة للكرة الطائرة وأحرزت بطولة المدارس معهم مرتين وازداد طولي سريعًا واتجهت إلى السباحة.. وقبل موعد أول بطولة للسباحة قررت أمي أن نعود إلى اليونان فجأة.. وكنت في نهاية الصف الأول الثانوي.

توسل إليها أنطوان كثيرًا وغضبت منها أكثر.. قال: «أنا رجل عجوز - لم يعد لي أحد سواكم».. فردت عليه:

- ياسميننا كبرت.. ولا بُد أننا سنعود إلى اليونان في النهاية.. وكلما تأخرت كلما تعقد موقفها في إكمال الدراسة هناك.. نفدت حججي أمام والدها.

ردَّ عليها غاضبًا:

- وكأنك تعملين له حسابًا.. أنتِ مثل أمك.. لا تفكرين سوى في نفسك.

- إن كنتَ تخاف من العيش وحيدًا تعالَ أنت معنا.. يمكنك تدبير السفر والإقامة هناك بسهولة.. معارفك كثيرون.

ردّ بغضب أكبر:

- وهل يعقل أن أترك أنا بلدي؟

- إذا لماذا أترك أنا بلدي وبلد ياسميننا؟

- أصبحت اليونان بلد ياسميننا فجأة.. ستظل ياسميننا مصرية

حتى تموت.. شئت أم أبيت.

وانتهت المشاجرة بينهما ولم تنتهِ الأسئلة. حاولت «بيلا» أن تشرح لي وجهة نظرها في العودة.. وكنت أصدقها. لكنني لم أستوعب بسهولة فكرة أن أترك أصدقائي وحياتي فجأة هكذا.. وقالت «بيلا» كثيرات هنا يجلمن بالسفر خارج مصر، فقلت لها إنني لست من هؤلاء الكثيرات. لكنني عندما خرجت في الليلة التالية مع صديقاتي بالمدرسة لأودعهن، وبعد ما رحلن جميعاً رحت أتمشى وحدي على كورنيش الإسكندرية لألقي عليه وداعاً أخيراً وأنا لا أعلم متى سأعود إليه ثانية؟ وهل سأعود أصلاً أم لا.. لكنني بعد دقائق قليلة من التمشية بدأ بعض الشباب في مضايقتي حتى إن أحدهم حاول التحرش بي. فأحسست بالفعل أنني أجنبية وتركنا مصر وأنا غاضبة بشدة من هذا الموقف الذي لم أنسه.. لكنني بكيت حزناً فور أن صارت الطائرة بين السحاب متجهة إلى مجهول جديد. وهبطت الطائرة في أثينا أولاً ومنها إلى جزيرة «رودس» موطننا الأول.

خطوت الجزيرة بقدمي وكأنني أزورها أول مرة.. رغم أنني قضيت السنوات الأولى من عمري بها.. لكنني بالطبع لم أذكر سوى بيتنا القديم بصعوبة.. وتوقعت أن أجد والدي في انتظارنا،

لكن بيلا قالت إنه سافر إلى إيطاليا وسيعود قريباً.. فهمت أنها تعمدت أن تعود في وقت سفره.. وقالت أنها تريد الاستقرار أولاً في البلدة قبل أن تحسم أمرها بشأن أبي.

لم تجد أمي صعوبة في الاندماج سريعاً.. لقد عاشت معظم سنوات عمرها هنا على عكسي تماماً.. فقد قضيت وقتاً طويلاً قبل أن أخلع ثوبي المصري وأرتدي اليوناني بدلاً منه..

كانت «رودس» رغم أنها جزيرة فقيرة في أوروبا إلا أنها كانت شديدة الجمال.. كنا نسكن الحي الفقير من البلدة.. جميع البيوت هنا طابق أو طابقان.. معظمها طليت باللون الأبيض.. وقلما أضاف أحدهم إليها لون البحر فوق أحد جدرانها ليميزها.. وسألني جارة بدينة عن أصلي فقلت لها «أنا ياسمين» ثم تابعت: «ياسمين بنت بيلا» فابتهجت المرأة بشدة وقالت: «بيلا.. الجميلة بيلا.. هل عادت أخيراً؟». وانطلقت تخبر كل الجيران.

كانت البيوت متلاصقة في ذلك الحي حتى أن منزلنا امتلأ مساءً بعدد كبير من الجيران المهتمين لأمي بعودتها.. وسألتها إحداهن ماذا تنوي أن تعمل وهل ستعود للتدريس في المدارس المحلية فقالت إنها اكتفت من التدريس، وستقوم بفتح محل لبيع الأزهار في المنطقة السياحية بالجزيرة.. لكنها ستنتظر عودة أبي حتى يشاركها فيه.

استغرقت المعادلة عامًا كاملاً حتى يتحول الصف الأول الثانوي إلى «grade ٩» وتتحول صباح الخير إلى «كاليميرا» والتحقّت بمدرسة محلية، واستغرق محل الأزهار من «بيلا» عامًا كاملاً.. وطلب



والذي الذي كان قد عاد إلينا أن نؤجل افتتاحه حتى تنتهي امتحاناتي بالمرحلة النهائية من المدرسة.

تشاجرت مع بيلا في إحدى الليالي قبل الامتحانات بأسبوع واحد بسبب إهمالي المذاكرة وقد اقترب موعد الامتحانات النهائية. قالت إنها أربكت حياتها كلها لكي أنجح وأنجاز هذا الامتحان المصيري.. فقلت لها بسخافة شديدة إنه لم يجبرها أحد على شيء.. وبعد أن دخلت إلى فراشي حزنت من ردي عليها وفكرت أن أقوم لأصالحها.. ونويت أن أعتذر لها صباحاً.. وفي تلك الليلة المشثومة أخذت أحلم طوال الليل بجدي روز.. ولم أكن قد رأيتها من قبل سوى في بعض الصور القليلة. كانت تصرخ في الحلم دون صوت وقد قيدت إلى فراش معدني ليس عليه أي غطاء في غرفة شديدة الظلمة.. وكانت جدران الغرفة تقترب وتضيق على بعضها بعضاً.. وظل الحلم يتكرر طوال الليل. فمت لاهثة من نومي وصعدت إلى غرفة بيلا في الطابق العلوي فوجدت فراشها غارق في الدماء ووجهها شاحب تماماً.. صرخت مستغيثة بالجيران ولم يكن أبي في المنزل بل كان في إحدى سفرياته الطويلة لإيطاليا.. وعندما وصلنا إلى المستشفى أخبرنا الطبيب أسفاً أنها قد رحلت.

ظللت أصرخ وأنادي على «بيلا» ثم أفقد وعي وأقوم لأظن أنه كابوس فأوقن أنها رحلت فأعود لأصرخ وأصرخ ولم أصدق أنها رحلت هكذا.. وقال الطبيب إنها ظلت تنزف طوال الليل دون أن تشعر حتى ماتت.

عاد أبي في نفس الليلة ليأخذني من عند الجيران وقد رفض أن يتركني أبيتُ وحدي في المنزل.. وأخذت أبكي بين يديه طوال الليل ولم أستطع أن أصدق أنها رحلت هكذا وتركتني وحدي.

لم أدخل الامتحانات بالطبع ولم يستطع أبي أن يجبرني على شيء.. كان يشعر بالذنب لعدم وجوده تلك الليلة جوارها.. وكنت أشعر بالذنب لأنها ماتت وهي غاضبة مني قبل أن أعذر لها.. ومن وقتها لم أنقطع عن الكتابة إليها علَّها تسامحني.

فاتني عام دراسي للمرة الثالثة في حياتي.. أصبحت في الثامنة عشر من عمري وأنا لم أنهِ دراستي الثانوية، ولم أستطع أن أصنع أصدناه في المدرسة في «رودس» مثلما كان الحال في الإسكندرية.. وبعد رجل «بيلا» بثلاثة أشهر طلبت من والدي أن يساعدي لأفتح محل الزهور الخاص بأمي.. والذي لم يمهلهما القدر أن تفتحه بنفسها.

لم يتحمس في البداية لكنني تعللت بأنني سأحاول أن أدرج من المال كي أكمل دراستي الجامعية بأثينا بعد انتهاء هذا العام فرحَّب بذلك.. وفي يوم الافتتاح امتلأ المكان بأوجه المهثين الذين رأيتهم في أول يوم قدمنا فيه إلى «رودس» وكانت سيرة «بيلا» هي الحاضرة طول اليوم على السنة الجميع.

كان توافد الزبائن على المحل مقبولا في البداية.. فكان معظم زائريه من أهل «رودس» الطيبين.. وبالطبع كانت يقومون بشراء الأزهار مني إكرامًا للذكرى «بيلا» لكن هذا التعاطف لم يكن كافيا كي أستمروا.. وكان هدي في الأساس السائحون الذين يقصدون الجزيرة..

فهي معتمدة على السياحة في المقام الأول.. أخذت أفكر في طريقة مناسبة لاستقطابهم ثم اهتديت إلى فكرة أعجبتني جداً.

جعلت أولاداً وبناتاً صغاراً من جيراننا يقفون على نواحي قرية في الطريق من وإلى الشاطئ.. وجمعت أجمل الأزهار لدي بالمحل، ثم جعلت كل واحد من الأولاد يقوم بمنح زهرة واحدة لمن يظن أنه سائح وليس من أهل «رودس».. وكانت كل زهرة معها بطاقة كُتِبَ عليها «هذه أسوأ زهرة عندنا في المحل.. نتظركم لتريكم الأجمل».. وطبعت عليها مكان المحل.. وبدأ الزبائن يتوافدون سريعاً.. ثم نبهني أحدهم أن كلمة «أسوأ زهرة» غير مناسبة وقد ترك وقفاً سلبياً لدى السائح.. فاستبدلتها بكلمة «هذه أقل الأزهار جمالاً».. وازداد توافد الزبائن أكثر.. وجاءتني أول أزهار «فيليب» بعد ثلاثة أشهر من افتتاح المحل.

كنت أقوم عادة بفتح المحل بنفسي في الثانية عشرة.. وهو الوقت الأنسب الذي يبدأ فيه السائحون في التوافد على المنطقة التجارية للتبضع والشراء.. وأمام المحل وجدت إحدى أزهارني ملصقة على زجاج الباب.. ومعها بطاقتي وقد كُتِبَ عليها بخط مزين «إلى فينوس المصرية.. أجمل زهرات اليونان والعالم».

أعجبتني الطريقة جداً ورق لها قلبي.. وقلت لنفسي «زهرة هدية لي عمل للزهور.. هذا مسألٌ جداً».. ثم بدأت أنتظر تلك الزهرة في كل صباح وفي كل مرة تأتي ببطاقة غزل مختلفة.. وكتب من يتركها في مرة «إلى بيلونشي رودس».. أنتِ أجمل منها».. وكان يقصد مونيكاً بيلونشي.. فأثارت البطاقة فضولي أكثر وتركتها مساءً في نفس مكانها

وكتبت عليها «أظهر نفسك».. فجاءني وقدم نفسه أنه «فيليب»  
وكانت معه باقة رائعة من أجمل الزهور في اليونان وقلت له مازحة:  
- أتشتري من المنافسين إذا؟! -

فردّ:

- امرؤ أمام المحل كل يوم.. لكنني خفت أن يضايقك تطفلي.. لكن  
لم أشتري هذه.. لقد جمعتها لك بنفسني.. أقسم لك بجمالك.

كان وسيماً وله شعرٌ ذهبيٌّ قلما رأيته بين الشباب في «رودس»  
وظننته سائحاً في البداية لكنه أخبرني أنه من أهل رودس.. وكان  
يسكن الحي الراقي بالجزيرة.. وبدأ قلبي يدق لأحدهم للمرة الأولى  
في حياتي.. وكتبت إلى «بيلا» في المساء أحكي لها عن الوسيم «فيليب»  
وكان أكثر ما جذبني إليه هو أن اسمه كان على اسم جدي.

استعجت سريعاً لمواعدة فيليب.. كانت الأماكن التي يتردد عليها  
جديدة عليّ.. رغم أنني أعيش في الجزيرة لسنوات ثلاث إلا أن أصول  
الغنية كانت تنعكس بالطبع على أماكن خروجاته المرفهة، وكان مهتماً  
بتاريخ الجزيرة العريق وينسب بعضاً منه إلى عائلته الغنية.. وفي عيد  
ميلادي التاسع عشر اتفق معي أن نخرج سوياً في نزهة بالدراجان  
إلى «وادي الفراشات».. وكان من الأماكن التي يقصدها السائحون  
وأسمع عنها دوماً.. لكنني لم أزره من قبل.. كنت أدخر مالي كله  
لأجل الالتحاق بالجامعة نهاية العام في أثينا.

وفي أحد الأعياد مر عليّ فيليب في المحل وفي يده باقة رائعة من  
الأزهار التي جمعها من حديقة منزلهم الخاصة مرفقاً معها بطاقة غزل  
يتمنى لي فيها عاماً جديداً وسعيداً.. ولم تكن أولى هداياه لي هذا اليوم.

احضر معه دراجتين فقلت له إنني لا أعرف كيف أقودها..  
ترك أحدهما أمام المحل وقال لي: «سأعلمك كيف تركيبتها» فقلت:  
«موافقة لكن ليس أمام المحل..»

ذهبنا إلى «وادي الفراشات» في الجانب الغربي من الجزيرة.. وكان  
قرارنا ترك أحد الدراجات صائبًا إذ اضطررنا بعد قليل أن نستقل  
حافلة متجهة إلى الوادي فقد كان بعيدًا جدًا.. وكان الأمر سيصبح  
أكثر تعقيدًا لو كانت الدراجتان معنا.

فور دخولنا إلى وادي الفراشات لحطف عيني جماله.. واستنكر  
فيليب عدم قدومي إليه من قبل، رغم أنني أسكن في الجزيرة.. طلب  
مني فيليب أن أركب الدراجة وسيقوم هو بإسنادي كي لا أقع حتى  
أنعود ركوبها فلا أحتاج مساعدته.. وانطلقنا نتنوه في الوادي.. وكان  
يتعمد أن يمسكني ويضم جسدي إليه كل دقيقة خوفًا منه أن أقع..  
فكنت أبعده في دلالٍ بدأ يشيره.

وعلمت أن اليرقات في موسم الأمطار تتحول حتى تصير فراشات  
جميلة بديعة من سلالة فراشات النمر.. وفي موسم الجفاف تهاجر كل  
الفراشات تقريبًا إلى أكثر مكان رطوبة.. فلا تجد أفضل من الوادي..  
حتى إنها كانت تغطي معظم الأشجار في كل مكان.

وتركنا الدراجة جوار جذع شجرة كبيرة حولها الكثير من  
الفراشات ورفعت يديَّ عاليًا وشفقت بهما فطارَت الفراشات من  
حولنا فصرخت فرحة وكان منظرها جميل جدًا، إلا أن «فيليب» أمسك  
بيدي عندما هممت أن أصفق بيدي مرة أخرى قائلاً:

- أرجوك.. لا تفعل هذا، الفراشات كائنات ضعيفة جداً  
وتعيش على غزون ضئيل من الدهون التي احتفظت بها عندما  
كانت يرقة.

قلت ولم أفهم قصده:

- وما المشكلة في التصفيق؟

- المشكلة أن الحركة والصوت الكثيرين حولها يضطرها إلى التحليق  
بشكل مستمر.. وتفقد الكثير من الطاقة في ذلك.. وربما تموت قبل  
التزاوج.. فهي لا يمكنها تعريض هذه الطاقة مرة أخرى.

ابتسمت وقلت: «فيليب الذي يعرف كل شيء».. ثم اصطنعت  
أنني سأقوم بالتصفيق مرة أخرى لأمازحه فأمسك يدي بسرعة  
فقلت له:

- لكنني أريد أن أصفّق.

- لا مشكلة.. نأخذ جولة أخرى ثم نذهب إلى حيث يمكنك  
التصفيق على راحتك.

نقلت وأنا أغمز له بعيني: جولة أخرى من دون الدراجة.

فضحك ورحنا نتمشي في الوادي لنصف ساعة ثم خرجنا إلى  
أقرب شاطئ قابلنا على الطريق.. وكان فيليب يعرفه.. ترك الدراجة  
على مدخل الشاطئ وخلعنا حذاءينا وأخذنا نتمشى فوق رمال  
البيضاء الناعمة.. وكان واضحاً أنه أحد شواطئ الأثرياء التي يعرفها  
فيليب ويأتي إليها دائماً. ولم يكن الشاطئ مزدحماً.

وصلنا إلى زاوية في نهاية الجزء المهد من الشاطئ أمام كوخ

خشبي صغير.. كان أحد الأكواخ الملقاة بلطف أمام البحر مباشرة  
ولما وجدت فيليب سألته لماذا توقفت فقال مبتسمًا:

- لنزل إلى البحر ألم تغرك المياه؟

قلت له في دلالٍ واضح:

- لكنني لا أستطيع السباحة.

وكان يعرف أنني أكذب فقال: أعلمك.

تابعت في دلالٍ أكبر:

- ليس معي ثوبٌ للبحر..

فخلع فيليب قميصه أمامي وصار عاري الجسم ثم أخرج مفتاحًا  
من جيب البنطلون الجينز الذي كان يرتديه وقال:

- أعلم طبعًا.. تحضرت لهذا

ثم اتجه إلى باب الكوخ الخشبي الصغير وفتحته أمامي في استعراض  
وقال:

- تفضلي..

نظرت بعيني من باب الكوخ فوجدته فارغًا.. لم يكن به أي  
أثاث، فقط شمسية للبحر ومقعدٌ صغيرٌ.. وكان فوق المقعد لفافة  
ملونة فهمت أنها هدية لي.. طلب مني أن أقوم بفتحها ولما فتحتها  
وجدت داخلها زجاجة عطر غالي الثمن وثوبًا للبحر.. تفحصته  
يسدي فوجدته ضيقًا ويبدو صغير للغاية.. قلت له بسرعة:

- لا تظن أنني سأرتدي هذا أمامك.

ردّ مازحًا:

- لا بالطبع.. سأنتظرك بالخارج.

فهمت أنه يراوغ فقلت وأنا أفحص الثوب بيدي ثانية بيدي:

- لكنه عارٍ تمامًا.. كما أنه يبدو صغيرًا عليّ.

- ارتديه ثم دعيني أراه أولًا. إن لم يعجبك فلن ننزل إلى البحر.

- لن تراني في هذا الثوب إلا في أحلامك.

فاقترب مني وقال:

- رأيتك فيه في أحلامي كثيرًا وكنت رائعة ومثيرة.

وضعت الثوب على المقعد وقلت له:

- لا.. لن أرتديه، سوف أنزل إلى البحر بملابسي. كنت أنزل إلى

البحر في الإسكندرية هكذا.

وأشرت إلى ما أرتدي، فقال فيليب:

- مم.. ياسميننا تكذب! ألم تقولي منذ قليل إنك لا تستطيعين

السباحة.

فاقتربت منه وعُدت إلى دلالي وقلت:

- ألم تقل إنك ستعلمني السباحة؟

وضع يديه حول خصري وبدأت أنفاسه الملهبة تقترب من

وجهي فأغمضت عيني وتركت له شفتي كي يقبلهما وأخذ قلبي

يدق في سرعة.. وبعد ثوانٍ أحسنت طعمًا مالحًا لسائل في فمي

ففرغت وأبعدني فيليب أيضًا.. نظرت إلى وجهه وذعرت أكثر وكانت



شفتاه مغطتين بالدماء، وقبل أن أنطق أشار إليّ قائلاً في رعب:  
- ياسميناً.. أنت تنزفين.

وضعت يديّ لا إرادياً على أنفي وشفتيّ فعادتتا ممزوجتين بدمائي  
وأحسست سخونة مماثلة بين قدمي.. ثم سقطت مغشياً عليّ.

\*\*\*

(٣)

## يحيى

استعاذ سائق السيارة بالله من الشيطان الرجيم وانحرف بالسيارة في سرعة حتى كاد أن يصدم الملثم ذا العباءة البيضاء الذي ظهر أمامنا فجأة على جانب الطريق المؤدي إلى قرية الجبل، وفور أن تجاوزه زاد من سرعة السيارة حتى أنها أخذت تتخطى بنا فوق الطريق غير الممهّد في عمّرات الجبل، فطلبت منه أن يهدئ من سرعتنا قليلاً لكنه لم يستجب.. قلت له:

- لماذا لم تتوقف؟ ربما كان يريد مساعدة.. لقد لمحت زجاجة مياه فارغة في يده وكان يشير بها إلينا.

ردّ السائق المذعور وهو لا يزال يستعيز بالله:

- يا دكتور يحيى.. أنت قد أصبحت ابنًا للمكان وتعرف أنه منهم.. تعلم مثلي أنه أحد عفاريت الصحراء.  
- ربما كان غريباً أو أحد البدو وقد ضل الطريق.

فاستمر في رفضه وقاطعني قائلاً: «مستحيل».. وظل ينهب الطريق في سرعة.

يسمونهم هنا في وادي حبيبة «عفاريت الصحراء».. حدثني عنهم الشيخ ياسين وحذرنى أن ألتفت لأحدهم إن رأيته.. ولم أرَ أحدًا منهم منذ قدمت إلى الغردقة سوى مرة واحدة أثناء عودتي ذات يوم من «سهل حشيش».. كان يقف أحدهم على جانب الطريق في صمتٍ وهدوء وظل ينظر إلى السيارة التي ارتعب صاحبها مثلما حدث الآن.

ملت بجسدي إلى المرأة أنظر فيها إلى ذلك الرجل الذي كان يشير بزجاجة الماء منذ قليل وكدنا أن نصدمه.. وفور أن نظرت في مرآة السيارة أنفحص الطريق بدأ وجه «زينب» في الظهور.. وكان وجهها قلقًا وليس حزينًا كالمعتاد.. وعلمت أنها ستعاتبني على حديثي السابق منذ ساعة مع «ياسمين» أمام غرفتي بالكامب.

لم أدر حقًا هل كان إحراجي المتكرر لياسمين ورفضها السخيف دعوتها الصريحة إلى مارينا الغردقة كان سببه الحقيقي خوفاً من سطوة جمالها وإمكانية تورطي معها.. أم أنه كان خوفًا من غضب «زينب».. الغائبة الحاضرة دومًا؟

هل حقًا كنت أرغب في أن تذهب «ياسمين» سريعًا من أمام الغرفة؟ لماذا إذا كنت خائفًا من أن تلمح العقرب الأسود الصغير الذي أخذ يحوم خلف قدميها وهي واقفة تتحدث دون أن تشعر به؟ ولماذا حاولت أن أصرف انتباهها عنه قبل أن تلتفت وتراه؟ لماذا لم أحذرهما منه؟ أتراني كنت أخشى أن تراه فيصيبها الخوف من منظره الشرس وتهرب مبتعدة فلا أراها ثانية؟

أراها ثانية!!

وهل أودُّ أن أراها ثانية؟؟ هل أرغب في ذلك حقًا؟

ولماذا ياسميننا بالتحديد؟ ما الذي يوجد في هذه المرأة يدفعني لل  
الرغبة، وإلى الخوف في نفس الوقت؟.. الويل لك يا يجيى التعس.. ألم  
تعلم بعد.. أتود أن تنسى زينب إذًا؟ وهل نسيّت «ميريت» بعد كل  
هذه السنوات؟؟

لا.. بالطبع لا.. لا أحد ينسى ميريت الجميلة.. لكن لم تلح علي  
ذكرها الآن؟ أيكون مرآي لياسميننا وانجذابي لها ولجمالها هو السبب؟!  
إذًا فأنا أعترف بانجذابي لياسميننا؟ سريعًا هكذا! من محادثة بسيطة  
لبضع دقائق؟ هذا غريب حقًا! ما الذي يوجد في هذه المرأة؟ ومن  
أين تأتي بتلك القوة التي اخترقتني في دقائق.. حتى ميريت نفسها  
أخذت من قلبي وقتًا أكثر كي تجعله يدق بهذه الطريقة المخيفة..  
لكن «ياسميننا» أيضًا بدت متوترة ومهزوزة أمام الغرفة منذ قليل،  
على عكس الدقائق القليلة التي أحسستها فيها داخل البازار.. ورغم  
ذلك كنت مرتبكًا أكثر منها.. حتى إنني لم ألاحظ تفصيلة قدم تمثال  
الملك التافهة هذه.. بينما لو كانت «ميريت» لكنت حكيت لها تاريخ  
مصر كله الذي أعرفه وأحفظه مثل اسمي.. والذي علّمني إياه  
جدي سليم.. بعد انتهاء قطيعتنا الطويلة.

قاطعني جدي لشهر كامل بعد أن رأي وأنا أقبل زينب في الشرفة..  
لم يقبل أي اعتذار ولم يرد على أي كلام أوجهه له.. لم يتناول معي  
طعامًا لمدة.. حاولت معه كثيرًا وحاولت أمي أكثر رغم أنها لم تعرف  
مني شيئًا.. ولم أملك الجرأة على إخبارها.. حاولت التواصل أكثر  
من مرة مع زينب لكنها رفضت تمامًا.. لم تكن ترد على اتصالاتي  
واختفت تمامًا.. إلا أنني فرحت بشكل كبير عندما علمت من أمي  
أنها تجاوزت الامتحان الأخير بنجاح، رغم أنها حصلت على مجموع  
معتول.. وكنت سأشعر بذنب أكبر لو لم تستطع أن تتجاوز الامتحان

للمرة الثانية.

بعد شهر تقريبًا من قطيعة جدي كنت أقف في الشرفة وسمعتني ينادي عليّ بصوت واهن يُسمع بصعوبة.. ذهبت إليه سرعًا فوجدته ممسكًا صدره في ألم ويشير إلى صندوق ورقي صغير به أدويته الكثيرة.. ناولته الصندوق فأخذ يبحث فيه عن أقراصه التي يأخذها دون انتظام حتى وجدها.. وضع قرصًا صغيرًا جدًا تحت لسانه وقال وهو يجاهد كي يلتقط أنفاسه:

- اتصل بالإسعاف.. وبوالدتك.

تملكني الرعب وأسرعت إلى الهاتف واتصلت بالإسعاف ثم بأمي في منزل أهلها، ولحقت بنا مساء في معهد القلب.. وقال الطبيب إنها ذبحة صدرية تطورت إلى انسداد جديد بأحد شرايين القلب الصغيرة. وحُجز جدي ليومين تحت الملاحظة ثم سُمح له بالخروج مع تحذيرات كثيرة من ممارسة أي مجهود أو صعود السلم أو شرب القهوة.

بعد عودتنا وبعد أن ساعدته على الجلوس فوق أريكته المفضلة وكان أول ما طلبه مني هو أن أصنع له قهوة وهو لم يتناولها منذ ثلاثة أيام فرفضت بأسفٍ شديد وكنت أعرف أنه لا يطيق يومه دونها.. تنهد في ضيقي وقال:

- هل تصدِّق الأطباء يا يحيى؟ لقد ولى القلب إلى غير رجعة.

قلت بحزن:

- أطال الله في عمرك يا جدي.

وتدخلت أُمي معاتبة:

- نأخذ بالأسباب يا حاج.. أليس هذا كلامك؟

زفر في ضيق وطلب منها أن أي شيء دافئ يشربه.. فذهبت إلى المطبخ وطلب مني أن أجلس جواره وقال:

- اسمع يا مجيبي.. لن أستطيع أن أصفى لك أو أسامحك قبل أن تخبرني نيتك الحقيقية تجاه «زينب».. ولا تكذب عليّ يا مجيبي.. لا ترد الآن إن أردت.. لكن قل الحقيقة عندما تستطيع.. الحقيقة فقط.

صمتُ ولم أرد عليه ونظرت أرضاً.. وأخذت أفكر في ردّ لا يفضي، ودون أن أكذب أيضًا.. المشكلة هي أنني لا أعرف ردًا واضحًا لنفسي كي أخبره به. قلت بعد قليل في تردد واضح:

- صدقني يا جدي لا أعرف إجابة شافية.. منذ أن رحلت زينب أجديني أفتقد لها بشدة لأحيان كثيرة.. لكنني في أحيان أخرى أكاد لا أذكرها.. وكأنها غير موجودة في حياتي.. أرجوك لا تغضب مني، لكن هذه هي الحقيقة التي طلبتها.. والحقيقة الوحيدة التي أعرفها.. أما غير ذلك فهو أمر لم أعرفه بعد.

- ولماذا كان ما كان بينكما هناك؟

وكان يشير بيده في غضبٍ إلى باب الشرفة البعيد..

رددت عليه وقد أحنيت رأبي خجلًا:

- كانت زُلة، أقسم لك إنها لن تتكرر.. لا أعرف كيف حدث ذلك.

- أنا أعلم.. لكن.. لماذا تحاول إذا الاتصال بها إلى الآن ما دمت لا تعرف شعورك تجاهها؟

دهشت من معرفته عن محاولاتي الفاشلة للاتصال بزينب.. ولم أجدر ردًا فقال وهو يضع يده فوق كتفي ويرين في رفق:

- ألم تنفق يا بني منذ سنوات ألا تذلل نفسك أبدًا إلى أي ذنب  
هكذا.. لماذا تركت نفسك لنفسك؟ وبهذه الطريقة.. وفي نفس المكان  
الذي وعدتني فيه؟ لقد خيبت أملي فيك يا يحيى.

غمرني إحساس بالذنب أكثر مما شعرت به وقت رآنا.. ولم أجد  
سوى أن أسأله في توصل:

- قل لي يا جدي ما الذي يرضيك؟ ما الصواب وسوف أفعله؟  
أراح ظهره على مسند الأريكة الكبير ونظر إلى سقف الصالة ثم  
قال بتنهيد:

- ما يرضيني هو أن تتزوجا.. أما الصواب فهو أن تتركها وشأنها.  
وزفر في ضيقي ثم أكمل:  
- دع زينب لحالها يا يحيى.

وقبل أن أرد عادت أمي وفي يديها كوب من الينسون وضعتة  
أمام جدي ونظرت إليّ في صمتٍ مريبٍ.. ثم جلست قبالتنا وقامت  
بشغيل التلفزيون فقممت لأدخن في الشرفة.

لم أنصل بزينب مرة أخرى.. ولم أسع أن أعرف عنها أي أخبار.  
وعلمت من أمي في العام التالي أنها قد خُطِبتَ لزميل لها في السنة  
النهائية بنفس كليتها.. وبدأت أمي بعدها تفتح موضوع زواجي في  
أريحية وترقب كل فترة.. حتى جاء عام تخرجي.. وكنت أنا من بادر  
في فتح هذا الموضوع معها ومع جدي.

حكيت في عجالة عن زميلة لي في الجامعة في نفس القسم والديها  
أستاذ لنا بالكلية.. وقلت إنها جميلة وأرى أنها قد تكون زوجة  
مناسبة.. بادرت أمي بالترحيب قائلة:

- نسب يشرف..

ولم يبدِ جدي بأي رأي فسأله:

- وما رأيك يا جدي؟

فابتسم ابتسامة غريبة وقال:

- ما رأيك أنت يا يحيى؟

قلت بهدوء:

- أرى أنها ستكون زوجة مناسبة.. نحن نعرف بعضنا جيدًا منذ أكثر من عام، وهي فتاة مهذبة وجميلة.. أعرف والدها جيدًا وهو رجل ذو سمعة طيبة بالكلية ويحبه الجميع.. وأي زميل لنا يتمنى أن يتزوج ابنته.

- وأنت.. هل تتمنى ذلك فعلاً؟

- أظن ذلك..

- إذاً على بركة الله.. حدد موعداً تراه أنت مناسباً ونذهب نخطبها لك.. وشقة والدك الأخرى موجودة.. ولا أظنه سيمنع أن تتزوج فيها غداً إن أردت.. من الواضح أنه لن يعود إلى مصر أبداً.  
- ليس بهذه السرعة.. بعد الامتحانات النهائية والتأكد من التعيين في الكلية.

- ستكون معيلاً بإذن الله.. أنت من أوائل دُفعتك كل عام.. وقد قلت إن والدها أستاذ معكم.

ثم تابع متسائلاً وهو ينظر إليّ في حدة:

- أليس كذلك يا يحيى؟

استفزتني نظراته بشدة وكدت أن أسأله عما يقصد.. لكنني لم أجروء.. وتعجبت من نظراته وظنه السيء بي.



انتهت الامتحانات الأخيرة بسهولة؛ فقد كنت ملئاً بكل حرف في كل كتاب ربما أكثر من الأساتذة أنفسهم.. وتأكد تعيني معيداً بالجامعة.. لكنني لم أفتح موضوع الزواج ثانية.. وظلت أمي هي من تلح في السؤال، وكنت أتهرب من الإجابة أو أتعلل بأي حجة واهية حتى قلت لها أخيراً إنني قد صرفت النظر مؤقتاً.. وأحسست أن جدي كان راضياً عن قراري رغم أنه لم يلمح مطلقاً.

كما يضايقني أنه لن يُسمح لي بالتدريس إلا بعد وقت طويل وسنين عدة في التدرج بالقسم في الكلية.. وكان القسم مكتظاً بالمعدين مثلي، واللوائح التي تحكم عملية التدريس معقدة.. ووجدت أنه سيمر دهرٌ قبل أن يسمح لي بالتدريس رسمياً.. بادرت بالتقدم للحصول على درجة الدبلوم وأخذت أنقب في البعثات الدراسية الممولة أو المدفوعة.. فالليسانس وحده لن يكفي للوصول إلى مرادي من هذه الكلية.. وانقضت عامان حتى حصلت على الدبلوم في الحضارة المصرية القديمة.. وقُبلت في بعثة إلى إنجلترا في نفس الشهر.

رأيت ذعراً شديداً في عينيّ جدي عندما أخبرته بأمر سفري، ولم أجد لذعره مبرراً في البداية حتى أخبرني بعد إلحاح طويل أن والدي يحاول استعادة أمي منذ فترة ويبدو أنها بدأت تلين.. وفهمت دون ذكره ذلك، أنه أصبح يخشى أن نتركه جميعاً في فجأة هكذا. لكنه دعا لي في نفس الوقت بالرحمة وتمنى لي التوفيق في البعثة التي ستستغرق عاماً.. ولم أحسم أمري في السفر إلا بعد أن تأكدت من أمي أنها باقية معه حتى أعود.. وسافرت إلى لندن. لكن أمي عادت إلى أبي بعدها بشهر واحد فقط من سفري تاركة جدي وحده.

كنت أحادثه يومياً وكلي قلق عليه.. وكان يطمئنتني دوماً.. لكنني

كنت أخاف أن تواجهه نوبة قلبية كالتي أتته مؤخرًا.. واعترف لي بعد فترة أن زينب تأتيه من وقتٍ لآخر لتطمئن عليه فاستراح قلبي بشكلٍ كبيرٍ.

كانت أيامي في البعثة ثقيلة باردة كالمدينة نفسها.. حصلت منها على كادر علمي هام في اللغات القديمة لكنني لم أستمتع بأي صورة في تلك البلاد.. انبهرت بالتأكيد من نظافة شوارعها الجميلة.. لكنني لم أستمتع بالتجول في تلك الشوارع.. أعجبني شكل المباني والمتاحف العريقة.. لكنني لم ألتقط لها صورًا تذكارية كما فعل معظم من كان معي في البعثة.. زحفت الوحدة إلى قلبي فور وصولي إلى لندن وصاحبيني حتى عدت إلى القاهرة.. وكان أهم ما اكتشفته في تلك البعثة أنني شخص وحيد.. طوال خمسة وعشرين عامًا لم أصنع أي أصدقاء حقيقيين.. فقط معارف في الكلية، زملاء في العمل، زملاء جدد في البعثة، لكن لا أصدقاء على الإطلاق.. وبدأ حنيني يزور قلبي ويأخذه إلى وجه زينب في ليالٍ عديدة.. واكتشفت أنه رغم كل شيء كانت زينب هي صديقة عمري الوحيدة.. وقد فقدتها بغبائي وأنايتي، وأخذت أستجدي الأيام أن تمر سريعًا حتى أعود إلى القاهرة.. وكان نداء «ميريت» في انتظاري.

فور أن عدت واطمأنت على جدي بدأت أقود الحوار حتى دفعته للحديث عن زينب.. وعلمت منه أنها تخرجت وعلمت بتدريس الرياضيات أيضًا.. وعلمت أن خطبتها الثانية قد فُسخت.. ولم أعلم كيف ابتهجت هكذا بشدة أمامه؟.. لكنه لم يبدِ اهتمامًا كبيرًا بفرحتي بعد عودتي بأسبوعين كنت أعمل على بحثٍ هام يخص أوراقي القديمة التي احتاجها للتقدم لنيل درجة الماجستير.. وكنت أنقب

كمادني مثل بين كنوز الوثائق والكتب العظيمة في دار الكتب  
والوثائق.. وبين الأوراق والملفات الهامة سألني أحدهم قاطعاً شرودي:  
- لو سمحت.. هل يوجد هنا نظام ما للاستعارة؟!

نظرت إليه متعجباً.. المكان هنا لا يقصده سوى من يعرف  
شروطه.

قلت له دون اهتمام:

- بالطبع لا.. هذه ليست وثائق عادية.

فسأل بجهلٍ أكثر:

- وماذا أفعل إذا كنت أريد أن أحفظ بهذه؟

وكان يسمى ببلالة وهو يشير إلى صورة لجريدة قديمة معروضة  
على شاشة أفلام الميكرو فيلم.. ولم أمتين عم تتحدث.. وعلمت أنه  
سيكون لحوحاً ولن يتركني لحالي فقلت شارحاً:

- يوجد بعض الوثائق يمكنك أن تحصل على صورة ضوئية منها..  
وأشرت إلى موظف في ركن المكان، لكنه عاد يسأل:

- وهل هذا متاح لأي شخص؟ أعني أي جنسية؟

لم أفهم سؤاله فوجدته يمد يده إلى معرفاً نفسه:

- سباستيان.. صحفي من لبنان.

نظرت إلى يده البدينة الممدودة إليّ في ودّ فصافحته مضطراً.. نظر إليّ  
منسائلاً فاضطررت إلى تقديم نفسي وقلت:

- يحيى الطبيب.. معيد بكلية الآثار.

بش وجهه وقال باسمًا:

- أها.. أنت دكتور في الجامعة.

فقاطعته: ليس بعد...

كان سباستيان بدينًا قصير القامة مقارنة بطولي.. يبدو قد قارب الأربعين من العمر وله وجه طفل بريء.. ظل مبتسمًا وهو ينظر إلى المكان ويتابع أسئلته التي لا تنتهي.. قال إنه يبحث عن بعض الأخبار الموجودة في الجرائد القديمة في الفترة بين الحربين والتي تتحدث عن ظهور بعض مدارس الفن التشكيلي في تلك الفترة وتأثرها بالحرب.. وقال إنها لا تخصه وإنما تخص صديقًا له من نفس بلده.. أخذت أساعده في البحث عن أي صحف أكثر إفادة من تلك التي كان يريد استعارتها بسذاجة، ونجحت بخبرتي القديمة في المكان - الذي عرّفني عليه جدي - في استخراج وثيقتين أخريين عن نفس الموضوع الذي يبحث عنه.. ثم طلب مني في حرج أن أقوم أنا بطلب نسخ ضوئية منها خوفًا من أن يلاحظ المشرف لكتته غير المصرية ويعترض على نسخ الوثائق.

تفحصت الوثائق جيدًا، وكانت معظمها معلومات عادية يمكن الحصول عليها من الإنترنت.. فقامت بنسخها له بنفسي أمام مشرف المكان الذي يحفظ وجهي المتردد دومًا على المكان.

أخذ سباستيان يشكرني على مساعدته ويطلب في الشكر.. ثم أمر أن يدعوني إلى فنجان قهوة في أي مكان قريب.. اعتذرت له متعللاً بضيق وقتي فطلب رقم هاتفي وأخذ يؤكد على أنه لا بُد وأن تلغني مرة أخرى لعزومة القهوة.. فوعده بذلك ثم انصرفت إلى ما كنت أبحث عنه.. وفي مساء نفس اليوم وجدته يتصل بي ويلح عليّ بشدة في ملاقاته.. وظللت أعتذره كثيرًا متعللاً بانشغالي الشديد في التحضير للرسالة.. وبعد أن أنهيت مكالمتي سألتني جدي:

- لمن كل هذه الاعتذارات يا يحيى؟

فقلت:

- صديق عرفته اليوم يلح عليّ في المقابلة.

فردّ قائلاً في تعجب:

- صديق؟؟ ليحيى ابن الطيب سليم؟؟ ماذا حدث في الدنيا؟

- ولم السخريّة يا جدي؟

- العفويّا دكتور.. ليست سخريّة. لكنني أول مرة أسمعك

تطلق على أحد هذه الكلمة.. دائماً تقول «شخص أعرفه أو زميل في الكلية».. لكنك لم تقل على أحد أبداً كلمة «صديق» هذه.

- خائني التعبير.. كنت أقصد أنه شخص أعرفه.. لم أقابله سوى

اليوم فقط. تعرف عليّ في المركز وساعدته في شيء بسيط فأصرّ أن يعزمني على قهوة واعتذرت له فظل يلح واضطرت إلى وعده ببقاء.

- ولم وعدته بما لن تقوم به.. لا تعدّ أبداً ما دمتَ لن تفني

بوعدك.. ليست هذه أخلاق الرجال.

لم أجدرّداً على إحراج جدي لي.. فتابع أمراً:

- اتصل به الآن وأخبره أنك لن تقابله أبداً.. وإما أن تقبل دعوت

ولتحدد موعداً لن تعتذر عنه.. كن كريماً مع الناس يا بني.

أدرت الأمر في رأسي قليلاً وقلت لم لا؟؟ ليس لدي شيء هام أفعله

الليلة.. كنت فقط أنوي السهر مع جدي.. ربما استطعت أن أفاتحه في أمر زينب.

أعدت الاتصال بسباستيان وقلت له إنه لا مانع من لقائه الليلة

ففرح كثيرًا واتفقنا أن نلتقي في ميدان طلعت حرب. ولم أكن أعلم أنني أسعى إلى شباك ميريت المسمومة.



قال السائق المتذمر طيلة الطريق:

- الحمد لله لقد وصلنا أخيرًا يا دكتور.. طريق ملعون.

كانت منازل قرية الجبل قد لاحت أمامنا، وكانت القرية تبعد قرابة الساعة عن الكامب.. يعمل معظم من فيها بأنشطة السافاري العديدة التي تنظمها فنادق الغردقة السائحين.. وبعض سُكَّانها كان يعملون معي في كامب وادي حبيبة. يسكنها عددٌ قليل من العرب وآخرون أتوا من محافظات عدة بالصعيد واستقروا بها لقربها من الجبال التي يجيء معظم رزقهم من السياحة فيها.. لكنها بالنسبة لي كانت منفى بعيدًا. حتى إنني سألت الشيخ ياسين عما يجبرهم أن يعيشوا بعيدًا هكذا بمنأى عن المدينة فقال إنهم كبروا ووجدوا آباءهم وأجدادهم في القرية.. وسيعيش أبنائهم وأحفادهم إلى ما شاء الله في نفس المكان.. ولم أدر حقًا لم يسمونها قرية. فأننا لم أر أي أنشطة للزراعة فيها.. اللهم إلا بعض النخلات المكدودات التي اتخذوا من ظلالها مجلسًا صغيرًا لهم خلف مقام لأحد شيوخهم الصالحين المدفون في ضريح داخل المسجد الوحيد الموجود بالقرية.

استقبلنا الشيخ ياسين - أو الشريف ياسين - كما يدعونه هنا وفي الكامب، ولم أسأله مرة إن كان لقبًا أم أنه فعلاً كما يزعمون يتسب إلى الأشراف من نسب الحسن والحسين؟

جاء الشيخ ياسين باشا واضعًا عباءة ثقيلة على كتفيه واحتضني

واخذ يرحب بي في حرارة ولم تكن قد التقينا منذ مدة. سأل السائق متذمراً وهو ما زال في سيارته:

- متى سنعود إلى الكامب يا دكتور؟

وقبل أن أرد قاطعنا الشيخ ياسين:

- انصرف أنت الآن يا بني.. سادبر أنا سيارة للدكتور عند العودة، ربما يتأخر.

ثم ذهب إليه وسمعه يهمس له بشيء فقلت صائحا:

- لا داعي يا شيخ ياسين. لقد أخذ حسابه قبل أن نتحرك.

فنظر إلى السائق في استياء ثم تحرك بالسيارة مبتعداً.. وقال الشيخ ياسين مستفسراً: ماله؟

- لقد ظهر لنا في الطريق واحدٌ ممن تسمونهم «عفاريت الصحراء» هؤلاء، ومن وقتها وهو كما ترى.

ضحك الشيخ ياسين عالياً وقال:

- له حق والله يا دكتور.. يكون منظرهم غيظاً جداً.. خاصة في الليل.

- ألا يعلم إنسان من أين يأتي هؤلاء؟ أستم تسكنون الجبل منذ زمن؟ كيف لا تعرفون أصلهم وماذا يريدون؟ ولماذا يظهرون على الطريق هكذا؟

- هم في الغالب قُطّاع طريق.. ليس آمناً أن يقف لهم أحد وإن كنت أزعم أن ظهورهم قد قل كثيراً عن الماضي منذ عُمّرت الغردقة بالفنادق والسياح وزاد فيها رجال الأمن.

- أمرهم غريب حقاً.. يقتلني الفضول لأعرف ما وراءهم.

وضع يده على كتفي ودفعني دفعا خفيفا ناحية المسجد وقال:

- دعك منهم الآن.. تعال نصلي المغرب قد وجبت.. ثم نتناول الطعام سويا قبل أن نتكلم.

وفور إتيانه على ذكر الطعام تقلصت معدتي وأحسست أنها تكاد أن تتكلم جوعا. فأنما لم أتناول أي طعام منذ عشاء أمس.

دخلنا المسجد الصغير والذي كان يشبه زاوية كبيرة من الزوايا المترامية في أحياء مصر القديمة. وكانت إضاءته خفيفة جدا ومعظم مصابيح الإنارة فيه لونها أخضر وكذلك كانت جدرانها.. وكان أكثر مصدر للضوء يأتي من الباب الجانبي الصغير المؤدي إلى مكان الضريح. أدينا الصلاة في جماعة وأئنا الشيخ ياسين بالطبع، وكان معظم الرجال في القرية قد اجتمعوا في المسجد لتأدية الصلاة.. وبعدما انتهينا أخذ يرحب بي من كنت أعرفه منهم.. خاصة «يزيد» ابن الشيخ ياسين الأكبر. واتجهنا إلى مجلس القرية خلف المبنى الذي يوجد فيه الضريح وتزينه النخلات الكبيرة.. ووجدت أن الشيخ ياسين قد أعد لي وليمة وليس مجرد وجبة بسيطة كما قال. وظل يعزم علي بالطعام ويصر أن آكل من كل صحن ووضعت فيها أنواع عدة من اللحوم والطيور.. ولم أكن أحتاج إلى عزومة فقد كنت اتضور جوعا.. بعد أن أذن مؤذن عذب الصوت من المسجد المجاور اتجهنا إلى المسجد ثانية لصلاة العشاء. ونظرت في ساعتني وعلمت أنني سأعود متأخرا.. وتمنيت ألا يصر الشيخ ياسين على المبيت مثلما يفعل معي كل مرة آتي فيها للزيارة. كنت أحب الشيخ ياسين جدا.. فقد كنت أرى فيه طيبة جدي وورعه.. وكلما نظرت إليه كنت أرى جدي الراقد فوق أريكته بشفا عابدين وهو يشرب معي القهوة وتنسامر طوال الليل.



فور أن خرجنا من المسجد نظرت في ساعتى ثانية أمام الشيخ ياسين متعمداً ثم سألته:

- والآن.. ألن تقول لي ما الأمر الهام الذي أردتني فيه؟

- نجلس وأحكي لك كل شيء..

اتخذنا مكاننا في المجلس تحت النخيل، وبدأ الشيخ ياسين بالسؤال عن الأحوال في الكامب والسؤال المعتاد عن تفكيرى في العودة إلى الجامعة والتدريس. وكالعادة قلت له أن لانية لى... ثم بدا متردداً قبل أن يسأل:

- قلت لي من قبل يا دكتور إنك كنت تعمل لبعض الوقت في المتحف المصري بالقاهرة.. أليس كذلك؟  
رددت عليه مصححاً المعلومة:

- ليس عملاً حكومياً.. كانت بعض البرامى الخاصة بالمجستير..  
كنت أتواجد بشكل دائم فى المتحف على مدار سنوات.

- وهل تعرفت هناك على أحد ذي شأن؟

- قليل جداً.. بعض الباحثين الهامين وبعض الإداريين فى هيئة الآثار. لم أتواصل مع أحد منهم منذ زمن.  
بدا عليه إحباط فقلت:

- ما الموضوع يا شيخ ياسين؟ لقد بدأت أقلق.

قام من مجلسه وصار يتمشى أمامى فى هدوء مفكراً ثم قال فى حزن شديد:

- يريدون أن يأخذوا هذا المكان.

- أى مكانٍ تقصد؟ قرية الجبل؟!

- نعم.

- تعجبت من كلامه وسألت:

- ولم؟ ومن هؤلاء الذين يريدون أن يأخذوا القرية؟

ردّ وهو ما زال واقفاً أمامي:

- لا نعلم من هم بالتحديد بعد.. هيئة حكومية ما.. لكننا لم نعرف تبعيتها. جاءنا إخطار بالإخلاء يطلبون فيه التحضر لترك القرية بالكامل.. يقولون هذه أرض ملك للدولة.. وقد اعتزم شخص هام تحويلها إلى محمية طبيعية.

ابتسمت عيناى من شدة الدهشة وقلت:

- محمية طبيعية.. هنا؟ محمية لأي شيء؟

- لا أعلم.. قلت لك لا نعلم أي شيء بعد هذه مجرد أقاويل. في الغالب سيقيمون مكانها منتجعا ما أو أي نشاط سياحي يصلح.

قلت مفكراً:

- أو ربما اكتشفوا ثروات طبيعية هنا ويريدون استخلاص بترول أو غاز طبيعي. المناطق المجاورة طوال الطريق على البحر وحتى السويس مليئة بمثل ذلك.. وغالباً موضوع المحمية هذا للتعتيم فقط على المشروع.

- أعلم.. كلامك هو الأقرب إلى الصواب.

- لكن يا شيخ ياسين لا توجد أي واسطة ولا يوجد إداري يمكن أن يمنع حدوث شيء كهذا.

عاد الشيخ ياسين للجلوس جوارى وقال:

- لا يا بني.. لقد فهمت مقصدي خطأ.. لم أطلبك بالطبع كي  
تتوسط لنا في منع ذلك الأمر.. إنما أريد منك خدمة بسيطة إن  
استطعت ذلك بالطبع.. أنت في مقام يزيد ولدي.. ويعلم الله وحده  
قدر معزتك عندي.

رددت متأثراً بكلامه:

- بارك الله فيك يا شيخ ياسين.. هو شرف لي. اطلب ما تريد.

- في الحقيقة هما أمران.. الأمر الأول أريدك أن تستخدم علاقاتك  
القديمة وتحاول قدر المستطاع تبين حقيقة أمر ضم هذه القرية  
للحكومة من عدمه. ربما كان مجرد كلام حكومة ليس إلا. فإن كان  
حقيقة تخضرننا له من الآن. فرح يزيد ولدي بعد ثلاثة أشهر.. وكنا  
سنبني له منزلاً جديداً مقابلاً لمنزل زوجته الأولى.. ولا أريد أن نبني  
ما سوف يهدم بعد أشهر قليلة.

قلت متسائلاً:

- وهل سيتزوج يزيد ثانية؟

- نعم.. زوجته الأولى عاقر.. ونحن لا نترك هذه الأمور وشأنها  
كما تعرف.

قلت:

- يرزقه الله بالولد الصالح.. مبارك عليه بإذن الله حسناً.. سوف  
أبدأ من الصباح في إعادة التواصل مع معارفي بالقاهرة. ربما استطعت  
أن أحصل على معلومة شافية.

- بارك الله فيك يا دكتور.. ونأتي إلى الأمر الأهم.

- وما هو؟

- هل توجد أي فرصة أو طريقة لضم هذا الضريح إلى هيئة الآثار؟  
ربما حفظه هذا من الاندثار إنه تراثنا الوحيد المتبقي.

فكرت قليلاً، وكنت أود أن أخبره أنه أمر ممكن.. لكنني لم أرد أن  
أجعله يتعلق بأمل ضعيف فسألته:

- ولماذا لا نحاول التواصل مع نقابة الأشراف؟ ربما ساعد ذلك.

قاطعني بنظرة عتاب من عينيه.. وكان يعلم أنني مدرك تماماً أن  
لقب الشريف ياسين هذا ما هو إلا مجرد لقب وليس له أي علاقة  
بهيئة الأشراف.. قال بهدوء:

- كان شرفاً لم أدعه لكنني أيضاً لم أنكره. في بلد كالتي نعيش  
فيها دائماً ما كان يفتح الأبواب المغلقة. وما فعلته إلا ابتغاء وجه الله  
وخدمة أهل القرية.

قلت مسرعاً:

- أعرف بالطبع يا شيخ ياسين.. أعرف. سيرتك العطرة وكرمك  
لا يحتاجان إلى الألقاب، لقد كنت أول من احتضنتني عندما جئت إلى  
الغردقة غربياً.

ولم يعقب على كلامي بشيء وأنا صمت تماماً.. ولم تكن لدي  
إجابة مرضية لسؤاله الأخير وبعدها قال في حزن واضح:

- ما الذي سيثول إليه المقام لو لم نستطع الإبقاء عليه؟

قلت له في أسفٍ شديد:

- في الغالب سيقومون بنقل الضريح فقط إلى مكان آخر تابعاً  
للطريقة التي كان يؤسس لها الشيخ الصالح. وفي الغالب أيضاً  
سيهدمون باقي المقام.

ردّ في حسرة:

- لا حول ولا قوة الا بالله.

ثم صمت تمامًا وبقيت جالسًا في حرج من الاستئذان وتركه وحده لحزنه.. إلا أنه وبمرونته المعنادة قال بعد قليل:

- لا أريد أن أثقل عليك.. جازاك الله خيرًا على قدومك يا دكتور.

- لا تقل هذا.. ليتني أستطيع أن أقدم أي شيء.

قام من مجلسه وقال:

- يدبر الله الأمر.. سأذهب لأستدعي لك من يقوم بتوصيلك.

ثم اختفى لدقائق عاد بعدها ومعه أحد العمال الذين أعرفهم في وادي حبيبة وقال له «لا تترك الدكتور قبل أن يدخل إلى الوادي» فأوما الرجل برأسه في طاعة.. ثم سلم عليّ وعاد إلى داخل المسجد.. وتوجهت مع السائق عائداً إلى غرفتي الكامب. وراحت السائق يقطع الطريق في سرعة إلى الكامب.. وكان من الواضح أنه يريد أن يذهب ويعود قبل أن يتأخر عليه الليل.. وهؤلاء ينامون عادة بعد العشاء بقليل وليس لهم في السهر ويبدأ يومهم مبكرًا جدًا.

أخذت أفكر فيما قاله الشيخ ياسين.. وهل توجد أي طريقة لدي يمكنني أن أساعده بها؟ أحتاج إلى معارف أقوى مما أملك.. وعلاقات أكثر تماسكًا مما لدي.. لقد قطعت علاقتي بكل الناس تقريبًا منذ أكثر من ثلاث سنوات.. حتى «سباستيان» منذ عاد إلى لبنان لم نعد نتواصل إلا نادرًا.



كنت قد ذهبت لملاقاة سباستيان أول مرة تنفيذًا لرغبة جدي  
وقلاً لبعض الملل الذي تسَلَّل إليَّ في بداية تحضيرى لرسالة الماجستير.  
سألني أول ما التقينا في ميدان طلعت حرب إن كنت أمانع أن نذهب  
إلى مكانٍ يسمى «صالون شوكت» قريبًا من الميدان فأخبرته أنني لا  
أعرفه فتعجب سباستيان كثيرًا وقال لائثًا وكأنه صديق قديم:

- كيف لمتقف مثلك أن لا يعلم بوجوده!

تجاوزت عن كلمة متقف هذه التي لم أدعها يومًا وقلت له:

- وهل هو واجب على المثقفين أن يعلموا بأماكن كل كافيها  
وسط البلد... أنا أسكن وسط البلد منذ أكثر من ستة وعشرين عامًا  
ولم أسمع عنه من قبل.

رد وهو يعبر الإشارة إلى شارع شامبليون:

- ليست الفكرة يا صديقي.. هو ليس كافيه إنما مكان يجتمع فيه  
معظم الأدباء والفنانين وعدد كبير من الشخصيات العامة.. يملكه  
أكبر منتج سنيا في بلدكم.. لقد سمعت عنه فور أن وصلت من  
بيروت.. قبل حتى أن أعمل في الجريدة.

- حتى لو كان ما نقوله صحيحًا.. أنا لست فنانًا ولا كاتبًا ولا  
شخصية عامة.. ليس لي علاقة بهذا الوسط حتى أكون مضطرًا لأن  
أعرف المكان.

- قاطعني سباستيان مستنكرًا:

- لا نقل هذا.. لقد كنت تبدو في دار الوثائق وكأنك صاحب  
المكان.. ألم تر كيف تركك الموظف هناك تنسخ ما شئت من الأوراق  
النادرة شديدة الأهمية؟

وكان يتحدث إليّ في انبهار طفل صغير فابتسمت ولم أعقب.

وصلنا إلى عمارة كبيرة على ناصيتها محلّ للالات الموسيقية وقال  
سباستيان «الصالون في الدور الثالث».. وفور أن دخلنا إلى المكان  
تركني وحدي في سخافة، وانطلق يسلم على كل شخص في المكان  
تقريبًا.. وكان يبدو أن الجميع يعرف بعضهم بعضًا.

كانت شقة واسعة على الطراز الفني القديم لشقق وسط البلد  
وبها عدد كبير من الجلسات المترامية في الأركان.. انزويت في أول  
مقعد قابلني منتظرًا «سباستيان» كي ينتهي من ثروته مع أصدقائه.  
وأخذت أنفحص الوجوه وأراقبها في تمنن، وكان الصالون مثلها قال  
سباستيان تمامًا.. وجوه كثيرة جدًا أعرفها. أراها كثيرًا في التلفزيون  
والسنيما وعلى صفحات الجرائد وفوق أغلفة الكتب. فنانون وكُتّاب  
وإعلاميون. رجال منظرهم مهيب ونساء كل ما فيهن يلمع وبإد  
عليهن الثراء.. وكان الجميع يتحدثون مع بعضهم البعض.. ولاحظت  
بعض اللكنات الشامية والخليجية بين الموجودين، ووجدتني غريبًا في  
وسطهم. فكرت أن أنسحب وأقوم كي لا أشعر بالحرج أكثر من  
ذلك وأعتذر لسباستيان بعدها بأيّ حجة.. لكنه قطع على طريقي  
فور أن رأيّ أتحرك واقترّب صائحًا:

- الخروج من هنا قبل الفجر ممنوع يا دكتور.

وسألت سيدة خمسينية جواره لا أعلم من أين أتت وكانت تمسك  
في يدها كأسًا صغيرًا وقالت:

- هو حضرتك دكتور؟

ورد سباستيان بدلًا مني «دكتور يحيى يا مدام صوفي دكتور في

الجامعة وصديق قديم، وقبل أن أوضح أنني مجرد معبد ولم أصبح  
أستاذًا بعد سألتني:

- ما شاء الله.. دكتور في أي تخصص؟

قلت مستسلمًا:

- حضارات قديمة.. أحضر دراسة في اللغات المصرية قديمة.

- لغات؟! وهل هناك لغة قديمة غير الهيلوغرافية؟

وقبل أن أجيبها قال أحدهم بصوت عالٍ:

- يا جماعة.. «أستاذ» حسان» سيلقي قصيدة جديدة.

صَفَّقَ الجميع وبدأوا يجتمعون حول حسان هذا.. كان رجلاً  
عجوزًا أسمر البشرة له لكنة جنوبية أخذ يتنهد حتى صمت الجميع  
ثم بدأ في الإلقاء.. قال مقدمًا قصيدته أنها قصيدة نثرية هامة وأنها  
أهم قصائده الأخيرة.. وأخذ في الإلقاء واندمج الحضور سريعًا،  
وكانوا يتفاعلون معه بالتصفيق كثيرًا وبشدة كلما توقف. لم أكن أفهم  
معظم ما يقول لكن الكلمات كانت تخرج من حنجرته مؤثرة وبها  
كثيرٌ من الأسى حتى وجدتني أنفعل لها وأصفق معهم. ودمعت  
عيني «حسان» في النهاية وهو يختم كلامه فالتهبت الأيدي بالتصفيق  
له ونظري لباسيتان، وكان مبتسمًا من سرعة اندماجي مع المكان.  
لكن التصفيق هذا فجأة أو أنه توقف تمامًا فور أن دخلت «ميريت».  
أنت ميريت في ثوبٍ أحمر قصير فوق جسدٍ ينفجر أنوثة وجألاً.  
كانت بشرتها شديدة البياض حتى إن أوردة خديها الخفيفة كانت تعلن  
عن نفسها أحيانًا، وكانت تضع فوق كتفها شالًا أسود يستر جزءًا من  
صدرها المكشوف أزالته من فوق كتفها فور أن دخلت إلى الصالون.



واقتربت مباشرة من سباستيان وهي توزع الابتسامات بعدلٍ على الموجودين. ثم اقتربت من سباستيان لتسلم عليه فاحتضنها وقبلها في خدها وقدمني إليها قائلاً:

- دكتور يحى الذي حدثتكَ عنه.

مدت يداً ناعمة انزلت تقريراً في كفي وأنا أسلم عليها، وقالت في صوت ساحرٍ.. «شكراً لك جداً.. لقد وفرت عليّ تعباً طويلاً..» ولم أفهم ما تقصد، وقبل أن أسألهما قاطعتنا مدام «صوفي» سائلة سباستيان:

- ويعد يا سباستيان.. لن نسمح لك أن تخفي هذا القمر عنا للأبد.. لقد فلتت منا المرة الماضية ولن نتركها لحالها اليوم.

ثم ضحكت في «عدم اتزان» من أثر ما كانت تشرب وأخذت «ميريت» من يدها واتجهت بها إلى منتصف القاعة.. وضحكت ميريت بينما قال «سباستيان» الذي تبعها وأنا وراءهم:

- قدّمتهما لكم من قبل يا مدام «صوفي» يبدو أنك كنت نائمة وقتها.

فضحك الجميع على رد «سباستيان» وحتى مدام صوفي نفسها ضحكت وتابعت تسأل «ميريت» مبتسمة:

- عرّفينا بنفسك يا أستاذة.. صاحبك يغار عليك منا.

قالت «ميريت» بصوت خافض به بعض الحرج من الأعين الكثيرة الناضرة إليها:

- أنا «ميريت».. فنانة تشكيلية من لبنان.

وتابع سباستيان:

- ميريت فنانة تشكيلية عظيمة ستسمعون اسمها كثيرًا في السنوات القادمة. وهي ابنة بيروت مثلي.

وقاطع أحدهم بسخافة سائلًا عن اسمها مطلقًا الدعابة المكررة عن نوع السجائر المعروف.. وضحكت مدام صوفي على دعائه بصوت رقيق وتدخل الشاعر «حسان» مضيفًا بسخافة دعابة أخرى.. واحمر وجه «ميريت» خجلًا إلا أن مدام صوفي تابعت تسأل في جدية:  
- متأسفون لك لا نقصد السخرية بالطبع.. الاسم قليل الاستخدام أظن أنه فرنسي.. ترى ما معناه؟

ثم أكملت سؤالها في خبث:

- إياك أن تكوني لا تعرفين معنى اسمك يا صغيرة.

لم ترد عليها «ميريت» وإنما غرقت في خجلها وبدأ الغضب يكسر وجهها الذي كان يشرق جمالًا منذ ثوانٍ.. أشفقت على حالها وقلت في صوت خرج عاليًا:  
- المحبوبة.

فالتفت الحضور كله وأربكتني أعينهم الناظرة في عدم فهم فتابعت شارحًا:

- ميريت باللغة المصرية القديمة تعني المحبوبة.. هو اسم لعبد كبير من الأميرات في الدولة المصرية القديمة «ميريت-نيت» و«ميريت-آمون».. وغيرهن كثيرات.

تابعوا صمتهم في انتباه شديد لم أقول وصاح «سباستيان» في فخري:  
- الدكتور يحيى الطيب.. دكتورًا في الآثار المصرية وصديق قديم لي.

لم تصبني الأعين المكددة بالارتباك وقتها.. فقد كنت أتحدث فيها  
أعرفه.. بل أصابني انتشاء ما لعلمي بما يجهلون ونظرت إليّ «ميريت»  
وكانت تبسم في امتنان واضح.

انصرفوا بعدها إلى الشاعر «حسان» الذي قرر أن يلقي قصيدة  
جديدة أخرى.. وتأبط سباستيان يدي وأخذني إلى مجلس هادي في  
ركن المكان جوار شرفة كبيرة تطل على الشارع وتبعنا ميريت.  
اتخذت لنفسها مقعداً مقابل لي وذهب سباستيان ليحضر لي قهوة  
من البوفية وعاد سريعاً.. ولم نكن نتكلم أنا وميريت بعد. كنت  
أهرب بعيني منها زمن وجهها الجميل وأراقب الشارع. كانت شركة  
الصرافة في المبنى المقابل تغلق أبوابها الحديدية ويطلق صاحبها ما بقي  
من أنوارها.. وكأنها أوحى لميريت فطلبت من سباستيان أن يخفف  
من إضاءة الشرفة.. تناولت رشفة من قهوتي وكانت شديدة السوء  
درجة أنني أخبرت لسباستيان بهذا فابتسم ولم يعلق.. ثم نظمت  
ميريت أخيراً وقالت:

- قرأت في مرة أن اسمي معناه الكامل «محبوبة والدها» وليس  
المحبة فقط.

نظرت إليها مبتسماً.. وكنت أعلم بالطبع لكنني خشيت إن قلت  
لهم المعنى كاملاً أن يزيد ذلك من سخريتهم.. سألتها محاولاً تغيير  
الموضوع:

- هل تعملين مع سباستيان في نفس الجريدة؟

- لا.. أنا هنا للدراسة.. لكنني لا بد أن أجد عملاً فوراً بدأت  
أفلس.

وضحكت في عذوبة.. وخفق قلبي لضحكته فقد امتلأ خذاها

الناضجان حتى كادا أن يأخذا ابتسامتها ويحلّقان حولنا.. ونال  
سباستيان معقبًا على إجابتهما:

- ميريت تعمل على رسالة هامة للمهاجستير.. الأوراق التي كنت  
أبحث عنها اليوم في المركز كانت من أجلها.

وقالت ميريت:

- لا تعلم كم كانت مهمة تلك الأوراق يا دكتور.. كلمة شكرًا  
لا تكفيك.

- لا داعي للألقاب هنا.. لست أدرس في الجامعة بعد. كما أننا  
تقريبًا زملاء في نفس المرحلة فأنا أيضًا أعمل على رسالتي حاليًا.  
وأفهم تمامًا صعوبة ما تمرين به من مشقة البحث.

- وعم تدور رسالتك إذا؟

- نفس ما درسته في الكلية.. الحضارة المرية القديمة.. اللغات  
المصرية القديمة تحديدًا لكن بتعقيد أكبر.

وتدخل سباستيان قائلاً:

- يمكنك أن تستعيني بالدكتور يحيى بعد الآن في أوراقك النادرة  
هذه.. لقد تعبت منك وأنتما زملاء دراسة الآن.

فضحكت ميريت بنفس العذوبة.. وخفق قلبي أكثر.. وقلت:

- يمكنك ذلك بالتأكيد.. أنا أذهب إلى المركز بشكل يومي هذه  
الأيام.. يمكنكني أن أساعدك كثيرًا.

وأضفت حتى لا يبدو إعجابي بها واضحًا:

- إن أردت ذلك بالطبع.

فردت وقد أشرق وجهها:

- سيكون هذا عظيمًا جدًا.. لكن أخشى أن أتعبك.

وأضافت في دلالٍ «طلباتي كثيرة جدًا.. وأسأل سباستيان»

رددت وقد أصبحت غدراً من جالها.

- أنت تأمرين.

وأخرجت هاتفها لتبادل أرقامنا وحلت ضوضاء في المكان فصاح

سباستيان:

- ميريت!! الأستاذ شوكت وصل.

انتهت ميريت واشتدت كالفوس ناهضة في سرعة واستأذنتني  
قائلة «دقيقة واحدة.. سأعود حالاً».

ولم تنتظر أن أردّ، وتبعها سباستيان مسرعًا وظلا غائبين وطال  
غباهم حتى انقضى أكثر من ساعة ولم تعد بعد.. عاد سباستيان  
أكثر من مرة لبقضي دقيقة أو دقيقتين معي يثرثر في أي شيء ثم  
يلمح شخصًا ما فيعود ليختفي.. وظللت أراقب «ميريت» من بعيد  
وهي تتحدث مع «شوكت» هذا ولم تُنزل عينيها من عليه طوال  
حديثهما.. وعندما سألت عنه سباستيان قال «أخبرتكَ إنه متج  
سينمائي كبير».. وتعجب من جهلي به وعندما انتصف الليل ينست  
من عودتها وتعمدت ألا تلمحني هي أو سباستيان وأنا أخرج وكنت  
غاضبًا بشدة.. هذه هي أول مرة أنتظر امرأة فلا تأتي.

عدت إلى البيت ودخلت متسحبًا كي لا أوقف جدي وقد بات لا  
يسهر مثل عادته بعد تعب الأخير. لكنني وجدته نصف نائم فسلمت  
عليه في خفوت. وقال من بين غفوته «زوجة عمك مريضة اتصل  
بها غدًا واطمئن عليها ربما كانت تحتاج إلى شيء» ثم عاد إلى نومه..  
وكانت قدمه متورمة بشدة.

صنعت لنفسى قهوة بدلاً من قهوة الصالون السيئة.. ووقفت  
أدخن في الشرفة وأسترجع حديثي مع «ميريت» كلمة بكلمة..  
وأسترجع معه وجهها وهي تتكلم وتبتسم.. وكنت أنظر إلى شاشة  
الهاتف كل فترة وقد منيت نفسي أنها ستأخذ رقمي من «سباستيان»  
في الغالب. وبعد الوحدة صباحاً جاءني اتصال من رقم مجهول فردن  
عليه فوراً قبل أن يوقظ صوته الهاتف جدي وسمعت صوتها العذب  
وهي تقول:

- دكتور يحبي.. أنا آسفة جداً.. أرجوك لا تغضب مني.

امتلاً صدري بالنشوة من مجرد سماعي صوتها وقبل أن أرد أكملت:

- أنا ميريت يا دكتور يحبي.. صديقة سباستيان.

رددت سريعاً:

- أعرف صوتك بالتأكيد.

- أرجوك لا تكن غاضباً.. لقد كنت أنتظر الأستاذ شوكت منذ

شهر كامل ونسيت نفسي فور أن رأيته.

كان الفضول يأكلني كي أسألهما عما تريد من شوكت هنا لكني

ألجمت فضولي بصعوبة وقلت:

- لا ليس في الأمر ما يغضب.

فقلت ببهجة حقيقة:

- شكراً.. شكراً جداً.. كنت سأنام وضميري يعذبني على قلة

ذوقي معك.. واعذرنى إن اتصلت متأخراً هكذا.. لكني لم أستطع

الانتظار حتى نلتقي غداً.

- لا يهكم.. لم يكن شيئاً كبيراً. ولكن هل سنلتقي غداً؟

- ألم تقل أنك تذهب للمركز يومياً هذه الأيام؟

قلت مسرعاً قبل أن تغير رأيها.

- نعم نعم... كل يوم.

- حسناً ألك هناك غداً.. لو لم يزعجك هذا.

فقلت منشياً:

- إطلاقاً.. سأنتظرك غداً.. أنا موجود حتى الرابعة بعد العصر.

- اتفقنا.. تصبح على خير.

- سنصبحين على خير.

ثم أغلقت الهاتف وبقيت ساهراً حتى الفجر أفكر فيها وأستعيد  
المكالمة مرات ومرات. ثم التقيت في اليوم التالي وكانت لديها ليسته  
طويلة من الوثائق التي تحتاجها فعلاً كما قال «سباستيان».. وانقضى  
النهار في عملية البحث عن وثائقها وفي حديثنا المتصل. بعدها خرجنا  
نمشي إلى شارع القصر العيني ثم إلى كوبري قصر النيل.. وكنا لا  
نكف عن الكلام.. لم نلتفت إلى النظرات الفضولية المتطفلة على جمال  
ميريت من الناس حولنا. لم أكن أسمع أي شيء سوى صوتها ورحت  
أحكي لها عني وعن جدي وعن البعثة إلى لندن.. عن التاريخ الذي  
أحفظه عن ظهر قلب.. فلا تملى حكاياتي ولا أمل أمثلتها التي لا  
تنتهي بعد عن كل حكاية.. وكنا إذا تعبنا جلسنا في أقرب كافيه يقابلنا  
ثم أكملنا سيرنا. ولم نشبع من الكلام حتى اختفت الشمس وساقتنا  
أقدامنا إلى الصالون. ووجدت نفسي قد أحجبت المكان فجأة وتقبلته  
بكل ما فيه.. حتى الأستاذ شوكت نفسه تعرفت به بعدها وأخذت  
أشاهد بعض أفلامه مجاملة. وبعد أن انقضى شهر من الحديث والسير

في شوارع القاهرة طوال النهار والسهر في الصالون حتى الفجر ثم  
توصيلها إلى الاستوديو الذي تسكنه في الزمالك وجدت نفسي لا  
أخجل من الاعتراف أمام نفسي بأنني قد وقعت في حبها. وكنا  
نقضي الأوقات التي لا نكون فيها سويًا بالحديث الطويل في الهاتف..  
وكان جدي سليم يلاحظ انشغالي الدائم لكنه لم يكن يسأل. كنت  
أعطل أمامه أحيانًا بضغط العمل على الماجستير.. لكنه بدا منفصلًا  
عني في الأيام الأخيرة.. وكان ينام معظم الوقت.. وكنت مخمورًا  
بعيني مبريت، حتى إنني لم ألاحظ تورم قدميه الذي كان يزداد يومًا  
بعد يوم وحالته التي كانت تسوء.

تساجرت أنا وميريت للمرة الأولى بعد ثلاثة أشهر فقط من  
خروجتنا اليومية ولقاءتنا الدائمة في الصالون. كانت علاقتنا لم تأخذ  
أي معنى بعد وكان هذا اتفاقًا ضمنيًا بيننا.. كانت بيننا مساحة  
كبيرة من الحرية في الكلام والتفاصيل الدقيقة لا يقيد بها أي شيء..  
لكننا لم نتقيد بالتزامات معينة لكل منا في تصرفاته ناحية الطرف  
الأخر كالتزامات الارتباط. تركنا أنفسنا للوقت يسمى علاقتنا كيفما  
يشاء. وإن كان انجذابنا لبعضنا واشتياقنا المستمر والمتجدد واضحًا  
لكل من حولنا.

نشب خلافنا الأول بالطبع بسبب تعاملها مع أصدقائها في  
الصالون بؤدٍ مبالغ فيه.. فقد كانت التعاملات في الصالون عامة  
ليس لها أي حدود. القبلات هناك مجانية للجميع وطوال الوقت.  
للغريب وللغريب. على اليمين وفوق الخدين وفي زوايا الشفاة أحيانًا.  
وأحيانًا قبلات ساخنة ملتصقة في إحدى الزوايا بين من يكتفون بقلب  
أصدقاء فقط أمام الجميع. طوال الوقت لا بُد من كأس هنا وحكاية



جنسية هناك. ورغم أنني قضيت عامًا كاملاً أيام البعثة في لندن.. إلا أن الوضع في الصالون كان شاذاً يشوبه الكثير من الرخص والابتذال. ولم تكن ميريت تبدي أي استياء لما يحدث.. وعندما لمُحِت لها ذات مساء أنني بدأت لا أستريح لوجودنا الدائم في الصالون غضبت بشدة.. وقالت لي «لا تكن رجعيًا هكذا».. تضايقت من كلماتها تمامًا وانقطعت عن الاتصال بها وعن المكان كله.. ولم تعاود هي الاتصال بي بعدها مباشرة.

كانت أيامًا ثقيلة وسخيفة مرت بمرار على قلبي.. لكنني انتبهت بسببها إلى سوء حالة جدي الصحية.. وذهبت به إلى الطبيب الذي قال بعد عمل بعض الأشعة والفحوصات أن القلب متضررٌ بشدة. وعضلة القلب أصبحت تنذر بقلق أكثر خطورة من ذي قبل ونبهنا إلى أن الكبد ربما يبدأ قريبًا في التداعي هو أيضًا.

حاولت أن أجلب له أي فتاة صغيرة مرافقة له لتجالس به في المنزل ونخذه في الفترة التي أكون غير متواجد فيها وقد كان يومي مزدحمًا بين أروقة الكلية للمهاجستير وبين دار الوثائق. وزاد انشغالي بعد أن قمت بتدريس بعض الكورسات الخاصة لطلبة المعاهد السياحية لزيادة دخلي.. وقد كانت تدر دخلًا جيدًا لم أستطع الاستغناء عنه وكان راتب الجامعة لا يكفي وحده بالطبع.. لكن جدي كان يرفض اقتراحي دائمًا ويرفض أن يُدخل غريبًا إلى البيت.

عادت «ميريت» الاتصال بعد شهرٍ من انقطاعنا.. قالت في الهاتف «لم أكن أعرف عن سواد قلبك شيئًا يا بجي» ولم أعقب على كلامها.

لكن مجرد سماعي لصوتها أعاد إليّ روعي من جديد وعدنا نلتقي..

وحدات أقل من ذهابي إلى الصالون وأطلب منها أن نلتقي في أي مكان آخر فلم تكن تعترض.. لكنها أحياناً كثيرة كانت تعتذر ولا تأتي فيصير يومي خاوياً وجافاً من دونها.. ثم تشاجرنا مرة أخرى بسبب عرضي جاءها للظهور في أحد إعلانات العطور على إحدى صفحات المجلات.. لم تشاجر طويلاً وقتها لكن بعد أن رأيت صورها في المجلة وهي ترتدي ثوباً أقرب إلى ثياب النوم غضبت منها كثيراً.. وكان غضبي صامتاً هذه المرة.. وكانت تفهم.. وجاء لقاؤنا مرة ثانية بعد آخر انفصال بيننا تلبية لدعوة من سياستيان الذي كانت خطيته «إيرين» قد جاءت من لبنان لقضاء الإجازة معه في مصر.. وأصرّت «ميريت» أن أذهب معها إلى الصالون للترحيب بها.

ذهبت مضطراً.. وكانت «إيرين» فتاة لطيفة وهادئة.. ملاعها طيبة جداً ولها براءة واضحة في طريقة كلامها.. ووجدتها مناسبة لسباستيان وكلّ منهما كان يحب الآخر بشكل واضح لأعيننا.. وبعد أقل من ساعة في الصالون طلبت «إيرين» من سباستيان أن نذهب إلى أي مكان آخر.. فذهبنا إلى حديقة جروبي القريبة.. وسألت «ميريت» إيرين لماذا تضايقت من المكان فقالت إيرين ببراءتها:

- يوجد به شيء غير مريح على الإطلاق.. طريقتهم في التعامل وفي الكلام مبتذلة للغاية.

نظرت إلى «ميريت» نظرة بها الكثير لكنها لم تستطع أن تقول شيئاً.. فقلت موجهة كلامي لإيرين:

- ظننت أن المكان لن يكون غريباً عليك.. ألم تأت من بيروت؟ أكثر البلدان العربية انفتاحاً على ما أعتقد.

ردت إيرين مفسرة:

- الوضع ليس له علاقة بانفتاح أو غيره.. هذا المكان موجود  
مثله العشرات في بيروت وكازبلانكا وتونس ودبي وغيرهم.. المشكلة  
أنه به شيء خبيث واضح جداً.. ألم تلاحظوا ذلك؟

لم أنشأ أن أستفيض في الحديث أكثر حتى لا أستفز «ميريت» أو  
أسبب لها حرجاً.. فعلى الرغم من أن سباستيان هو من عرفنا نحن  
الاثنين على المكان إلا أنه لم يكن يدافع عنه مثلما تفعل ميريت دائماً..  
وانقضى عام على علاقتي بميريت. كان مليئاً بالخلافات والخروجات  
التي تتبعها مكالمات طويلة حتى منتصف الليل.. وعلى الرغم من  
خلافتنا الدائمة لم نكن نستطيع أن نبتعد عن كثيراً ودائماً ما نعود  
للمقابلة في النهاية.. ورغم أسلوب حياتها المتقلب والجامح كانت  
مخلصاً في علاقتها معي ولم تجعلني أشعر بأية غيرة تجاه شخص  
بعينه أبداً.. كانت الغيرة دوماً سببها الأسلوب العام في التعامل مع  
المحيطين.

قارب موعد الامتحان وكنت مشغولاً في مذكراتي ووجدت  
«ميريت» لا تلقي بالاً تقريباً إلى رسالتها وكأنها قد صرفت النظر  
عنها وكلما حدثتها عن ذلك تهربت من الحديث. وبعد انقضاء  
الامتحانات تشاجرنا بسبب رفضي ظهورها في أحد الكليات الراقصة  
التي يقوم بإنتاجها الأستاذ شوكت. ونويت ساعتها أن أقطع علاقتي  
بها نهائياً؛ فقد كان الطريق يسير إلى فراق في النهاية لا محالة.. إلا أنها  
أزادت الأمور تعقيداً واعتذرت للأستاذ شوكت عن عرضه الذي  
يسدو أنها انتظرته كثيراً. ثم فاجأتني قائلة إنه ينتظر مقابلاتي لأمر  
هام في الصالون أي يوم. لم أفهم ما الذي يمكن أن يريده مني ولم  
نكن «ميريت» تعلم أي شيء.. ودفعني فضولي إلى الذهاب إليه.

عندما دخلت إلى الصالون توجهت إليه مباشرة لأعرف ما الذي يريد مني وكنت أنوي أن أفعل معه أي مشاجرة إن كان للموضوع علاقة بميريت.. لكنه فاجأني بعرض للتمثيل في أحد أفلامه.. وقال أنه دور كبير. ولم تصدق ميريت نفسها وتفاجأ سباستيان وكل من كان في الصالون.. قلت له متعجباً إنني لم أمثل من قبل وليس لدي أي خبرة في التمثيل فقال دون اهتمام:

- هذا لا يهم، أمره بسيط، نُعلمك التمثيل.

فسألته متعجباً في شيء من السخرية:

- وما هي مقوماتي العظيمة في التمثيل إذاً كي تمنحني دوراً كبيراً مرة واحدة فقال بحكمة العالم بالأمور:

- لك وجه وسيم.. وطولك يناسب الدور جداً.

- هذه مقومات موديل لإعلانات وليس ممثلاً.

فردّ في استهتار:

- وما الفارق؟ الممثل موديل في النهاية، لكنه موديل للشخصية، ثم لماذا لا أراك مهتماً! هذه فرصة يحلم بها أي إنسان في مثل سنك. قلت في حزم كل أنهي الموضوع وأنصرف من هذا المكان:

- أشكر عرضك جداً يا أستاذنا، لكنني في الحقيقة غير مهتم، أنا رجل تاريخ، ولا أحب في حياتي سوى التاريخ.

واتسعت عينا «ميريت» غضباً وتركتهما معهم وانصرفت من المكان.. حاولت ميريت أن تهاتفني طوال الليل فلم أرد عليها، وسافرت في اليوم التالي مباشرة إلى الأقصر مع ورشة تدريبية لطلاب الفرقة الثانية بالكلية.. ولم تنقطع رسائل ميريت ولا اتصالاتها على مدار اليومين التاليين.

وفي مساء اليوم الثالث قررت أن أرد على اتصالها، وجاء صوتها حزينًا وقالت إنها لا ذنب لها، وأن الموضوع لم يكن به أي إهانة كي أترك المكان وأرحل في درامية هكذا.. وقالت لائمة في النهاية:

- كان يكفي أن تعتذر للرجل في لطيف.. هذا عمله الذي يجيده وهو لم يخطئ في حقك بأي شيء، وكان حقك أن ترفض ولن يجبرك أحد على شيء.

قلت في سرعة:

- ولماذا اتسعت عيناك في غضب إذا عندما رفضت عرضه؟ لقد ظننتك ستحرقيني بها.

فقلت في حزين، وكان صوتها صادقًا:

- لماذا تتعمد إذلاي؟ أنا أحبك يا يحيي، ولم أحب أحدًا قط مثلما أحبتك.. وفاجأني تصريحها بحبها لي.. رغم أننا نعرف عن تعلقنا الشديد ببعضنا البعض إلا أننا لم نعرف بذلك أبدًا من قبل.. وأذابت كلمتها قلبي تمامًا، وكنت واقفًا أمام تمثال كبيرًا للملك المحارب تخمس الثالث في أحد معابد الكرنك بالأقصر ووجدته وكأنه ينظر إليّ في تحدٍّ فأوليته ظهري وقلت وقد أختلج قلبي:

- وأنا أيضًا أحبك يا ميريت.

ظلت تحادثني إلى أن وصلت إلى الفندق، ثم تحدثنا ثانية حتى الفجر، واتفقنا أن نلتقى فور عودتي مباشرة في الاستديو لديها بالزمالك حيث يعد سباستيان مفاجأة لإيرين بمناسبة عيد ميلادها، وأخذت أنتظر الأسبوع أن ينتهي في صبر حتى أقابلها، وكنت أفتقد بشدة ولم تكن تنتهي من الحديث في الهاتف كل ليلة.. وكنت أستيقظ يوميًا على رسائلها الرقيقة في صباح.

وصل القطار متأخرًا ليلة عيد ميلاد لإيريس، وعرفت أنني سأفوت المفاجأة من بدايتها.. انطلقت إلى منزلي سريعًا لأطمئن على جدي ووجدت حالته غير مطمئنة فاتفقت معه أن نذهب إلى الطبيب في اليوم التالي ولم يعترض.. فقد كان يدرك سوء حالته هذه المرة.. وبالفعل في ثانقي وأنا ذاهب إلى الاستديو.. وفور أن فتحت لي الباب ألقى نفسها بين ذراعي فاحتضنتها طويلاً ولم أكن أريد أن أفلتها.. وكانت رائحة عطرها المزوجة برائحة شعرها تحترق روحي حتى حلّق قلبي مبتعدًا ليستقر معها.. وكانت ترتدي ثوبًا أسود أنيقًا للغاية.

فور أن دخلت إلى الاستديو أحسست به زحامًا شديدًا رغم أنه لم يكن به عدد كبير.. لكنه كان صغير الحجم؛ به غرفة واحدة وصال كبيرة ملحقة بها مطبخ جانبي. تفقدت الحضور فكان سباستيان وإيريس يجلسان متجاوران، وكان معظم الباقين من المترددين على الصالون، وكان الأستاذ شوكت موجودًا بالطبع؛ فأدركت عيني بعدًا كأنني لم أراه.

باركت لإيريس وأعطيتها قلادة منقوش عليها اسمها واسم سباستيان بثلاث لغات مختلفة جلبتها لها من بازار في معروف الأقصر، وفرحت بها كثيرًا هي وسباستيان.

بعد قليل كان صداع خفيفا بدأ يهاجم رأسي من مشقة السفر لساعات طويلة بالقطار من الأقصر إلى القاهرة.. قمت إلى المطبخ لأصنع لنفسني قهوة ولم أستأذن «ميريت» وقد اعتبرت أنه مكانًا وقبل أن أصب القهوة كان صوت الموسيقى قد ارتفع بشكل مبالغ فيه وارتفع صوت تصفيق الموجودين. فاتجهت أنظر بفصل.

فوجدت «ميريت» تتوسط دائرة اجتمع كل من في الاستديو بها، وكانت قد بدلت ثوبها الأول وارتدت ثوبا ذهبيًا قصيرًا ضيقًا قد التصق تمامًا بجسدها لدرجة تجعل تمييز أين يبدأ وأين ينتهي أمرًا مستحيلًا.. وكانت ترقص في انسجام على نغمات للرقص الشرقي، وتمايل مع الإيقاعات في احترافية عالية.. عدت إلى المطبخ منكسرًا مما شاهدت، وكانت القهوة قد احترقت مثل قلبي فأخذت ما بقي منها وانزويت أشربه في مرارة ولم أستطع أن أفسد الليلة على إيرين أو سباستيان بمشاجرة مكررة مع ميريت.. وبعد أن انصرف الجميع رفقت «ميريت» أن تركني أذهب قبل أن تفهم ما حل بي.. وكان أكثر ما يغضبني أنها كانت تفهم.. حتى شككت أنها ربما تعمدت أن تفعل ذلك لمضايقتي.. أغلقت «ميريت» الباب خلف آخر من رحل منهم ثم جلست جوارى ووضعت يدها فوق يدي وسألت:

- ماذا بك يا يحيى؟ لماذا تغيرت فجأة هكذا؟

وكنت قد سئمت منها ومن ألعابها هذه التي لا تنتهي، وأحسست أنني قد استهلكت تمامًا.. أزحت يدها برفق وقلت لها في هدوء تام:

- ماذا تريد مني يا ميرت؟ تعلمين كل العلم أننا لن نصل إلى شيء بهذه الطريقة.. كوني صريحة معي من فضلك وقولي لي ماذا تريدين؟

قالت بنفس هدوئي:

- أريدك يا يحيى. قلت لك إنني أحبك منذ يومين فقط، رغم أنني انتظرت طويلًا أن تبدأ بها أنت، لكنني وجدت لك لن تفعل ذلك أبدًا فلم أكابر. قلت لك ما في قلبي وما تعرفه وأعرفه أنا منذ شهور.

- وماذا بعد الحب؟

قامت من مجلسها وجلست جوارى ملتصقة بي ومررت بليها  
الناعمين في شعري ثم قالت:

- بعده كل شيء.

وانطلقت تقبل وجهي في وله.. وأخذت أنفاسها الحارة تخنقني في  
البداية إلا أنني وجدتنى سوف أستجيب لإغوثها في النهاية.. وكانت  
كلمات جدي لي في الشرفة حاضرة بقوة هذه المرة. وكأنه نفسه كان  
معنا في الاستديو.. أبعدها عني في لطف فلما مانعت أزحتها جانباً  
ونهضت واقفاً.. فقامت هي أيضاً وقالت في غضب وقد علا صرتها  
تماماً:

- بل قل لي أنت ما الذي تريده مني لقد نفذ صبري معك يا  
يحيى.

ثم صرخت:

- ماذا تريد؟

رددت في نفس هدوئي السابق:

- لماذا تفعلين هذا بنفسك وي.. إلى أي سوء تريدين أن تذهبي..  
من هؤلاء الذين تقضين حياتك معهم.. ولماذا؟ أين «ميريت» الفنانة  
التشكيلية الموهوبة التي عرفت في الصالون؟ أين تذهبين بنفسك مع  
هؤلاء؟ ومن هؤلاء أصلاً؟

قالت بنفس الغضب:

- من هؤلاء؟ هؤلاء هم النجوم يا يحيى.. هؤلاء هم الصفوة  
قل لي أنت.. كم فناناً تشكيليّاً في مصر.. في الوطن العربي كله..



في العالم؟ كم واحدًا منهم تعرفه؟ ستقول لي كثيرين.. حسنًا.. مَنْ غيبي وغيرك يعرفهم.. لا أحد، هل تفهم؟ لا أحد.. لم أترك بلدي وأهلي لأصبح لا أحد.

- وهل هؤلاء هم من تركت أهلك وبلدك من أجلهم.

- بل من أجل حلمي.

- التمثيل؟

- من فضلك يا يحيى، لا داعي لأن تسخر مني.. أنت لا تعرف ماذا تركت من أجل أن أحافظ عليك إلى الآن.

قلت صائحًا:

- كفالكِ وهما يا ميريت.. أنت لم تتركي شيئًا لأجل أحد. كل ما تفعلين هو لأجل نفسك.. ونفسك فقط.. وشوكت هذا هل تظنين أنك سوف تصلين من ورائه لشيء.. لقد قلت أنتِ بنفسك من قبل.. هذا عمله وهو ماهر فيه.. وإن شئت رأيي.. أرى أنه ماهر فيه تمامًا ويحيد توظيف ممتلكاته جيدًا.

- ماذا تقصد؟

- ما أقصده واضحًا يا ميريت.. شوكت هذا لم يَرِ فيكِ إلا وجهًا جميلًا وجسدًا رائعًا، لو كان رأى فيكِ أي مكسب أكثر من هذا لم يكن ليتركك كل هذا الوقت.

قالت مصدومة:

- انحاسبني على جمالي يا يحيى؟! جسدي هذا الذي يتمناه كل من في الصالون حرمة عليهم جميعًا. أتعرف لماذا؟ لأجلك أنت.

قلت لها في يأس:

- كان أكرم لك أن تحرميه عليهم لأجلك أنت.

ثم سكّت.. وكنت قد اكتفيت منها تمامًا.. وجلست هي في المقعد تبكي فقلت لها وأنا على الباب: «من فضلك دعيني وشأنى هذه المرة.. ثم تركتها وانصرفت. وعلمت بيني وبين نفسي أننا انتهينا هذه المرة للأبد.. وفي منتصف اليوم التالي أرسلت إليّ رسالة قصيرة قائلة: «انتظر اليوم في جروبي.. ثمة شيء أخير أريد توضيحه لك.. اعتقد أن ما بيننا يستحق هذا اللقاء الأخير».

ولم أكن أفكر أن أستعيدها بأي صورة ممكنة، لكن انتزاع صورها وصورتها من روحي كان قاتلاً، ووجدتني أرتدي ملابس متاهياً للقائهما في الموعد المحدد.. وقبل أن أذهب سمعت جدي يتحدث مع أحدهم في الصالة. تعجبت وظننته يناديني.. لكنني عندما نظرت إليه وجدته زائغ العينين.. وكان يقول شيئاً لا أفهمه.. ويوجّه حديثه إلى أبي ثم يسبّه.. تلبسني الذعر من منظره وهو يخرف وأسرعت به إلى المستشفى، وفور أن رآه الطبيب المقيم قال إنها مبادئ غيبوبة كبدية.. ونُقل إلى الرعاية المركزة وبقي فيها لثلاثة أيام.. وجاءتني رسالة من ميريت في الليلة نفسها قائلة: «لقد أحبتك بصدق من كل قلبي يا يحيى.. تذكر هذا دائماً». فلعلتها في سري، وانتقل جدي في اليوم الثالث إلى غرفة عادية في المستشفى بعد أن عاد إليه وعيه ونحمت حالته بشكل جزئي.. أخذت أقبل يديه كل صباح وأعده وأقسم له إنني لن أتركه وحيداً مرة أخرى. فوضع يده على رأسي في مرة وقال مبتسماً: «لم أكن وحيداً يا يحيى.. لم أكن وحيداً يا بني» ودخلت علينا الممرضة المسنولة في القسم.. ودخلت من ورائها زينب.



منّا قد وصلنا بالسيارة من قرية الجبل إلى الكامب.. وتوقف  
السائق أمام غرفتي ولم يتكلم أدبًا.. نظرت إلى باب الغرفة وكنت  
أعرف مقدار اللوم والوحدة اللذين ينتظرانني داخلها.. أخذت أنظر  
إلى المكان الذي كانت تقف فيه باسمينا نهارًا.. ونظرت إلى ساعتني  
وكانت قد تجاوزت التاسعة بقليل، ثم التفتت إلى مرآة السيارة أبحت  
فيها عن وجه زينب، وكانت الإضاءة في الكامب شبه معتمة.. فلم  
أستطع أن ألع في المرأة أي شيء.. فكرت أن أسأل السائق أن يضيء أي  
شيء في كابينة السيارة، ووجدت أن طلبتي سخيّف، ولم يسألني إن كنت  
سأنزل أم ماذا؟ نظرت إلى المرأة مرة أخرى ثم طلبت منه طلبًا أكثر  
سخافة وقلت:

- متأسف جدًا.. لكن هل يمكنك أن تكمل جميلك وتوصلني إلى  
الغردقة؟

لم يبد أي تذمر أو اعتراض، و فور أن خرجنا من بوابة الكامب  
سألني:

- إلى أي مكان في الغردقة يا دكتور؟

فقلت بين شرودي:

- إلى المارينا..



(٤)

## ياسمينا

عزيزيتي بيلا: خمسة عشر عامًا من الوحدة يا بيلا.. خمسة عشر عامًا من التزييف كلما لمسني أحدهم.. لم تبدد سوى الليلة..

أعلم أنك تتعجبين من كتابتي إليك للمرة الثانية في نفس اليوم، لكنني لا بُد أن أحكي لأحد يا حبيبتى.. ومن لي سواك؟!

لقد جاء يحبى يا أمي.. جاء الليلة ولم يخيب ظني.. جاء أخير بعد أن انتظرته طويلاً.

لماذا لم يقل لي «زين» من البداية إنه رقيق هكذا؟ لماذا لم يقل إنه يكون وسيماً إلى تلك الدرجة في الليل.. آه يا أمي لو أنك تعرفين ذلك الإحساس الذي أحسسته.. لقد كنت مدفونة طيلة هذه الأعوام حتى نسيت أنني أنسى.

يقول يحبى إنه لا يصلح للعلاقات، ولكن أتعلمين شيئاً يا أمي الحبيبة؟ هذا لا يهم. لم يعد شيء يهم. لقد كان يكفيني أن أشعر بما شعرت به الليلة.. قطرة من الماء في عمر طويل من الظلم، حتى أنني أدركت معنى الارتواء اللية فقط.

القيت نفسي بعد ما وقع لي مع فيليب إلى الحياة تلقى بي حيث  
شاءت.. رميت ثوب المشاعر جانباً، وارتديت ثياب الجمود.. تقنعت  
بأقعة القوة مخفية ضعفي داخل روحي.. حتى لا يراه أحد.. وظل  
هناك في أعماق روحي حتى نسيت تماماً. أخذتني الحياة يا بيلا على  
حين غرة وطعنت «ياسميناً» الرقيقة في داخلي.. واستبدلها بأخرى  
جامدة.. تتحدث كالآلة.. تتحرك كالآلة.. تعيش كالآلة.. وكانت  
تنوي أن تتمرد على كونها آلة فقط عندما تموت كالإنسان.

لكن الليلة يا أمي حدث لي ما لم أتوقع أنه قد يحدث أبداً.  
لقد لمسني يحمي يا بيلا.. لمس جسدي فلم يحدث لي أي مكروه.  
لم أنزف يا بيلا.. هل تصدقين! لم أنزف ولم أفهم السبب.  
هل كان ذلك لأنه لمس روحي قبلها؟  
سأظل معه يا بيلا.. سأظل وراءه إلى أن أعرف السر..  
لكن.. ترى متى يمكنني أن أخبره بسرنا يا بيلا؟  
أحبك.. وأتمنى لو أراك مرة واحدة أخرى.

ابتكت المحبة: ياسميناً..



جلس يحمي أمامي في كافيته «the cave» بالمارينا وقال وكأنه يزيح  
عبثاً ثقبلاً من فوق كتفيه:

- اعلمي أنني رجل مستهلك. رجل لا يصلح للعلاقات. يجب أن  
تعرفي هذا جيداً.

وددت لو أعقب على كلامه وأسأله مباشرة «لماذا أتيت إذا؟»

لكنني أشرت إلى النادل وطلبت له قهوة، وطلبت لنفسني قهوة ثانية..  
ظل يحمي صامتًا الوقت طويل ينظر في شروء عبر نافذة المقهى الزجاجي  
إلى اليخوت المتراصة في نظام شديد بالخليج الصغير للمارين. لم أشأ أن  
أقطع عليه صمته وبقيت أتفحصه في فضولي وإن كنت أشعر أنه يراني  
بعين ثالثة لا أراها، قال بعد صمتٍ طويل دون أن يلتفت إليّ:  
- لكتتك مصرية تمامًا.

فرحت أنه قطع صمته أخيرًا وقلت في سرعة:

- قلتُ لك اليوم في الكامب إن جدتي كانت مصرية. كما أنني  
عشت في الإسكندرية سنين كثيرة.

جاء النادل ووضع القهوة على المنضدة واستأذن في أدبٍ رافعاً  
الفنجان الفارغ من أمامي.. بعد أن انصرف التفت إليّ يحمي وقال  
سائلاً:

- هل أعجبتك القهوة هنا؟ أرى أنها أعجبتك.

وأشار إلى الفنجان الثاني الذي طلبته.. فأجبت:

- نعم.. أعجبتني كثيرًا جدًا.. شكرًا على ترشيحك المكان.

ثم عاد لصمته من جديد، فأسرعت أسأل قبل أن أفقد الحديث  
معه:

- قال لي عارف إنك أستاذ للتاريخ القديم.

- لا ليس هكذا، مدرس مساعد.. أعني كنت.

- وفي أي تخصص في التاريخ القديم؟

- اللغات القديمة.. اللغة المصرية القديمة.

ثم تناول القهوة من أمامه ورشف منها في تلذذ.. نظر إليّ بعينه مرة أخرى وكانت له عينان قويتان.. حينما ينظر قبل أن يتكلم أكاد أشعر أنه سوف يخترقني بهما.. سأل يحبي:

- كنت أظنكم لا تشربون القهوة في المساء أبدًا. عندما كنت في لندن كان أصدقائي الإنجليزيون يعتبرون شربها خطيئة إذا تم مساءً. ابتسمت وقلت له رغم أنه ما زال ينظر إليّ بنفس العينين:

- تظننا! أنا لست أجنبية يا يحبي.. قلت لك إنني عشت في مصر نصف عمري تقريبًا.. كما أنني لست إنجليزية.. وعمومًا نحن نشرب القهوة في اليونان في أي وقت، فهي مشروب يوناني في الأصل، وهم أول من ابتكروها.  
ردّ متعجبًا:

- مشروب يوناني! حقًا؟ هذه أول مرة أعرف.

نظرت إليه لشواني ولم أستطع أن أكتفم ضحكتي العالية، ثم قلت له بين ضحكاتي:

- أنت بريء جدًا.. الكل يعرف أن القهوة من اكتشاف الأثيوبيين، وأول من صنعها هم اليمنيون.. كنت أمزح معك.

قال متصنّعًا الغضب:

- أنسخرين مني؟

- لا أقصد.. لكن ألسنت تقول إنك مختص في التاريخ؟

قال بسرعة مازحًا:

- أنا متخصص في تاريخ اللغات القديمة.. وليس تاريخ المشروبات الساخنة.

فعلت ضحكاتي أكثر.. ووجدت يحبني ينظر إليّ متأملاً وجهي وإن  
أضحك وسألني بعد أن انتهيت من الضحك:

- ما الذي تفعله جميلة مثلك وحدها هنا في الغردقة؟

ردت عليه:

- أنا لست جميلة.

اتسعت عيناه تعجباً من ردي، فتابعته قائلة وأنا أشير إلى الحاجز  
الأنفي بين عيني:

- لدي اعوجاج هنا واضح جداً.. ألا تراه؟.. لقد ورثته عن  
والدي بيلا وورثت هي مثله عن جدتي روز.

قال وهو يمعن النظر في وجهي:

- لا ليس واضحاً إلى هذا الحد، ويمكنك أن تقوم به بعملية تجميل  
بسيطة.. وما أكثرها.

- بالطبع لا، ما الذي يدفعني إلى ذلك، أنا أحب وجهي كما هو..  
كما أنني لا أفتنح بمبدأ عمليات التجميل من الأساس.  
- ولم ذلك؟

قلت وأنا أعندل في جلستي:

- أنا عامة ضد المبدأ، أحياناً أشعر أنها قد تظهر العيوب بشكل  
أكبر، تخيل أنك تعاملت مع جسد الإنسان كمنتج ولبس مخلوق  
يصبح حينها أول ما سوف تلمحه عينيك في هذا المنتج هو أصغر  
عيب فيه، حتى إنك ترى الشيء الطبيعي فيه وكأنه عيب.. بروز ما  
في غير مكانه.. شفاه رفيعة أكثر من اللازم. إحدى الأسنان تبدو أكبر  
مما يجاورها.. وهكذا.. كما أن السعي إلى إبراز جمال لا تملكه يبدو لي



نوعاً من الغش التجاري ليس أكثر، وأنا لست سلعة كي أسمى إلى  
إخفاء اعوجاج بسيط في أنفي.

بدا يجيى متبها تماماً لما أقول، وظل ينظر إليّ بتركيز شديد، ثم  
اشعل سيجارة وقال:

- أنفق معك في كل ما تقولين.. لكن لا أحد يفكر بتلك الطريقة  
الإنادرا، لكنك لم تجيبي على سؤالى إلى الآن.. ما الذي تفعله جميلة  
مثلك وحدها في الغردقة؟

عد إلى تكراره كلمة «جميلة» ووجدت فيه شيئاً من الغزل فابتسمت  
قائلة:

- كنت في أحد المؤتمرات مؤخراً في الإسكندرية، وكنت أحضر  
لبده مشروعى الخاص، وقررت أن آخذ إجازة طويلة قبل العمر  
الطويل الذي سوف يستهلكه مشروعى قبل أن يدر دخلاً.

وكان يحدق فيّ تماماً، وأحسست أنه يعلم أنني أكذب، وأحسست  
أنني أود لو أحكي له عني كل شيء.. أحكي له عن روز وبيللا  
والإسكندرية.. أحكي له عن محل الأزهار في «رودس» وعن فيليب..  
أحكي له عن واقعة الكوخ والتزيف الذي لا ينتهي.. وأحكي له  
عن زين.. وأحسست أنني حتى وإن حكيت له فسوف أحكي ما  
أشعر أنه يعرفه مسبقاً كلما نظر إليّ بهاتين العينين.. أصابتني عيناه  
بالمزيد من الارتباك فسألته محاولة أن أغير الأسئلة تجاهه وأنا لا أعلم  
عنه شيئاً بعد، وقلت:

- وما الذي يفعله متخصص في اللغات القديمة في كامب للسافاري  
في الغردقة؟

رد مباشرة:

- لا أعرف..

ولم يكن يجب يفض أو استياء.. كان يبدو صريحاً، مؤمناً برؤ  
المبهم هذا، وتابع:

- لكنني لن أرحل قبل أن أعرف لهذا إجابة.

ثم عاد إلى شروده في اليخوت بالمارينا مرة أخرى..

كان عدد الموجودين في الكافيه قد بدأ يقل تدريجياً وهذا الصخب  
المعتاد نوعاً، وبدأ صوت الموسيقى يأخذ مساحة أكثر.. وكانت  
«سيلين ديون» تشدو بأغنية when I need you.. نظرت لشرودي بحس  
وترددت كثيراً جداً قبل أن أقتحمه قائلة:

- هل أنت مرتبط.. أو متزوج؟ أعني.. لا أرى دبله في يدك!

ولا أدري كيف واثنتي الشجاعة كي أسأله هذا السؤال، لكني  
لم أكن أطيع صبراً في سؤاله.. لمست نفسي مباشرة عندما لم يرد على  
سؤالي وشعرت بإحراج شديد.. لكنه ردّ بعد قليل قائلاً:  
- كنت متزوجاً.

قالها في مرارٍ وحزنٍ شديدين.. ولم أشأ أن أقتحم خصوصيته أكثر  
لكنني تطوعت بأن أخبره عني وقلت:

- أنا لم يسبق لي الزواج من قبل.

فالتفت سائلاً بفضول:

- ولم؟ هل الزواج معقد في اليونان مثل بقية الدول الأخرى في  
الغرب؟

- الزواج ليس معقداً في الغرب.. على العكس.. إنه بسيط مثل كل  
شيء هناك، لكنه قليل بالطبع مقارنة بالشرق.

- وكيف لا يكون معقدًا؟.. ما أعلمه هو أن العلاقات تبدأ في أوروبا وأمريكا في سنين مبكرة جدًا.. لكن الزواج يكاد أن يكون نادر الحدوث.

- ليس نادرًا.. هو قليل جدًا مقارنة بالدول الشرقية كما قلت.. الفكرة أن الغرب صريح مع نفسه في كل شيء، وصريح مع الآخر أيضًا.. يمكنك أن تقول أنهم صرحاء في أنانيتهم بشكل كبير، والزواج يحتاج إلى شجاعة كبيرة وتضحيات كثيرة لا يقدمون عليها مثل المجتمعات الشرقية، لكنهم هنا كما لاحظت في الفترة التي عشتها بالإسكندرية.. يملكون قدرًا كبيرًا جدًا من الشجاعة.. لكن غالبًا ما ينقصها النضج.

وقال يحیی مؤتمناً على كلامي:

- أنفق معك أيضًا فيما تقولين؛ لذلك تكون حالات الانفصال والطلاق كثيرة جدًا.

طنت للحظة أنه يعني نفسه في كلامه، ومنعت فضولي بصعوبة في سؤاله عما يقصد.. وقلت:

- لكن حالات الخيانة منتشرة أيضًا في الغرب، وهذا شيء لا يمكن إنكاره. وهي تدل بشكل واضح على إصابتهم بالملل السريع من الالتزام في علاقة مستقرة لوقت طويل.

فقال يحیی في تحفز واضح:

- لكن ما ذنب طرفي أراد الاستمرار في علاقة رفض الآخر في متصفها أن يكملها.. ألا يجني من هذا كله سوى الألم من الحب والعلاقات؟

- العلاقات في رأيي لا تؤلم.. وكذلك الحب.. أعتقد أن ما يؤلم هو ما تظنه وقتها أنه حب بينما يكون مجرد رغبة في الاحتفاظ باحتياج شخص ما إلى وجودنا.

علق يحيى قائلا في تعجب:

- الحب لا يؤلم؟ لا يوجد ما يؤلم أكثر منه.

- لا أتفق معك.. فليس الحب هو ما يؤلم في نهاية العلاقة.. الرغبة في الاستحواذ هي التي تؤلم.. بينما الحب مفهومه أكبر من ذلك.

أخذ يحيى ينظر إليّ في صمت وبدأ وكأنه يراجع كلامي ويقلبه في رأسه.. ومالبث أن ابتسم قائلاً:

- قلبت لي ماذا تعملين؟

رددت مبتسمة وقد فهمت قصده:

- لا لست خبيرة في العلاقات وكل هذا العبث.. بل إنني فاشلة جداً فيها بشكل لا يمكنك تخيله.

- وماذا تعملين إذا؟

- استشارية للتسويق لدى بعض الشركات في الشرق الأوسط.

تبسم يحيى قائلاً:

- أها.. فهمت.. ولذلك نجيد تسويق كلامك جيداً.

فضحكت لقوله ورددت:

- ربما يكون كلامك صحيحاً.. لقد أضعت سنوات طويلة من عمري أكتسب خبرات كثيرة في كيفية بيع أي شيء للمستهلك دون أن يحتاجها.. وما أسهل الكلام بالطبع.

ظل يحيى ينظر إليّ نفس النظرة التي كنت قد حفظتها في عنب

طوال جلستي معه.. وأحسست وكأنه يحاول أن يقرأ ما في داخلي  
أكثر وأكثر وسأل بصوت جاء حائياً:

- لكنني أسألك فعلاً.. لماذا ما زلت وحيدة؟ واضح من كلامك  
أنك تؤمنين بالعلاقات المستمرة وتدعمين فكرتها.

أرجعني بسؤاله وهرب حزني من عيني وقلت:

- ما زلت أبحث عمّن لم يجدني بعد.

وعاد يجي لينظر إليّ لكنني شردت منه فيما مضى من حياتي  
ووجدتي الطويلة فيها منذ زمن بعيد.. وجاء النادل بعدها فوضع  
فاتورة حساب القهوة أمامنا وانصرف فقال يجي:

- يبدو أنهم يطردوننا بأدب.

قلت وأنا أخرج النقود من حقيتي:

- الوقت تأخر بالفعل لكننا لم نشعر به.. لقد اقترب منتصف  
الليل.

- ما زال هذا مبكراً جداً بالنسبة لي.. في القاهرة من الصعب أن  
يغلق المقهى أبوابه قبل الفجر.

ثم أشار بيده وأنا أخرج النقود قائلاً:

- اسحمني لي من فضلك.

فقلت:

- لكن أنا التي دعوتك.. إذاً أنا من أدفع الحساب.

- ألم تقولي إنك مصرية؟

وكان يتسم فلم أشأ أن أضايقه.. ولم أكن أرغب أن تنتهي الجلسة  
معه بهذه السرعة.. لم أتحدث مع رجلٍ هكذا بوذٍ منذ سنوات كثيرة

مضت لم أعد أذكر عددها.. وكان هناك مقهى لم يغلق أبوابه بعد..  
وبه عدد من الزبائن يبدو أنهم يسهرون لبعض الوقت.. أشرت لى  
يجبى ألفت انتباهه إليه وقلت:

- إن لم تكن متعجلاً؟.. فهناك مقهى..

ولم أستطع أن أضيف وقلت في نفسي ربما كان مثلي لا يريد أن  
يذهب لكنه نظر في ساعته وقال وهو ينهض بعد أن وضع النقود:  
- الوقت تأخر فعلاً.. ما زال أمامي طريق طويل للكاتب.

قلت بإحباط:

- على راحتك.

- أين تقيمين بالغردقة؟

- في النزول الليبي.. عندما جئت كنت أسكن في فندق الواحة لكني  
اكتشفت أن إقامتي سوف تطول، وجدتني قد أنفق ثروة على الفندق  
فاستأجرت أستديو صغير في النزول الليبي.. أتعرف مكانه؟  
قال:

- بالتأكيد.. إنه قريب جداً.. تعالي أوصلك إليه.

فرحت بشدة من عرضه وتأكدت أنه كان يود لو تطول جلستا  
مثلي تماماً.. حاولت أن أخفي فرحتي وبادرت بسؤاله:

- وأنت.. كيف ستعود إلى وادي حبيبة في هذه الساعة؟

- التاكسيات هنا لا تنام.. أنا زبون لقطة لأي سائق تاكسي في هذه  
الساعة.

ثم ابتسم وسرنا متجاورين على الممر الخارج من المارينا ومنها إلى  
الشارع.. حتى توقفنا مجبرين أمام الممر المحفور أرضاً بطول الشارع

والذي كان يضايقني عبوره كلما جئت هنا، وكانت الإصلاحات فيه لا تنتهي أبدًا.. وقال مجبى:

- انتظري..

وعبره برشاقة الى الجهة الأخرى، ثم مدّ يده إليّ قائلاً: «لا تخافي، ولم أكن خائفة لأنى أعبره يوميًا تقريبًا، لكنني كنت أنظر في عينيه عندما سحبني وكدت فعلًا أن أسقط في الممر المحفور لكنه أمسكني بقوة وضمنني إليه قبل أن تنزلق قدمي، وضحكت رغماً عني، ثم رحنا نتمشى في الطريق الرئيسي المؤدي في نهايته إلى سكني ولم أشعر بنفسى وأنا أقرب منه شيئًا فشيئًا وكأن به ما يجذب جسدي كي التصق به.. حتى صرنا متلاصقين تقريبًا وودت لو يضع يده حول كتفي ويضمنني إليه ونحن سائران مثل عاشقين.. ثم انتهت فجأة وتذكرت أنه أمسكني من يدي وضمنني إليه عندما كدت أقع في الحفرة أمام مدخل الماريننا ولم يحدث لي شيء.. حتى إنني توقفت في الشارع من شدة المفاجأة وسألني متعجبًا: «ما بك؟» فقلت كي لا يفرع من فعلي: «لا شيء.. لا شيء» وتسارعت ضربات قلبي وأسرعت بدني تنحس أنفسي وشفتي وكانتا طبيعيتين.. فتعجبت. وكنا قد اقتربنا من مكان سكني، وكان يحبى ما زال يتكلم عن التغيير الكبير الذي حدث في الفردقة في السنوات الأخيرة لكنني لم أكن متبهة لأي شيء مما يقول، وكانت فكرة واحدة تسيطر على رأسي وتحتل تفكيري كله. حتى لم أعد أطيع صبرًا فتوقفت فجأة وقلت له:

- هل تسمح لي أن أجرب شيئًا.. لكن لا تفهم أي شيء خطأ.

فردّ في عدم فهم:

- ماذا تريد أن تفعل؟

فامسكت يده ووضعت فيها يدي وابتسمت له قائلة: «هذا،  
ثم سرت.. فابتسم وسار جوارى، وظلت كفي في كفه، ولم يمانع وإن  
ظل متعجباً مما فعلت.. وأخذ قلبي يقفز في خفقانه وتسارع تنفسي،  
وكنت أضع يدي الأخرى كل لحظة أتحسس شفتي وأنفسي.. لكنني  
بقيت طبيعية ولم يحدث لي شيء..!»

وشبكت أصابعي في أصابع يحيى وأخذت أضغط بها في رفق،  
وكدت أن ألقى نفسي بين ذراعيه.. لكنه بعد فترة قليلة وجدني  
يسحب يده في رفق وكنا قد اقتربنا أمام باب النزل.. وودت لو  
تركت يدي معه إلى الصباح كي أتأكد، وقال عندما وصلنا إلى المبنى:

- أظن أننا وصلنا.. أليس كذلك؟

فقلت وأنا أشير إلى نافذة مضيئة في الدور الثالث بالمبنى:

- نعم.. هذه هي غرفتي.. النافذة الوحيدة المضيئة هناك.

- أنسيبت إضاءتها؟

- لا لم أنس.. دائماً ما أفعل ذلك إذا خرجت ليلاً.

وابتسمت في خجل وأنا أتابع:

- لا أحب أن أدخل غرفتي فأجدها مظلمة.

فابتسم ولم يقل شيء فسألته:

- هل ساراك ثانية؟

سكت طويلاً ثم تنهد قائلاً:

- أتمنى أن نلتقي ثانية.. لكن يجب أن أؤكد عليك مرة ثانية..

فقلت مقاطعة:

- أعلم أعلم.. إنك لا تصلح للعلاقات.



وتابعت في خفوت يكاد أن لا يُسمع:

- ولا أنا أيضًا.. سوف نكون صديقين وهذا يكفيني.. ليس لي من أحدهنا.. ولا في مصر كلها.

وتبادلنا أرقام هواتفنا، وانصرف يحبي وأسرعت إلى غرفتي كي أكتب إلى بيلا.



دخلت من البوابة وكان حارس العقار نائمًا كالعادة ودخلت إلى المصعد متجهة إلى الدور الذي أسكن فيه.. نظرت إلى وجهي في المرآة أفنقده، وأخذت أسأل نفسي هل كنت أبدًا جميلة هكذا كما رأيي يحبي؟ أم أنه كان يجاملني.. ونظرت إلى أنفي في المرآة بدقة، وأخذت أفحصه ووجدت أن الأعوجاج كان طفيفًا جدًا.. لكنه واضح لي لكوني أعرف بوجوده.. وسألت نفسي: هل أحتاج فعلًا إلى جراحة لتفويمه؟ وابتسمت وقلت لنفسي: «وأنا التي كانت تعترض على عمليات التجميل».. لكن ظهور يحبي المفاجئ هذا جعلني أرغب حقًا في أن أبدو أكثر جمالًا.

دخلت الاستوديو، وكنت أشعر ببهجة غير عادية.. وفور أن صرت وحدي أحسست أنني أفنقده بشدة.. أخرجت الهاتف لأؤكد من أنني حفظت رقمه على الهاتف فعلًا، ولما وجدت أنني حفظته وكان اسمه أمامي، أحسست أنني أرغب في محادثته.. لكنني ترددت. وفي النهاية أرسلت إليه قائلة: «من فضلك.. طمئني عندما تصل.. باسمينا» ودبالتها باسمي مخافة أن لا يكون قد قام بتسجيل رقمي.

فمت إلى مشغل الأغاني وبحثت فيه حتى وجدت بها أغنية «سيلين ديون» التي كانت تشدو بها في الكافيه.. وأعدت تشغيلها

وارتميت على الفراش أفكر في يحيى وأسترجع كلامه.. وأخذت أنساء لماذا يكون قد انفصل عن زوجته؟.. وهل كان يحبها؟ أم أنه كما ذكر ونحن نتحدث عن زواج الشرقيين، كان قد تزوج دون حب ودون نضج كاف؟ ثم عدت أنذكر شكل عينيه وهو ينظر إلى وجهي ويتفحصني كلما تكلمت.. وشكلها وهما تفتحان روعي كلما نطقت بشيء.. وكان فيهما عمرٌ كبيرٌ أكبر مما تبدو عليه هيأته. وقلت لنفسي ترى كم يكون سنه؟ وقدرت أنه في الغالب لم يتخطَّ الأربعين بأية حال.. رغم الخصلات البيضاء التي كانت تغزو جزءاً كبيراً من شعره الطويل.. والذي لم يصفف معظمه وتركه نائراً حول رأسه.. فبدالي أكثر وسامة ورجولة.. ووجدتني تنهدت في حب وأخذت أنظر إلى سقف الاستوديو وقد قاومت رغبة جديدة مليحة في سماعي لصوته.. حتى جاءتني رسالة قصيرة منه بعد قليل على الهاتف كتب فيها «وصلت.. شكراً لك» ففرحت أكثر من رده عليّ، وكدت أقوم لأرقص.. وفكرت أن أحادثه لكنني خفت أن أكون لحوحة فكتبت له رسالة أخرى أشكره على قدومه لكنني لم أرسلها حتى لا يظنني مراقبة ترصده.

أحضرت أوراقني وكتبت إلى «بيلا» أحكي لها عنه وعن مقابله.. ثم عدت إلى فراشي أستعيد كل ما مرَّ بي منذ ما حدث مع فيليب في الكوخ أمام البحر في «رودس».. ولم أجد إجابة واحدة عن الاستثناء الغريب الذي حدث مع يحيى.

\*\*\*

علمت من فيليب أنه فور سقوطي أمامه في الكوخ فزع وأسرع إلى أول مستشفى.. وبقيت فاقدة للوعي بعدها لمدة ساعتين. كان قد

حضر فيهما أبي وتشاجر مع فيليب ومع الطبيب الذي أخبره أنه لا يوجد تشخيص مبدئي لحالتي بعد. فقط قاموا بتعليق بعض المحاليل للمحافظة على ضغطتي من الهبوط الحاد نتيجة لنوبة النزيف الغريبة هذه. ثم سحب الطبيب بعض العينات من دمائي لإجراء بعض الفحوصات في محاولة منه لمعرفة سبب النزيف المفاجئ، وكان أبي ينتظر إليّ في خوف ممزوج بعتاب شديد فأشرت إليه أن اقترب.. وهمست في أذنه «لم يفعل فيليب معي أي شيء.. أقسم لك.. ما زلت عذراء».. فاضطرب وجهه وأبدى استياءً شديدًا من كلامي واحتضنتني قائلاً: «لم أفكر في أمرٍ مثل هذا قط».. لماذا تظنين ذلك؟»

لكنني كنت أعلم بالتأكيد أول شيء سيدور في رأسه.. فهو من أهل «رودس» ومعظم سكانها كانوا لا يزالون من العائلات المحافظة في أوروبا.. سألته عن أي شيء قد أخبره به الطبيب فردّ نافيًا. وفي نهاية اليوم. وبعد إجراء عدد كبير من التحاليل جاء الطبيب وسألنا إن كان قد مرّ أي أحد في عائلتي بأمر مشابه.. فأخبرته أنني أجبت على نفس السؤال عدة مرات وقلت إنني لا أعلم.. فقد ماتت أمي بيلا من نزيف شديد مفاجئ لم نعرف له سببًا.. وامتقع وجه أبي عندما أتيت على ذكر بيلا.. وخاف أن يكون ما مر بي له علاقة بمرض أكون قد ورثته منها وأن ألقى نفس مصيرها المحزن.. وفي نهاية الأمر قال الطبيب:

- تحت أي ظرف ومهما كانت الأسباب.. في الغالب هي حالة مورفيليا.

سأله والدي مفسرًا عما يقوله فقال له الطبيب مفسرًا:

- هذا مرض وراثي يسبب نوع حاد من سيولة الدم.. عوامل التجلط المسئولة عن إيقاف النزيف في حالات الجروح أو الإصابة

بكدمات أو كسور تكون غير موجودة.. ولا يستطيع الجسم أن يسيطر عليها.. وقد يظل المريض بنزف لوقت غير محدد.  
خفت بشدة مما يقوله فسألته:

- لكنك تقول إن هذا يحدث نتيجة إصابة بجروح أو كدمات..  
لكنني لم يحدث لي أي شيء.. لقد بدأ التزيف وحده دون مقدمات أو أن  
لأسباب مم قد ذكرتها.

- أعلم ذلك.. لكن التحاليل التي أجريتها لك تؤكد أن  
لديك نقصٌ حادٌ في عوامل التجلط التي تكون ناقصة في حالات  
الهيموفيليا.. ربما حدثت لك كدمة خفيفة دون أن تشعر.. ربما كانت  
حالتك نوعًا نادرًا من الهيموفيليا لكنها في النهاية وطبقًا للتحاليل  
التي أجريتها.. هي حالة هيموفيليا.. وسوف تظلين معنا لمدة ثلاثة  
أيام لتلقي العلاج الخاص بهذا المرض، وقبل خروجك سوف نقوم  
بإعطائك بعض الإرشادات الخاصة بالتعامل مع مثل هذه الأعراض  
متى تكرر ذلك.. وهو أمرٌ وارد بالتأكيد.

وبعد أن انتهى الطبيب من شرح حالتي لي ولأبي، وقبل أن ينصرف  
سألته في خوف قائلة:

- هل هي حالة خطيرة؟

فردّ بلهجة تقريرية وكأنه آلة:

- كان هذا فيما مضى يُعد مرضًا قاتلاً وليس له علاج معروف..  
أما الآن بعض البلازما وعوامل التجلط تنهي المشكلة.

ثم تابع وهو يضغط على آخر كلماته:

- تنهي المشكلة بشكل مؤقت.. لكنك ستظلين عرضة لها في

أي وقت.. لذلك لن نسمح لك بالخروج قبل اطلاعك على كافة الإرشادات الخاصة بحالتك.

ثم استاذننا وانصرف ولم أفهم منه مدى خطورة حالتي.. سألت أبي عن فيليب فأخبرني أنه ينتظر بالخارج.. وطلبت منه أن يناديه.. فجاء ووجهه باهتًا من الأمر.. وخرج والدي ليتركنا على راحتنا.. فقد كان رغم كل شيء يشجع علاقتي معه لكونه من أهل «رودس» مثلنا.. ومن العائلات المعروفة فيها.. وكنت قد علمت من «بيلا» في مرة أنه كان يخشى عليّ ونحن في الإسكندرية أن أتعلق بأحد الشباب المصريين قبل أن نعود.

جذب فيليب مقعدًا حول الفراش الذي كنت أرقد عليه وحاول أن يتسم في صعوبة شديدة وقال وهو يمسك بدي ليطمئنني:  
- لا تقلقي.. سيكون كل شيء على...

ثم قطع كلامه فجأة وخرج مسرعًا يستدعي التمريض.. وكان التزيف من أنفي قد عاد يهاجمني ثانية.

مكثت لأسبوع كامل في المستشفى، وخضعت لعدد آخر من الفحوصات والأشعة.. لكن لم يجدّ جديد، وأصر الطبيب وطبيب آخر مختصًا في أمراض الدم على نفس التشخيص.. وخرجت عائدة إلى منزلي مع والدي.

ظللت راقدة في منزلي ليومين آخرين، وكنت قد حفظت كل الإرشادات التي أخبرني بها الطبيب في المستشفى يوم عودتي.. وحرصت على تناول أدويتي بانتظام.. وفي اليوم الثالث وبعد إلحاح شديد على والدي عادت إلى محل الأزهار.. ولم أقبل أن أكون ملازمة للفراش مثل الموتى لمجرد أنني نزفت بعضًا من الدماء.

جاء فيليب ومعه باقة كبيرة من الأزهار وضعها أمامي على المكتب الصغير في محل الأزهار.. وأخذ يحمسنني على دخول الامتحانات وعدم التحجج بموضوع التزييف هذا.. وقد كنت أفكر جدياً في تأجيل الامتحانات لعام آخر ومع أول قبلة وضعها فيليب على جبهتي وهو يحتضنني عاد التزييف من أنفي مرة أخرى وأدركنا نحن الاثنين ساعتها أنه لا يحدث إلا عندما يقوم بلمسي.. وكان التزييف بسيطاً تلك المرة، وأسرعت بوضع أكياس الثلج الصغيرة التي كنت أحتفظ بها في مبردٍ بالمحل تحسباً لأي نوبة قد تأتي.. وقال فيليب «أنا لا أفهم شيئاً» فطلبت منه في هدوء أن يرحل.. وكأنه كان ينتظر ذلك.. فرحل دون اعتراض.

هربت من خوفي مم يحدث إليّ بالإفراط في المذاكرة ومحاولة تجاوز الامتحانات بأية طريقة.. ونجحت في ذلك رغم ما مرّ بي.. وبعد انتهاء الامتحانات عدت إلى عملي بمحل الأزهار وقد تبقت أمامي فترة قليلة لجمع ما أريد من مال تجهيزاً لفترة الجامعة.. ولم يحاول فيليب التواصل معي مرة أخرى بعد ما حدث لي في المرة الأخيرة. بدأت تصل إلى أذني أحاديث متناثرة عن فتاة رودس الملعونة.. والتي تنزف دمًا فور أن يلمسها حبيبها.. وكان ما يشغل بالي في وقتها هل الموضوع متعلق بي أم بفيليب.. ولم أجروء على اختبار ذلك فترة تواجدني في «رودس».. وإن كنت أعلم أن الموضوع يخصني وحدي.. فقد كان فيليب قد أخبرني عبر علاقة سابقة له مع إحدى الفتيات في الجزيرة قبلي ولم يأتِ على ذكر أي شيء غريب بخصوصها.. لكنني منيت نفسي كذباً أنه ربما كان قد أخفى علي الأمر.

رحب والدي بانتقالي للعيش في سكن الجامعة في أثينا خاصة بعد

انتشار حكايتي بين سكان رودس وبين جيراننا جميعًا. وكانت الحيرة في البداية هي المفاضلة بين جامعتي «أرسطو» في «سالونيك» وبين جامعة أثينا.. وكانت النفقات ستكون أكثر بالطبع في جامعة أثينا لكنني كنت أعتقد أنها ستوفر لي فرصة أكبر للعمل عن سالونيك.. فحسنت أمري وتقدمت بأوراقتي إلى جامعة أثينا للدراسة بكلية الاقتصاد فيها.. وانتقلت إلى العاصمة تاركة «رودس» وما حدث فيها وراء ظهري.

تركنت نفسي للجامعة وللدراسة فيها تحتظفني من أول يوم.. والتحقت للعمل كنادلة بأحد المطاعم الإيطالية بعد شهر واحد من بداية الدراسة.. وكنت آخذ حذري تمامًا وأتجنب الاحتكاك الجسدي بأي شخص في محيطي، إلا أنني بعد فترة كنت قد كدت أن أنسى أو أتناسى ما حدث مع فيليب.. ووجدت أن الأمر عادي.. وسلمت بأنه كان حدثًا غريبًا عارضًا وغير مفهوم.. وصرت أتعامل مع الجميع ببساطة ولم يكن الاحتكاك الجسدي أو السلام أو المزاح مع زملائي في الجامعة يسبب أي مشكلة.. وكنت أداوم على أخذ علاجي من «فيتامين ك» بجرعات منتظمة.. وأحسست أن المشكلة قد انتهت وأني كنت واهمة.. وكتبت إلى «بيلا» أطمئنها على حالتني.. لكن عندما انجذبت لأول زميل لي في الكلية.. وسمحت له أن يقبل يدي ونحن جالسان في إحدى الحدائق العامة في أثينا أمام بحيرة صناعية صغيرة بالمتنزه.. وبمجرد أن أمسك يدي وقربها إلى شفتي حتى أحسست بخيط الدماء الدافئ وهو ينساب من أنفي وفوق شفتي فقممت فورًا وهربت عائدة إلى غرفتي بالسكن الجامعي.. وبقيت أبكي طيلة الليل وقد تأكدت من أنني ملعونة.

ذهبت إلى العديد من الأطباء في أثينا، وبعد ذلك بسنوات أطباء في إيطاليا وألمانيا، وكان الجميع يطلب الفحوصات نفسها.. ويشخص نفس المرض؛ «الهيموفيليا».. لكن لم يستطع أحد أن يفسر لي لماذا لا يبدأ التزيف إلا عندما يلمسني رجل؟.. وعندما أكون قد ملت نوعاً إلى هذا الرجل.. ولماذا يبدأ دون جرح؟ وقال طبيب عجوز ذات مرة أن ما يحفز تكسر الدم ويحد من تخثره من المستحل علمياً أن يكون عاملاً نفسياً.. فبنست ورُحِت أبحث في الكتب العلمية والطبية.. وبحثت في كتب التاريخ.. حتى رحت أبحث في الأساطير والخرافات التي تمتلئ بها بلدي.. ولم أجد بين كل ما قرأت أي شيء له علاقة بما يحدث لي. وعندما تخرجت من الكلية كنت قد استسلمت لحقيقة مُرة.. وهي أنني سوف أقضي ما بقي لي من عمري وحيدة دون رفيق.. وحتى أموت.

دفت نفسي أكثر وأكثر في دراسة الاقتصاد.. ومنه إلى التسويق، برعت في علومه.. وتفوقت على الكثيرين.. صار لي مع الوقت اسمٌ معروفٌ لدى الشركات الكبرى.. وصرت أُطلَب بالاسم من أصحابها.. ولم يعد لي مكان واحد أعيش فيه.. ولم أستقر في بلد واحد أكثر من عامين.. تنقلت بين البلدان كما تنقلت بين الشركات الكبرى وحينما كان يتقرب مني أحدهم كنت أهرب مختبئة داخل كي لا أتعرض لأي خطرٍ قد يهدد حياتي مرة أخرى.. وإن كنت قد اعترفت لنفسي بين انكساراتي في وحدتي أنني شبه ميتة بهذه الطريقة. في العامين الأخيرين كنت قد اكتفيت من العمل لدى الشركات.. واتخذت قراراً بأن أنشئ مشروعاً خاصاً.. وقد اكتسبت خبرة كبيرة في مجال إنشاء الشركات والعلامات التجارية الكبرى.. وكان



حلبي الوحيد الذي تبقى لي هو خلق علامة تجارية تخصني في مجال العطور.. كان تعلقي بمحل أزهار بيلا لم يتركني ليلة. وفكرت أن أطور منه وأنشئ علامة تجارية قوية للعطور تنافس العلامات التجارية الكبرى الموجودة.. والتي أعمل أحياناً على طرق التسويق الخاصة بها في الشركات التي أعمل لديها.. وكنت قد جمعت من المال ما قد يكفي لبداية مناسبة.. واستقرت خطتي على أسهل الأسواق للغزو في العالم.. وهي الأسواق العربية.

قضيت أولاً ثلاثة أشهر في مدينة دبي ما بين تلقي عروض للشراكة من بعض المستثمرين الذين تحمسوا للفكرة، وآخرون تحمسوا للمغازلة فقط دون أن يعلموا أنهم لن ينالوا شيء من ورائتي في النهاية.. لكن هدي في الأساسي كان دراسة السوق وليس البحث عن مساهمين؛ فقد كان الأهم بالنسبة لي هو امتلاك المشروع وإدارته بشكل مستقل قبل ضمان نجاحه.. كنت اتقبل فكرة الفشل وخسارة مالي فقد كنت أتعامل مع كل الأشياء منذ تقبلت لعتي وتعايشت معها على أنه لا يوجد لدي شيء قد أخسره.. وانتهى بي الأمر إلى مؤتمر في مدينة الإسكندرية عن السوق العربية وطرق الاستثمار فيها.. وكنت لم أزرها منذ تركتها آخر مرة مع بيلا، وكان وقد مضى على رحيلي سنواتٍ طوال.

منذ اليوم الأول في الإسكندرية علمت أنها ليست كما تركتها أبداً منذ سنوات. هبطت الطائرة في مطار برج العرب.. ومنها إلى سيارة مستأجرة أخذتني إلى فندق «سيسل» في محطة الرمل.. استرحت لساعة واحدة وقررت أن أخرج لأتفقد مدينتي الأولى التي قضيت فيها سنوات خالية من التزيف.. وكان الزحام الشديد هو أول ما لاحظته..

لكنه لم يكن أول ما ضايقني. أحسست طوال الوقت أن به شيئاً غريباً.. الكل يقتحم حركتي بفضول مزعج.. يحاوطني العابرون بنظراتهم وتطفلهم المؤذي وكأنني كنت أسير عارية في الشارع.. لا تبهط من على جسدي نظرات الجالسين على المقاهي أمام الكورنيش إلا بعد أن أبتعد.. حاولت أن أسترجع ذكرياتي في هذه المدينة وقت أن كنت أعيش بها.. واكتشفت أن شيئاً كبيراً قد تغير فيها.. حتى رائحة البحر أحسست أنها قد تغيرت وليس الناس فقط.. ووجدت أنني لن أستطيع أن أسير في الشارع دون سيارة خاصة. فاستأجرت واحدة لكنني لم أستطع أن أتحرك بها في الطرقات وكل من حولي يسبني.. ويسب الآخرون بعضهم بعضاً.. واضطرت إلى استئجار سائق مع السيارة.

بعد يومين من وجودي في الإسكندرية هزم حنيني ترددي وذهبت إلى فيلا «أنطوان» ولم يكن لدي أي توقعات عما قد حدث له بعد أن تركناه جيداً منذ سنوات.

في البداية لم أستطع أن أتعرف على المكان، فقد تغير تماماً.. ووجدت لافتة كبيرة على البوابة الحديدية الكبيرة للفيلا وقد كتب عليها «دار أنطوان للمسنين».. واختلج قلبي وكادت عينايا أن تنمعا وأنا أدخل المكان الذي كبرت فيه.. وعلمت من الإدارة بالداخل أنه توفي بعد سفرنا بسنة واحدة.. وتبرع بالفيلا لإحدى الجمعيات الخيرية.. وخرجت من المكان وكلي أسى وأنا أذكر أنطوان وهو يعلمني الشطرنج ويحككي لي عن جدتي روز.

ذهبت بالسيارة بعدها عائدة إلى الفندق، وفي الطريق لمحت على ناصية أحد الشوارع سيارة صغيرة تقدم وجبات سريعة فنذكرن

رحلتي مع بيلا للبحث عن «زين» وطلبت من السائق أن نذهب إلى منطقة بحري، وتمنيت ألا أكون قد نسيت المكان تمامًا بعد كل هذه السنوات.. وفي شارع قصر التين قطعنا الطريق مرتين، وكان هذا هو آخر ما أذكره عن المكان فقد كنت صغيرة فعلاً ولم يكن قد انطبع في رأسي سوى أن الشارع موجود قبالة البحر في هذه المنطقة.. لكنني في المرة الثالثة وجدت عربة الساندويتشات المكتوب عليها «أكل بحري» على رأس الشارع الذي كان فيه المنزل.. وتذكرتها فوراً.. ووجدتها كما كانت منذ سنين لم تتغير.. حاول السائق الدخول من زاوية كبير إلى الحارة الصغيرة التي كان فيها منزل «زين» لكنه لم يستطع.. فطلبت منه أن يسبقني ويتظرنني على ناصية الشارع جوار عربة الساندويتشات.. تردد السائق وقال لي إن المكان غير آمناً للتجول فيه ليلًا.. فأصررت.. ثم طلب أن ينزل معي فطلبت منه أن يمد مكاناً يصلح لركن السيارة فيه ثم يوافيني أمام مقهى صغير كان موجوداً جوارنا.. ربما أحاول التعرف على المنزل أو أسأل عنه.. وقد كانت ذاكرتي قد استنزفت كل ما كنت أعرفه عن ذلك اليوم مع بيلا.

نزلت من السيارة وسط تعجب السائق ودخلت إلى الحارة الصغيرة.. وكان بها عدد لا بأس به من المنازل وقلت لنفسي سأحاول.. وكان الموضوع به شيء من المغامرة لم أستطع أن أقاومه. كان صبية صفراء يلعبون الكرة في الشارع توقفوا فور أن رأوني.. ونظر إليّ شاب شكله نحيف كان يعبر أمامي أخذ يبطئ من خطواته تمامًا حتى أحسست أنه توقف، ووجدت أنني قد تهورت في دخولي وحيدة كما قال السائق منذ قليل.. وكان شيخ عجوز يجلس أمام المنازل على الرصيف ووجدت الشاب المريب يقترب فخفت

وانجهت إلى الشيخ العجوز وقلت له «لو سمحت» فالتفت إليّ  
تثاقل، فسأله:

- هل تعرف أحد يعيش هنا اسمه زين؟

نظر إليّ وقد أخذته المفاجأة وأخذ يتفحص وجهي ثم قال:

- أنا زين؟ أ تكونين أنتِ ..

ولم أصدق أذني فصحت :

- أنا ياسميننا .. ياسميننا بنت بيلا .. هل تعرف أمي؟

\*\*\*

(٥)

## يحيى

نظرت إلى ساعتى وكانت ياسميناً قد تأخرت.. ولم يكن هذا طبعاً لها، ثم نظرت إلى مرآة الغرفة للمرة الثانية هذا الصباح، وكانت زينب كالمرّة الأولى ساكنة داخلها لكن في هدوءٍ وسكونٍ.. لم تكن حزينة أو سعيدة، ولا حتى بدت مرتبكة كالليلة التي قابلت فيها ياسميناً.. وقد بقي وضع زينب كما هو في المرأة وفي الغرفة وفي الجبال وفي رحلات السافاري للفترة السابقة.. منذ سهرت مع ياسميناً للمرة الأولى في المارينا منذ ثلاثة أشهر تقريباً.

ثلاثة أشهر نلتقى أنا وياسميناً بشكل يومي.. إما أن تمر عليّ هي في الكامب فنخرج نتمشى حول الكامب وقد صار الجميع هنا أصدقاء لها.. وإما أن أذهب أنا إليها في الغردقة.. ونذهب إلى المارينا أو نتجول في المدينة.. وكانت تلح عليّ في تعلم القيادة حتى يسهل عليّ الحركة بين الكامب وبين المدينة.. لكنني كنت أرفض دائماً.. وكنت أنظرها اليوم منذ الرابعة عصرًا كي لا تتأخر على العرس. لكنها وللمرة الأولى منذ التقينا تأخرت عليّ.

في الليلة السابقة كنا نسهّر سويًا في المارينا كعادتنا.. وقد صار

الجو باردًا جدًا في الكامب ويصعب الجلوس فيه لفترة طويلة وقد بدأ ديسمبر منذ أيام.. وكنا جالسين في نفس الكافيه والذي التقينا فيه للمرة الأولى.. وقد حفظ العاملون في المكان وجوهنا وطلبائنا المكررة. وكنا لا نتوقف عن الكلام. ولم نعتد في حديثنا أن نتكلم عنها أو عني، كان العالم دائمًا هو محور حديثنا. لم نحاول ياسميننا اقتحامي كما توقعت. بل تركتني أذوب يومًا بعد يوم أمامها حتى اعتدت وجودها في يومي وألفته، ثم صرت أفقده إن غابت، ولم نحاول أن تخفي انجذابها لي قط. وكان شيئًا ما في عينيها وهي تنظر إلي وأنا أتحدث أو ونحن صامتين يطمئنني إلى انجذابها وتعلقها. كان شيئًا أكبر من الرغبة وأنقى من الغريزة.. وكأنه شيء مقدس لا يحق لي أن أصده أو أرفضه. بينما جاهدت بصعوبة أمامها طوال الأشهر الثلاثة الماضية كي لا تشعر بانجذابي لها، وكنت قد انقلب حالي وصار فهمي لنفسي وما يدور داخلها لغزًا كبيرًا لم أسع إلى محاولة إيجاد حل له.. كي لا ينطفئ من روحي المزيد.

صارت أيامي غريبة وليالي أكثر غرابة. أستيقظ نهارًا على حلم حزين مع ميريت. ثم أتناول قهوتي الصباحية وأنا أفكر في أيامي الأخيرة مع زينب. ويقطع شرودي اتصال من ياسميننا لتخبرني بقدمها أو تطلب مني الذهاب لها فأبتهج ويغمري الفرح لقدمها. أظل أفكر وأدخن في شراة وأقضي الليل أناجي جدي سليم عاه يملك إجابة لم يقلها بعد. لكنه يظل صامتًا. وإن كان يسم مؤخرًا في أحلامي، وصارت صور زينب لا تفارق كل ما حولي. لكنها تخفي تمامًا فور أن تظهر ياسميننا. ولم أكن أرى زينب بعدها غاضبة. لكنها لم تكن سعيدة أيضًا وبدأت أشعر أنها مترقبة لشيء سوف يحدث.

وطال تفكيري في زينب وطالت سهراتي مع ياسميننا. قالت ياسميننا  
بالأمس ونحن ساهرين:

- الغردقة هي الحل الأمثل للحياة في مصر.

سألتهما مستفسراً:

- ولماذا الغردقة فقط.. هناك شرم الشيخ أيضاً، وطابا، ودهب،  
وهناك الإسكندرية.. لماذا الغردقة تحديداً؟

- لو كنت عشت في «رودس» لفهمت قصدي.. ولو كنت فتاة  
لفهمت أكثر. الغردقة تبدو وكأنها قرية نظيفة هادئة. ليست صاخبة  
مثل شرم الشيخ. أو مهجورة كطابا.. كما أنها تخلصت من عُقد  
الشارع المصري الأخيرة المبالغ في الفضول والافتحام.. محتفظة أيضاً  
بنوع من التحفظ يجاور التحرر لا يتركه وحيداً.

- التحفظ.. هنا في الغردقة؟

- نعم.. ألم تلاحظ الحارس في النزل الليبي عندما كنت تزورني في  
البداية وتوصلني يوميًا، لقد كان يرشقك في شك دومًا، ولم يكن على  
وده الحالي.

- لم أظن الأمر بتلك الصورة.. أنا عامة قضيت معظم الأيام في  
الكامب، ولم أقض وقتًا طويلاً في المدينة.. رغم أنني أحببتها فور  
قدومي.

- هذا أمر أتعجب منه دومًا.. لماذا لا تقيم في المدينة؟ رحلات  
السafari في الكامب قليلة جداً.. والفندق الذي يتبعه الكامب أكثر  
راحة لك.

- أجد راحتي أكثر في الكامب. ربما كان السبب هو الصحراء

والجبال. كان سباستيان صديقي القديم يقول لي دائماً إنني أيسرُ  
للصحراء لا المدينة.

هزت رأسها في تعجب ثم طلبت قهوة لنفسها مرة أخرى  
وسألتني إن كنت أرغب في المزيد منها فقلت:  
- أصبحت تشربين القهوة كثيراً في الأيام الأخيرة.

ابتسمت قائلة:

- وجردك يدفعني للقهوة.. أحب أن أشربها معك دوماً.

ورمقتني بعينيها الجميلتين منتظرة ردي على جملتها، وقبل أن أنكر  
في رد عليها جاء أحد العاملين في الكافيه ووضع قبالتنا لافتة كبيرة  
تعلن عن قدوم إحدى الراقصات لاحتفال ليلة رأس السنة للعام  
الجديد. وكانت معظم الكافيهات والبارات في المارينا تقدم مثل هذه  
العروض في تلك الليلة استقطاباً لمزيد من السائحين الذين يستمتعون  
كثيراً بمشاهدة الرقص الشرقي.. هاجمتني ذكرى ميريت فوراً  
رأيت الإعلان، وتكدرت روحي رغماً عني وظللت شاردة لفترة ولم  
أنتبه لياسميننا وهي تحادثني لأكثر من مرة، وبعد أن أنهت قهونها  
عرضتُ عليها أن نقوم لتمشى في المارينا أو في أيٍّ من شوارع المدينة..  
ولم تعترض.

قمنا وتأبطت ياسميننا ذراعي كعادتها. وكانت تفعل هذا دائماً  
كلما رحنا نتمشى. وكنت ألاحظ أن ياسميننا تعتمد دوماً أن يلتصق  
جسدانا قدر ما استطاعت.. بينما كنت أحاول دائماً أن أحافظ على  
مسافة بين روحيها قدر ما استطعت، لكنني كثيراً ما كنت أفضل في  
ذلك؛ ففي البداية كنت أخاف على نفسي منها، لكنها اقتربت من  
روحي كثيراً حتى قرأت روحها جيداً؛ فصرت أخاف على روحها



الطيبة من نفسي.. وكثيرًا ما كنت أجدني في حيرة من علاقتي بها..  
أؤكد لها طوال الوقت أنني لا أصلح للدخول في علاقة.. لكنها إن  
غابت لمتها وشكوتها بغضبٍ حقيقي.. وإن اقتربت كثيرًا هربت أنا  
منها حتى لا أتورط أكثر.. وإن كنت أعترف أحيانًا أمام نفسي ليلاً  
أنني بالفعل قد تورطت معها.. وكانت باسمينا غاية في الذكاء.. تحترم  
صمتي الطويل، بل أشعر أحيانًا أنها تحبه وتقدره، وكنت بالمثل أعشق  
سكوتها وشرودها إن زار جلسائنا سويًا.. وكنا نجد في صمتنا ألفه. ولم  
تكن ألفه تقل عن حبنا لكلامنا الذي أحيانًا قد يطول لساعات..  
إنما كانت الرفقة أقوى من كل ملل قد يصيينا. ولم نترك لفضولنا عن  
ذكرياتنا السيئة فرصة أن يكدر صفو هذه الرفقة الحنون.

مالت باسمينا على كتفي وهي ملتصقة بذراعي وقالت ونحن  
سائران جوار رصيف المارينا البحري:

- مالك يا يحيى.. لماذا تغيرت عيناك فجأة؟

لم أرد، بقيت على صمت.. وعلى غير عاداتها تابعت تسأل:

- لماذا ضايقت إعلان الراقصة إلى تلك الدرجة.. ألا يحب الرجال  
الرقص الشرقي؟

وكنت أتخيلها تبتسم في خبث وهي تسأل فقلت:

- بالطبع.. فهو أجل الأشياء قبل الذهاب إلى فراش الرجل.

توقفت وضربتني في كتفي مازحة، وقالت وهي تتصنع غضبًا:

- يحيى، راقب كلامك.. هذا تحرش.

فسألتها:

- أنتعرضين؟

- على رأيك في الرقص أم على التحرش؟  
ثم ضحكت عاليًا ودفعتنى للضحك رغم عبوسي وقالت سائلة  
في جدية:

- قل لي فعلاً، أتعترض على الرقص الشرقي؟ الرقص ثقافة  
موجودة في كل الشعوب بالمناسبة.. ليس الرقص في البلاد العربية فقط.  
كان أكثر ما يجذبني في ياسميناً هو تناولها الدائم لكل الأمور  
برؤية فلسفية وتحليلة خاصة.. لا تترك موضوعاً دون أن تناقش أصله  
ومنشأه.. وما نتج منه وما أدى إليه. كانت تذكريني بجدي سليم.  
وحكت لي ياسميناً مرة عندما عقت لها على طريقتهما هذه فقالت  
أنها كانت وحيدة لسنوات طويلة.. وكانت تقضي معظم لياليها في  
التفكير والشروء. تتخيل آلاف المواقف والأحداث. لها ولمن حولها،  
ولا تتوقف عن التحليل المستمر لتلك الأمور، وكانت تراقب الجميع  
في فضول وتحاول أن تتوقع ردود أفعالهم طوال الوقت.. لم أتعجب من  
كلامها وهي ابنة البلاد التي صدرت الفلسفة للعالم كله قبل قرون.  
خرجنا من بوابة المارينا وعبرنا النفق المحفور كالعادة وتشبثت  
بي ياسميناً حتى إنها كانت تحتضنني وأنا أساعدها على العبور..  
ثم اتخذنا شارعاً جانبيّاً في طريق مختصر إلى شارع النصر.. وعادت  
ياسميناً تسأل:

- لم تقل لي رأيك في الرقص الشرقي.. أصر أن أعرف.

قلت لها بعد إلحاحها لمرتين:

- أنا لم أتعترض على أن الرقص ثقافة لدى كل الشعوب ومنذ قديم  
الزمان.. أنا رجل تاريخ لا تنسي هذا.

- ما مشكلتك مع الرقص الشرقي إذا؟

قلت في صبر:

- عند كثير من الشعوب، بل عند معظم الشعوب يكون الرقص ثقافة تعبيرية بشكل أو بآخر.. تفرغاً لطاقة سلبية أو استدعاء لطاقة إيجابية.. نوع من البهجة ممزوج بليونة الجسد مع إيقاعات لها معنى واضح ومقصود، لكن الرقص الشرقي ليس له علاقة بذلك. أراه في الحقيقة مخاطبة مباشرة للغريزة الجنسية، وليس للموضوع علاقة بملابس الراقصة بالمناسبة.. فالكثير من الراقصات يؤدين بعض الرقصات بزيٍّ محتشم.. لكن الموضوع له علاقة بطريقة أداء الرقصة.. وتعامل الراقصة مع جسدها أمام المتفرجين. بل ونوع المتفرجين أنفسهم وتفاعلهم مع الراقصة.. الموضوع كله يذكرني بنواحي التعري في الخارج.. وإن كانت أكثر صراحة ووضوحاً في ذلك.. وكما قلت من قبل.. المجتمعات الغربية بسيطة وواضحة مع نفسها في تعاملاتها.

- إلى هذه الدرجة من السوء ترى الرقص الشرقي؟

- قولي لي أنت.. ما الذي يدفع فتاة جميلة أو على قدرٍ ولو بسيط من الجمال إلى التعري وإبراز مفاتن جسدها والقيام بمجموعة من الحركات لإبراز هذا الجمال بشكل لا يحرك سوى غريزة الرجل؟

- لا أعرف.. ربما المال.. في الغالب المال بالطبع.. لكن ليس هذا مؤكداً.. لا بُد من عمل استبيان مع عدد كبير من الراقصات للتأكد.

ضحكت من سذاجتها وقلت لها:

- استبيان؟! أتظنين أن الراقصة الشرقية ستقبل أن نجيب عن أسئلة استبيان لعمل إحصاء لما دفعها إلى العمل كراقصة.. وإن قبلت ستجيب بالأسباب الحقيقية؟ أنت ساذجة يا باسمينا فعلاً.

ضربتني على كتفي مرات ومرات وقالت في خبث:

- هناك حل إذاً لو رضيت أنت به..

- وما هو أيتها الفيلسوفة؟

- أن أعمل راقصة وأقوم بافتحام هذا العالم السري.. ربما عرفنا

الحقيقة.

التفتُ إليها وقلت وأنا أدفع يدي مهدداً بضربها في دعابة:

- وما رأيك أن أكرس عنقك ونستريح نحن الاثنين؟

ابتعدت إلى الطريق وهي تضحك في مرجٍ وقالت وسط صرخان

سيارة للأجرة جوارها:

- أنت رجل تاريخ أم رجل الكهف؟

ثم عادت تسير جوالي مرة أخرى وقلت لها بعد دقائق:

- الأمر صعب فهمه عليك يا ياسميننا.. أنت امرأة أوروبية في

النهاية ولن تستطيعي أن...

توقفت ياسميننا وقالت في غضب حقيقي:

- يحى!! قلت لك مائة مرة أنا مصرية.. «مصرية»

وكانت تضغط على حروف الكلمة في غضب وتابعت قائلة:

- كما أنني أفكر في الاستقرار هنا نهائياً.

نظرت إليها في فرحة لم أستطع أن أخفيها أمامها وقلت لها:

- فعلاً؟

- قلت أفكر..

ثم عادت ثانية وتأبطت ذراعي في قوة.. والتصفت بي أكثر

وأكثر فأرحت لها كتفي كي تميل برأسها عليه في راحة أكبر..

وسألت ونحن سائران:

- هل تحب فعلاً لو بقيت هنا معك في الغردقة؟

وقبل أن أفكر في ردِّ عليها قاطعني اتصال هاتفي، كان الشيخ ياسين.. رددت عليه مباشرة وألصقتُ ياسمينا وجهها بوجهي كي تستمع لما يقول.. وكان يؤكد على حضور زفاف ابنه «يزيد» في اليوم التالي.. وبعد أن باركت له وأكدت عليه حضوري ثم أنهيت المكالمة قلت لياسمينا:

- سأقترح عليك شيئاً سوف يسعدك.. هل تريدان أن تَري رقصاً حقيقياً؟

فقلت بسرعة شديدة في فرح:

- هل ستأخذني معك إلى القرية أخيراً؟

أومأت برأسي إيجاباً.. فاتسعت عيناها من الفرحة وقالت هامسة وهي تلتصق بي أكثر:

- شكرًا!!

ثم أكملنا سيرنا وحمدت الله أنها نسيت موضوع سؤالي عن استقرارها في مصر.. وإن كنت أشك أنها تجاوزته عمداً.. ولم تكن لدي إجابة واضحة عليه، وقبل عودتي للكامب اتصلت بالشيخ ياسين استأذنه في قدوم صديقة معي لزفاف ابنه فرحَّب بشدة.



نظرت مرة أخرى إلى الساعة، وكانت قد تجاوزت الخامسة.. وتلقيت مكالمة من الشيخ ياسين لكن التغطية لم تسمح لنا بإكمالها وكنت أعرف أنه اتصل بي لتذكيري بالموعد الذي قارب.. كان أمانا ساعة من القيادة على الأقل بسيارة ياسمينا التي تقودها في بطء

شديد.. ولما وجدت الوقت سوف يسرقنا اتصلت بياسميننا أتعجلها  
فأخبرتني أنها ستكون أمام مدخل الكامب خلال دقائق.. اقترحت  
عليها أن أنتظرها أمام المدخل فرفضت تمامًا وأخبرتني أنها ستكون  
أمام غرفتي خلال دقائق قليلة.. وبالفعل وصلت سيارتها أمامي  
بعدها مباشرة، وكنت قد مللت من الانتظار فوقفت أنتظرها خارج  
الغرفة.. وقبل أن أتوجه سرعًا إلى جوارها أشارت إلى تستوقيني  
ونزلت من السيارة.

كانت ترتدي فستانًا جذابًا به شريط أحمر يجسد خصرها في بساطة  
وبالفستان بعض الوردات المنقوشة بلون وردي خفيف جدًا.. وكانت  
تبدو كأمية جميلة من عصر قديم.. ظللت أتأملها ودارت حول  
نفسها فبدت كفراشة جميلة ثم اقتربت مني في دلالٍ مقصود وقالت:  
- ما رأيك؟

فقلت دون أن أرفع عيني من عليها :

-تبدين كملكة جميلة.. ستغار منك العروس هكذا.

وظللت أنظر إليها وقلبي يخفق لها.. بعدها اتجهت لأغلق الغرفة  
وسألتني:

- لماذا لم تضع رابطة عنق؟

فأجبته وأنا متجة إلى السيارة:

-ليس لدي واحدة.

وصعدنا إلى السيارة وفور أن تحركنا، ناولتني هدية صغيرة ملفوفة  
من تابلوه السيارة، وقالت مبتسمة:

-لقد عملت حسابي.

وفتحت الهدية فوراً فوجدت داخلها رابطة عنق طرية اللون لها  
لمعة خفيفة عند حوافها.. فابتسمت وشكرتها.. ثم انحرفت إلى بداية  
الممر الجبلي المؤدي إلى طريق القرية غير الممهدة، وقالت وهي تعدل  
من وضع مرآة السيارة ناحيتي:

- يمكنك استخدام المرآة لارتدائها.

ولما أنت على ذكر المرأة اختفت ابتسامتي فوراً



بني جدي سليم في المستشفى لأسبوعين كاملين.. وكنت أقضي  
مع معظم الوقت تقريباً، وكانت زينب تزورنا بشكل يومي.. ولم تكن  
حالته تتحسن كما تمنينا.. لكنه لم يعد إلى غيبوبته المربعة مرة أخرى..  
وكنت قد أحسست بذنب كبير لتركي إياه وحيداً في الفترة التي كنت  
غارقاً فيها مع ميريت.. وكانت تتصل بي كل يوم وترسل معذرة عن  
كلامنا الأخير سرياً.

لكن حالة جدي الصحية منعني من محاولة التفكير في الرجوع  
إلى شباكها مرة أخرى.. وكذلك ظهور زينب في حياتي من جديد..  
كانت قد تغيرت تماماً عن آخر مرة ألتقينا فيها.. وكان عمرُ قد  
مضى علينا.. أنهيت فيه كُليتي وحصلت على الدبلوم وسافرت إلى  
لندن وعدت، ثم دخلت ميريت حياتي وخرجت، أو أن هذا ما كنت  
أدعيه. أما زينب.. فقد بدت وكأنها شخص آخر عندما التقينا في  
المستشفى. أم أقول إنها صارت شخصاً إضافياً لزينب التي عرفتها  
صغيراً.

صارت امرأة قوية أثقلها الحزن.. وزادها الخذلان حكمة في  
الحديث والحركة.. فلم تعد محبة للكلام مثلما اعتدتها.. أو ربما كانت

ثُقل من حديثها في وجودي فقد كنت أسمعها تثرثر مع جدي كلما دخلت عليهما غرفة المستشفى بعد عودتي من عملي.. لكنا إذا ما تحدثنا كانت ترد الجملة بالكلمة.. والكلمة بالإمالة أو الإنباس الخفيف.. لكن ما كان واضحًا طوال الوقت في عينيها هو الانكسار والإحساس بالخذلان.. لكنها ورغم ذلك لم تكن تقصر في مراعاتها لجدي في المستشفى، وكانت تحفظ أنواع الأدوية كلها وتوقيت كل دواء وجرعته، وتأنيه بالطعام المسموح كل صباح.. وبعد يومين من تردها على المستشفى صارت تحضر طعامًا لي أيضًا.. ولم أكن أقدر أن أرفضه في وجود جدي.

كان الحزن يعصف بي وتقتلني الوحدة والكآبة.. وكان وجهي شديد العبوس في الأيام الأخيرة وقد أقلق ذلك جدي علي كثيرًا فسألني:

- ما بك يا ولدي؟ ما الذي حدث؟ لماذا تركني لقلقي هكذا؟

كنت أحاول أن أتماسك أمامه وقلت:

- وعلام القلق يا جدي؟

ردًا في نظرة عتاب قائلاً:

- ألا تعلم؟

فسألته هربًا:

- أنتني زينب؟

- بل أعنيك أنت.. زينب لا يخاف عليها أحد.. كلي خوف عليك أنت، وخوفي عليك من نفسك.. ما الذي حل بك؟ صار لك أكثر من عام وأنت لست بيعيسى الذي عرفته وكبر بين يدي.. ماذا بك؟ لم كل هذا التيه؟



ولم أكن أعرف ماذا بي ولا أعرف بماذا أرد.. كنت متعبًا وكأنني أنا  
الذي شاخ عمره.. ما زلت شابًا لكنني بدأت أشعر أنني لا أرغب  
في المواصله.. لا أعلم ماذا أريد من هذه الدنيا؟ وكل يوم أمني نفسي  
أنني سوف أعرف الإجابة.. وكل الذي أصل إليه هو طريق جديد  
ممل ليس له من نهاية ولا أفهم له معنى.. وكانت حكايتي مع  
ميريت قد أتت على ما بقي مني.

وعاد جدي يسأل:

- تكلم يا بني ماذا بك؟ قد لا أكون معك بعد ساعة.. وأنت لم  
تكن تتكلم طيلة عمرك مع أحد سواي.  
قلت له:

- صدقني يا جدي لا أعلم ما بي.. ولا أعلم من أين يأتي كل هذا  
الحزن وكل هذه الوحدة.. لم أعد أعلم لماذا أحبيت التاريخ، ولا أعلم  
ما الذي سوف أجنيه من ورائه.. لا أعلم لماذا نبذني والدائي هكذا  
وكأنني لست ابنًا لهم.. ولماذا فعلت ما فعلت مع زينب؟.. ووسط هذا  
كله.. لا أعلم الطريق.. ولا أعلم إلى أين يذهب بي؟ ولا طاقة لي على  
المزيد من مشقته.

فقال وهو يربت على كتفي:

- ولماذا تفكر من الآن في مشقة الطريق.. فُكّر في متعة الوصول.  
- الوصول إلى ماذا؟ أنا لا أعرف ماذا أريد كي أسمى أن أصل  
إليه.. ولا أفعل شيئًا سوى إيذاء نفسي وإيذاء من حولي.  
- نفسك لوامة يا ولدي.. نفسك لوامة.

ثم اعتدل وتابع قائلاً:

- يا يحيى.. قال الصالحون قبلنا.. النفوس ثلاث: نفس مطمئنة، ونفس أمارة بالسوء، وبينهما نفس لوامة.. تأبى هذا وتسمى إلى ذلك.. وما أنت فيه ما هو إلا نفس لوامة تجاهد أمارتك بالسوء.

- صدقني يا جدي لقد تعبت.. تعبت مبكرًا جدًا عما ظننت أنني قد أحتمل.. تعبت من قلة صبري ومن أنانيتي.. تعبت من كوني أجلس معك الآن وأنت المريض.. ورغم ذلك أنت من تواسيني وتطيب خاطري.. تعبت يا جدي ولا أصدق أنني في الثلاثين من عمري.. أحيانًا أشعر أنني أحمل قلب شيخ في نهاية حياته وقد استسلم للموت وصار ينتظره وهو راضٍ بقدومه.

- لم يأتِ أوان التعب بعد يا يحيى.. سيكون طريقك طويلًا فلا تتعجل التعب. أنت لم تلقَ شيئًا بعد وما زال طريقك طويلًا. ثم أراح رأسه على السرير وقد أنهكه الكلام. فقامت أسعد، وقبل أن ينمض عينيه قال:

- لن أوصيك على ابنة عمك يا يحيى.. لم يعد لها من أحد سواك.. وليجمعنا الله على الخير.

في نهاية الأسبوع الأول استدعاني الطبيب المقيم المسئول عن حالة جدي يومها وكان يمسك في يده آخر الفحوصات التي أجريت له.. وقال إن الحالة سيئة وربما تسوء أكثر خلال أيام.. سألته مستغفراً عما يقصده فقال لي دون تجميل للكلام:

- الأعمار بيد الله، لكن يجب أن تستعدوا.

وقبل أن يدخل إلى غرفة جدي ناديت وقلت في حزني:

- من فضلك لا تخبره بأي شيء، لا أريده أن يفقد الأمل، فهو رجل مؤمن ومصل.

نظر إليّ الطبيب الشاب، وخلع نظارته الطبية، وأخذ يفحصني بعينين بدا عليهما إرهاق السهر ثم سألني:

- ماذا تعمل؟

- أنا معيد في كلية الآثار.

- وهل يصح أن يصدر هذا الكلام من شخص مثلك؟

لم أفهم ما الذي يقصده فتابع:

- هذا حق عليكم.. لم أكن لأخبره بنفسه بالطبع إلا إذا أردت أنت

ذلك لكنك أنت من يجب أن يخبره. هذا حق يا أستاذ.. أم أقول يا

دكتور؟

وابتسم في برود ولم أرد أن أغضبه لكني قلت:

- لكن.. ربما يؤدي هذا إلى تأخر حالته.

بدا مستاء بشدة من قولي وأشار بالأوراق التي في يده، وقال

بصوت خرج عاليًا:

- يا حضرة جدك يحتضر.. أي سوء تتكلم عنه؟ يجب أن تخبره

بذلك.

- وما الفائدة إذا؟

- ما الفائدة؟ لا تكن أنانيًا.. المستفيد الوحيد من عدم إخباره هو

أنت.

- أنا!! وما الذي أستفيده.

- سوف تريح نفسك من قسوة المواجهة.. تتركه يحتضر في هدوء

دون أن يعلم ذلك.. لكن قل لي.. لو كنت أنت مكانه.. هل كنت

نحسب أن نعرف معلومة كهذه أم لا؟

قلت مباشرة دون تفكير:  
- بالطبع لا.. ولماذا أحب أن أعذب نفسي؟

نظر متعجباً مرة أخرى وقال:

- أمرك غريب حقاً.. من يرفض فرصة كهذه؟ أن يتجهز للقاء ربه؟ أن يكتب وصية قبل رحيله؟ أن يصلح شخصاً قد أخطأ في حقه ومنعه كبرياؤه من الاعتذار له.. أن يتطهر من ذنب في حق نفسه أو في حق غيره.. أن يعترف لأحد أنه يحبه ولم يصح بذلك قط.. أن يتصالح مع نفسه قبل أن يرحل.. الأمر قاسٍ ومؤلم بالطبع.. لكنه أبجل شيء قد تمنحه لشخص بينه وبين الموت أيام. ألا تقول أنه رجل مؤمن؟ كيف تحرمه من نعمه كهذه! أحياناً تكون النعم التي ينعم بها الله علينا في منتهى القسوة لكن هذا من وجهة نظرنا الدنيوية فقط.

ألجمني كلامه تماماً، ولم أستطع أن أرد عليه بأي شيء، ووجدت أنه كان محقاً في كل حرف قاله.. لكنني فكرت كيف أخبر جدي بذلك؟ بل كيف أخبر نفسي أنه سوف يتركني ويرحل بعد أيام؟!

وعدتُ الطبيب أن أخبر جدي بحالته وأقسمت له على ذلك.. وقلت لنفسي إنني لن أكون جباناً وأترك غريباً يخبره بشيء كهذا بينما أتواري أنا خلف حزنٍ.. وحاولت أن أتحدى بالشجاعة.. ودخلت إلى غرفة جدي وأنا أكاد أرتجف وترتعش يداي من الحزن.. لكنه لم يكن في فراشه.. كان قد نزل مع الممرضة إلى الدور الأرضي لعمل أشعة جديدة، وكانت زينب فقط في الغرفة تبحث عن الأشعة القديمة.. وفور أن التقت عيني بعينيها لم أستطع أن أحبس دموعي.. فبكيت.. وعندما عاد جدي إلى الغرفة سألت زينب لماذا لم تأتِ بالأشعة القديمة

لأنهم طلبوها منه.. ولماذا وجدنا داعمين.. ولكنه صمت ولم يكمل  
أسئلته.. وانصرفت زينب باكية ومعها الأشعة.

ساعت جدي على الاستلقاء فوق سريره.. وطلب مني أن  
أجلس معه وقال وهو يحاول أن يتسم:

- كلنا ملاقوا الله يا يحيى.. أنتظن أن جدك سوف يُخلَّد؟!

ولم أستطع أن أرد، وأخذت أقبل يديه ولم أعلم ما الذي قلته له  
لكنه كان يمنعني عما أقول في توَّسل ثم في غضب.. ولما هدا أراح  
ظهره على السرير وقال لي:

- أنتظن أنني غائبٌ عن حالتي.. يا بني أنا أعلم ما بي خير منك  
ومن زينب ومن الطيب نفسه.. لكل أجل كتاب.. وأنا عشت ما  
عشت من الدنيا ولم أعد أطمع منها في شيء.. يكفي هذا يا بني.. بل  
يكفي ويزيد.. ولكني لم أكن أريد أن أذهب وكلي قلق عليك هكذا..  
أرجوك يا يحيى من أجل راحة جدك.. لا تنس شيئاً مما علمتك..  
يوماً ما ستصل إلى كل ما ترجوه.

وعدت لأقبل يديه في حزن شديد.. وقبل نهاية الأسبوع الثاني  
صعدت روحه إلى بارئها فجراً، وعندما ذهبت إلى المستشفى كانت  
زينب تجلس وحدها تبكي في الغرفة.

\*\*\*

قالت ياسميناً وهي تشير بيدها ناحية منازل القرية التي بدأت  
تظهر أمامنا من بعيد:

- أهذه قرية الجبل؟

انتهبت على قولها ووجدتنا قد وصلنا تقريباً فقلت لها:

- نعم، لا يوجد غيرها هنا بين الجبال.

فتابعت باسمينا القيادة متجهة ناحية القرية، ورأت حزني البادي في عيني من أثر تذكري لجدي.. وخيم الصمت على روحنا رغم أننا قد أتينا في بهجة. وأدركنا مدخل القرية الوحيد ووجهت باسمينا حتى مجلس القرية جوار المقام. وكان المجلس مزدحمًا وقد اجتمع أهل القرية كلهم أمام الساحة الكبيرة الواقعة بين مجلس القرية وبين المقام.. ولمحت بعض الوجوه التي أعرفها من العاملين في وادي حبيبة.

أقبل علينا الشيخ ياسين فور أن رأنا وابتهج بشدة.. كان يرتدي عباءة سوداء تلمع وفوقها كوفية بيضاء مطرزة بخيوط ذهبي رفيع.. احتضنتني عندما اقترب ورَّحَّب باسمينا في تبجيل شديد.. ثم نادى على ولده يزيد وطلب منه أن يأخذ باسمينا إلى حيث تمكث نسوة القرية.. فنظرت إليَّ باسمينا في قلق فقلت:

- لا تقلقي.. سيجتمع الكل بعد صلاة العشاء هناك.

وكنت أشير إلى الساحة الواسعة وقد فُرشت أرضيتها بعشرات السجاجيد اليدوية التي ينسجها نساء القرية بأنفسهن، وتباع في سوق المدينة بالגרدة للسائحين.

ذهبت باسمينا إلى حيث يمكث النساء، وجلست مع الرجال في المكان المعتاد.. وكان الكل يرحب ويبارك.. وبعد أن عاد يزيد فمت إليه وباركت له ثم وضعت في جيب صدريته الجديدة اللامعة ظرفًا صغيرًا به مبلغ من النقود على سبيل المباركة.. فشكرني في امتنان شديد ثم دعانا الشيخ ياسين إلى صلاة العشاء فقمنا جميعًا إلى المسجد جوارنا.

فور أن خرجنا ولم نكد أن تمضي دقائق قليلة حتى بدأ صوت  
الربابات والمزامير يعلو تدريجياً وأضاء أحد الرجال المصاييح الملونة  
المعلقة على جدار المسجد أمام الساحة وقد جلبوا محمولاً كبيراً  
للكهرباء يستخدمونه خصيصاً لهذه المناسبات.. ثم رُصت عشرات  
المقاعد على شكل مُربع كبير في الساحة الواسعة وجلس الشيخ  
ياسين على رأس المكان وإلى جواره ولده يزيد، وأصر الشيخ ياسين أن  
أجلس إلى جوارهما، وقام أحد الرجال فأنشد على خلفية هادئة من  
موسيقى المزامير والربابات:

نبدأ فرحنا بالصلاة عالمصطفى .. صلوا على خير الأنام المصطفى

حلوا الكلام من القصايد كلها... يا زين قدره ما وفاه وما كفى

وارتفعت الأصوات كلها بالصلاة على النبي الحبيب ثم قام  
العازفون من ركن المكان وتقدموا إلى وسط الساحة وهم ما زالوا  
يعزفون وردد المنشد متابعاً:

قولوا العروستنا القمر من ضيها... لولا الملام من الأحبة لاختنى

قولوا العريسنا ابن العرب زين الرجال... كرم العرب جمع القلوب وألف

ثم علت الآلات بالنداء على النسوة اللواتي كن قد أتين، وبدأ  
الجميع يصطف في مربع صغير داخل المربع الأول، وقام بعض  
الرجال بالوقوف في صف مقابل للنسوة اللواتي وقفن في صف مماثل..  
ونظرت إليهن أبحت بعيني عن ياسميننا حتى وجدتها بصعوبة  
وسطهن وقد اجتمعن في أحد أضلاع المربع الذي رسمه أهل القرية  
بالمقاعد.. ووجدتها تبتسم في فرحة وقد وضعت على كتفها شالاً  
طويلاً يبدو أن إحدى النساء قد منحته لها بسبب البرودة التي تحمل  
مساءً في الجبل.

خرج ثلاثة أزواج من الرجال متأبطين بعضهم بعضاً في صف  
مستقيم، وبدأوا يتحركون في إيقاع واحد على ضربات الدفوف،  
وتحرك نفس العدد من النساء والتقوا في منتصف الساحة تماماً  
وأخذوا يرقصون جميعاً في تناغم رائع على صوت المنشد الذي قال:

يا زينة الليلة الليلة الليلة . . . والقمر ما هو عادي

زينة البنات يا الليلة . . . ربي احفظها مالחסاد

ثم قام بعض الرجال وهتفوا في حماس وسط زغاريد النساء  
المتهايلات رقصاً:

لا نعادي ولا تعاديننا . . . البسمة الحلوة تكفيننا

بنبي ونزرع في واديننا . . . وبنفدي اللي بيفديننا

ثم صاح كل من في العرس تقريباً بصوت عالٍ:

لكن ما تخاف ما العادي

وعلت المزامير أكثر وأكثر وأخذت النساء الراقصات يدرن حول  
الرجال في حلقات كبيرة أخذت تضيق تدريجياً مع حركة الرجال  
المصطفين على الجانبين، ونظرت إلى ياسميناً مرة أخرى فوجدتها تصفق  
مع النسوة في فرحة وقد تعلمت كيف تصفق على إيقاع الدفوف  
بانتظام وهي تجبط على كفيها بشكل رأسي مثل الجميع، وكانت تتمايل  
مع موسيقى المزامير والربابات بانتظام حتى أتقنت الإيقاع بسرعة  
شديدة وأخذت تلوح لي أن انضم إلى صفوف الراقصين فأشرت  
لها من بعيد معترضاً.. ورغم أنني حضرت تلك الأعراس عدة  
مرات كما حضرت الكثير من عروض الدبكة البدوية في حفلات  
السمر والتي ينظمها الكامب ضمن أنشطة السافاري للسانحين،



إلا أنني لم أشعر بمثل تلك البهجة من قبل.. وعادت باسمينا تلوح لي في الحاح وقام يزيد من مجلسه جوارنا فجأة ودخل بدوره إلى حلقة الرقص، وكان يحمل خنجرًا في يده وأخذ دوره في حلقة الرقص وحيًا أهل القرية بيديه وردوا عليه بالصياح والوقوف، وزاد حماس المنشد أكثر فعاد ليقول:

يا فارس الفرسان يا شرف العرب ... ما أحلى السهر وحبيبك الزين اقرب

لا تستحي مالفرح وعدك تنتشى ... لو تستحي مالفرح ولى أو هرب

ثم أخذ الرجال يدفعونه فيما بينهم وهو يدور حول نفسه في مرج وبقي يرقص مع الرجال وحول النساء لفترة ثم عاد إلينا، وقبل أن يجلس قبّل يد والده.. وعادت الصفوف والحلقات إلى نظامها بعد أن بعثها قليلًا دخول يزيد إليها وخروجه منها.. ووجدت باسمينا تنقدم بثقة وسط مجموعة من النسوة في حلقة جديدة للرقص مكان الحلقة الأولى، ونظرت إلى الشيخ ياسين فكان يبتسم وأشار إليّ ولم أكن لأنظره.. قمت أشاركها الرقص واتخذت موقعًا مقابلًا لها وانتظم الإيقاع من جديد متسقًا مع صوت الدفوف والربابات وأخذ الصغان يقتربان رويدًا رويدًا حتى صرت أمامها تمامًا.. وكانت عيناها تلمعان من الفرح وقد كحلتها عندما ذهبت مع النسوة بكحل خفيف زانها وجعلهما أكثر اتساعًا وأشد إغواءً.

اقتربنا من بعضنا البعض وأخذت تدور حولي وتمايل في خفة على الإيقاع وتتموج بجسدها مع الموسيقى ولم أدرك كيف حفظته بهذه السرعة وأتقنته حتى تناعمت حركتها مع حركته تمامًا.. وتابع المنشد صائحًا من خلفنا:

خف عني حول ها الدنيا من الليلة . . . كل ما أبغاه في الدنيا تونسني

وكنت أحفظ بعض الأبيات وأردد معهم في فرح ولم أدر من أين أتيت أنا أيضًا بكل هذه القدرة على الرقص في تناغم ومهارة.. ولم أبعد عيني عن ياسميننا حتى إنها كلما درات حولي كنت أحرك رأسي لأتابعها حتى تعود لتتمايل أمامي من جديد.. وبقينا على هذا الحال رقصة فرقصة حتى صرنا وحدنا نرقص في إحدى المرات.. ولما أنهى المنشد البيت الأخير في قصيدته عدنا إلى أماكننا وسط صيحات الرجال وزغاريد النساء.. وظل الكل في القرية على حاله وفي مكانه حتى جلست.. ثم عاد الرجال والنساء يشكلون مجموعات أخرى لرقصات جديدة.. وبعد أن انقضت حوالي ساعتين من الغناء والرقص نظرت إلى ساعتني متعمدًا أمام الشيخ ياسين كعادتي كلما وددت الانصراف فقال بصوت سمعته بصعوبة وسط الغناء:

- ليس قبل أن نكرمك ونكرم الضيفة.

وكان يشير إلى ياسميننا، وكنت أعلم أنه يقصد تناول الطعام كالعادة فألححت في الانصراف متعللاً بياسميننا وبالطريق.. وقبل أن يقسم عليّ، وعدته أن نعود مرة أخرى، وكنت أعرف أن ياسميننا ستحب المجيء إلى هنا ثانية.. وأصر أن يرافقنا حتى تحركت مع ياسميننا بالسيارة إلى الطريق المؤدي للممر الجبلي مرة أخرى.. وبمجرد أن تحركنا قالت في فرحة شديدة وهي تتلمس طريقنا وسط ظلام الجبل:

- لم أحضر في حياتي عرسًا فيه كل هذه البهجة من قبل.. لمانا

كنت ستحرمني من هذه الليلة الجميلة؟

قلت وأنا أنظر إليها وأأملها في افتنان:

- لم أكن أعلم أنك تستطيعين الرقص بحرفية هكذا..

- الرقص غريزة في كل أنثى يا يحيى.. كما أنك أيضًا كنت ترقص

بشكل رائع.

- احفظ معظم الرقصات والأغاني هنا.. هذا جزء من يومي في

الكامب، لكنني لم أرقص من قبل.

- لا أصدقك..

وقبل أن أرد عليها لمحت أمامنا على يسار الطريق من بعيد أحد

المتشمين في عباءة بيضاء.. وكانت باسمينا تنظر إليّ وهي تسألني فلم

نلمحه، واختفى فجأة قبل أن تلاحظه عندما اعتدلت إلى الطريق..

وكانت تتابع:

- لم ترد عليّ.. أنا لا أصدق أنك لم ترقص معهم من قبل.

فلم أرد وإنما رحت أنظر في مرآة السيارة الجانبية بعد أن مررنا

جوار المكان الذي ظهر فيه المتشم منذ لحظات.. لكنني لم أر شيئًا من

شدة الظلام.. ولم أرد أن أخبر باسمينا عنه كي لا تقلق دون داع..

وظلّت باسمينا طوال الطريق إلى الكامب تحكي عن العُرس وعن

النساء في القرية وقالت:

- أتصدق أن زوجة يزيد الأولى كانت ترقص معنا؟.. بل إنها من

جلبت لي الكحل الذي وضعته حول عيني.

- العادات هنا مستقلة ومختلفة عن أي مكان آخر.. الانتماء للقبيلة

أكثر من الانتماء للشخص.. هذا سر بقائهم طوال هذه السنين رغم

غزو المدينة لمعظم الأماكن التي يعيش فيها البدو والعرب.

- هذا حقيقي.. لقد كانت ترقص وسط النساء وكأنه عُرس ابنها  
أو أخيها وليس زوجها.

ثم عادت نحكي عن كل التفاصيل التي مرت بها مع النسوة  
حتى وصلنا إلى الكامب، وقبل أن ندخل إليه طلبت منها أن تكمل لي  
المدينة.. فلم أرد أن تعود في وقت متأخر كهذا في الطريق وحدها.. كما  
أنني لم أكن أرغب في أن أدخل الغرفة في الكامب وأصير وحدي من  
الآن.. كنت أود أن أبقي برفقتها لوقت أطول وفرحت باسمينا بشدة  
من طلبي.. ثم أخذت تدندن طوال الطريق بعض الأبيات التي كان  
المنشد يشدو بها وقد حفظت بعضها.. وكنت أصحح لها ما أذكره  
منها.. ثم نعود لنتشدها سوياً.

وصلنا إلى النزل الليلي حيث تسكن.. ونظرت إلى المبنى الذي  
تسكنه ولم ألمح الضوء المعتاد الخارج من نافذة غرفتها فقلت لها:  
- لقد نسيت وأغلقت ضوء غرفتك.

فردت:

- لم أعد أتذكره مضاء.

نظرت إليها في تساؤل فتابعت قائلة:

- لم أعد أشعر بالوحدة.

فابتسمت لها وتركتها تمسك يدي قليلاً حتى اضطرت إلى تركها  
لتقوم بركن السيارة في الجراج الخاص بالنزل.. ونزلنا وتمشيت معها  
حتى مدخل المبنى وسألتني وهي تنظر إلى الحارس النائم كالعادة:  
- ماذا ستفعل عندما تعود؟

- لا شيء جديد.. القهوة وبعض القراءة حتى يزورني النوم.

ونظرت هي إلى الحارس من جديد وقالت:  
- تعال معي أعمل لك قهوة قبل أن تعود.

ابتسمت وقلت لها:

- شكرًا.. لا داعي.. لا أريد أن يراني أحد وأنا أدخل معك إلى  
الاستوديو.

- لا يوجد أحد.. وحتى لو رأنا أحد.. لا يهم.

وكانت تنظر إليّ بعينيها الجميلتين بعد أن جعلها الكحل أكثر فتنة  
حتى في الليل.. وحاولت أن أقاوم أكثر وقلت:  
- لا داعي للمشاكل يا ياسمين.. لا داعي.  
فردت في استياء:

- رفضك هذا يسيء لي ولك.. اصعد معي يا يحيى أنت تعرفني  
وأنا أعرفك جيدًا.

وظلت تنظر إليّ في توسل من جديد.. ولم أستطع أن أرد توسلها  
أو أرد جمال عينيها.. فتحرّكت معها في سكّون.. وفور أن دخلنا إلى  
المصعد أمسكت يدي وشبكت أصابعها فيهما وعندما دخلنا إليه  
وقبل أن نضيء النور قالت:

- لا تسخر من الاستوديو.. فلم أرتبه منذ قابلتك تقريبًا.

وبعد أن دخلنا سبقتني إلى الداخل وقامت برفع كومة كبيرة من  
الملابس كانت على المقعد الوحيد بالغرفة وألقته على الفراش..  
وجذبتني من يدي وقالت مشيرة إلى المقعد:

- اجلس هنا ولا تتحرك.

وذهبت مسرعة إلى ركن صغير في جانب الغرفة ووضعت أسطوانة

في مشغل للموسيقى وبدأت «سيلين ديون» تشاركنا الجلسة وقالت  
ياسميننا:

- هذه الأغنية سمعتها أول مرة التقينا فيها في المارينا.

ثم اقتربت وهي تبسم في رقة.. وقالت:

- ساعد لك أجمل فنجان قهوة في الفردقة كلها.

وانصرفت إلى ممر جانبي، قمت فوراً إلى النافذة الوحيدة بالغرفة  
وفتحتها ببطء شديد.. وكانت تطل على شارع النصر مباشرة ودخل  
منها هواءٌ خفيفٌ باردٌ. ونظرت عاليًا إلى السماء وكانت النجوم هناك  
مجمعة في أعداد كبيرة واضحة وكأنها تنظر إليّ في ترقب.. تركت النافذة  
وقبل أن أجلس على المقعد مرة أخرى أخذت عيني مجموعة من  
الكتب فوق طاولة صغيرة في ركن الغرفة.. وكان عنوان أحدها بارزاً  
فقرأته بسهولة وكان عنوانه «مبادئ لقراءة الهيروغليفيه» فتعجبت.

اتجهت إلى الكتب أنفحصها فوجدت كتاباً آخر تحت عنوان «اللغة  
المصرية القديمة والدولة الحديثة».. ثم عدد آخر من الكتب كلها  
عن اللغات المصرية القديمة وطرق لتعلم قراءتها.. وكنت أعرف  
معظمها بحكم عملي ودراستي السابقين.. وجاء صوت ياسميننا من  
الداخل سائلاً:

- ملعقة واحدة سكر يا يحيى؟

لم أرد، وكنت أحاول أن أفهم ما الذي يجعلها تقتني مثل هذه  
الكتب وكل هذا العدد.. وجاءت وهي ممسكة بعلبة السكر في يدها  
وقبل أن تتكلم نظرت إلى الكتاب في يدي وبدت المفاجأة والارتباك  
على وجهها.. فازداد شكّي في وجود ما يريب فسألته:

- ماذا تفعلين بهذه الكتب؟

لم ترد، وإنما ظلت جامدة في مكانها.. فعدت أسأل:

- لماذا تحاولين أن تتعلمي الهيروغليفية؟

لم ترد أيضًا فوضعت الكتب على الطاولة.. ورحت أنظر لها في صمتٍ وسألتها سؤالاً أخيرًا:

- أنتِ لست هنا في إجازة.. أليس كذلك؟

ولما ظلت صامته أيضًا قمت إلى الباب لأنصرف.. فحاولت أن تمنعني وتجذبني من يدي فدفعتها في قسوة وقلت: «كاذبة!»

وعدت إلى الكامب مباشرة وكنت لا أفهم شيئاً مم جرى.. وعندما دخلت الغرفة نزعَت رابطة العنق التي منحتني إياها ياسميناً وألقيتها أرضاً.. واستعدت كل ما مرَّ بي مع ميريت. ثم استدرت ناظراً إلى زينب الراقدة في سكون خلفي في المرأة وقلت مخاطباً وجهها الساكن في المرأة: «لقد قلت لي لا تحزن.. لكنني حزين منذ يومها يا زينب.. أنا حزين ووحيد يا زينب»



فاجأنا والداي وعادا إلى مصر لحضور جنازة جدي سليم.. وكانت أبناً حزينة ثقيلة على قلبي لم أتجاوزها بسهولة وكل ركن في البيت كان ينطق بصوته.. وفاجأني حزن والدي الذي بدا صادقاً رغم هجره الطويل لنا وزياراته المعدودة منذ سافر إلى العمل في الخليج.. وكانت عيناه في العزاء تنطقان بإحساس قوي بالتقصير والذنب في حق جدي. وكانت أكثرنا حزناً بالطبع هي زينب.. وفي البيت جلسنا جميعاً نترحم على ذكره الطيبة.. وقد فاجأنا عدد المواسين في العزاء الذي أقامناه في

مسجد السيدة زينب.. ثم عدنا جميعًا بعدها إلى البيت.. وأصررت أمي  
أن تبيت زينب وأمها معنا.. فلم تمنعنا.

جلسنا في الصالة التي طالما جلست فيها مع جدي يحكي لي  
سير الأولين والنوادر من قصص الغزاة والفاطميين في تاريخ مصر..  
وشهدت سهراتنا سويًا وشرب القهوة حتى الفجر وسماع الأغاني  
القديمة على الجرامافون الأثري الذي كان يملكه. وطالما كانت زينب  
ثالثتنا في تلك السهرات إلى أن تركتنا وأمها بعد امتحاناتي في الثانوية  
العامة.. وأخذت ذكرياتي معها تعصف بي خاصة عندما جلست زينب  
قبالي على الكنبه التي اعتاد جدي الجلوس عليها.. وفور رؤيتي لها  
في تلك الصورة اشتقت إلى قهوتنا بشدة.. ولم أجد تحرُّجًا في أن أطلبها  
منها.. فالبيت بيتها مهما حدث، على الأقل بالنسبة لي كان الأمر دائمًا  
كذلك.. وربما تعمدت فعل ذلك أمام أمي التي لم يبدُ أنها لاحظت  
شيئًا.. وجاءتني اتصالات عديدة من ميريت لم أرد عليها ثم أرسلت  
لي رسالة تعزيني فيها لوفاة جدي وتطلب مقابلي في إلحاح.. ونادت  
عليّ زينب من المطبخ مستفسرة عن شيء لم أسمعها فقمت إليها  
ورسالة ميريت ما زالت مفتوحة على الهاتف في يدي.. ولما ذهبت  
إليها سألتني من بين دموعها عن مكان البن الذي كان يحبّه جدي..  
فأشرت إلى مكانه وأنا أحدّق في عيني زينب.. وأحسست وقتها كم  
صرنا وحيدين في هذه الدنيا من بعده.. وجذبتها إلى حضني وصرنا  
نحكي سويًا في صمت.

وبعد مرور شهرٍ واحدٍ على وفاة جدي تقدمت إلى والدته زينب  
طالبا الزواج. فوافقت على الفور ورددت زينب بابتسامتها الصائفة  
المعتادة منذ صرنا نلتقي مؤخرًا.. ولم أخبر والداي بشيء إلا قبل  
إعلان الخطبة رسميًا بيومين.



جاءتني مكالمة طويلة من أمي لم تخلُ من الصياح واللوم.. فاستمعت إليها في صبر طويل حتى أنهت كل ما كنت أعرف أنها ستقوله.. ثم أكمل أبي المكالمة معي مباركًا ومهنيًا.. وأخبرته أن الزواج سيكون في خلال شهرين وفور أن أنتهي من بعض التجهيزات القليلة في شقة عابدين. وأكد عليّ أنه سيحضر العرس مهيا كانت ظروف عمله. وكان زفافنا متواضعًا. حضر عدد قليل جدًا ممن تبقى لنا من أقرباء.. وعزمت زينب بضع زميلات لها. ولم أدع سوى زميلين لي بالجامعة إضافة إلى سباستيان وقد خشيت أن يغضب إن لم أقم بدعونه.. وفاجأني والدائي للمرة الثانية بقدمهما من الخارج وكان ذلك من أجلي فقط تلك المرة.

وكانت أمي جامدة الوجه وصامتة لا تتحدث مع أحد ولم يكن وجهها الغاضب الذي أعرفه دائمًا.. كان به قلق لم أعده.. قلت لها وهي ترتب غرفة نومنا الجديدة في ليلة الزفاف:

- أستظلين غاضبة هكذا؟ حتى في فرح ابنك الوحيد؟

ردت في يأس لم أعده على وجهها أبدًا:

- لست غاضبة منك يا يحيى.

- ماذا إذا؟ لماذا كل هذا الحزن؟

- لأنني خائفة يا بني.. خائفة.

- ولم الخوف؟ زينب طيبة يا أمي وأنت تعرفين ذلك جيدًا.. لقد كنت نحيتها وهي طفلة.. ما الذي حدث؟

- ومن قال لك إنني خائفة من زينب؟

- مم تخافين إذا؟

صمتت قليلاً وبدأ أنها لن ترد ثم وضعت ما في يديها من ملابس  
على الفراش وقالت في حزن:  
- أنا خائفة على زينب.. خائفة عليها يا ولدي ولست خائفة  
منها.

- خائفة عليها؟ ممن؟

- منك.. أنت ابني وأنا أعرفك جيداً حتى وإن كنت غائبة عنك  
طيلة هذه السنوات.. زينب لن تملاً عينيك ولا ذنب لها في ذلك..  
سامحه الله جدك هو الذي وضعها في رأسك.

صدمني كلام أمي ولم أدر أتعني ما تقول أم إنها تتعمد مضايقتي  
فقط لأنني سأتزوج زينب على غير رغبتها؟ ومتى صارت أمي  
تخاف على زينب وتحمل همها وهي التي لم تحمل همي أنا؟ أم أن  
غضبها الدائم من وجود زينب قد ذهب بعد أن استردها أبي منذ  
أعوام؟ وكيف لأمي أن تعرف ما في نفسي وتدّعي أنها تعرفني جيداً  
وأنا الذي لم أعرف نفسي بعد؟!

ضايقتني كلامها وبدأ أنها أفلحت في تكدير فرحتي البسيطة  
بالزواج من زينب.. إلا أنني وبعد بضعة أشهر من الزواج أدركت  
كم كانت محقة في كلامها وفي خوفها.

رفضت زينب السفر لقضاء شهر العسل بعد الزواج مباشرة  
واقترحت أن نؤجله بعد تجاوز الامتحانات الخاصة بالماجستير والتي  
كانت قد اقتربت.. ودخل روتين الزواج القاتل إلى بيتنا بشكل سريع  
لم أتخيله.. وكنت قد ظننت أن ميريت قد ذهبت من حياتي إلى الأبد..  
إلا أن أثرها علي لم يكن قد ذهب.

كانت زينب تراها في عيني وفي شرودي طوال الوقت.. وصرت إنساناً شديداً الكآبة غارقاً في الصمت مفرطاً في الشرود الطويل.. ثم مرت أنا آخر في العمل لأتفه سبب، غير راغب في العودة إلى المنزل.. وكنت أبحث عن زينب الصغيرة في أركان البيت فلا أجدها.. لكنني اصطدم بزينب الزوجة.. زينب الصامته دائماً.. الناظرة إليّ في لوم طويل يعرف كلانا معناه ولا يجرؤ على الحديث عنه.. وخفت أن نخل ميريت المنزل أكثر من ذلك.. فصرت أتسكع ليلاً على المقاهي في وسط البلد مع سباستيان مرة أخرى.. خاصة بعدما علمت أن ميريت سافرت في إجازة إلى بيروت منذ أشهر.. وأحسست براحة كبيرة عندما علمت أنها خارج مصر. خاصة عندما أصبح وجهها يطاردني مؤخراً في كل مكان.. وأحسست بالخوف من نفسي للمرة الأولى في حياتي.. ولما وجدت ما في نفسي من إحساس بالراحة من كون ميريت بعيدة.. اكتشفت أنني شخصٌ جبانٌ أخشى المواجهة وأنعمد الهرب منها دوماً.. لكنني قبلت أن أتعامل مع صفة الجبن بدلاً من أقل سوءاً من الخيانة.. ولم أكن لأسامح نفسي لو عدتُ إلى ميريت وخنث زينب.

ظلت المسافة تتباعد بين زينب وبينني يوماً بعد يوم.. وصار كلامنا شبه منعدم وانخرطت هي في عملها بالتدريس. ورحت أنا أقل الأيام بين الجامعة والماجستير والمقهى مساءً مع سباستيان ورفقاء جدد لا أعرفهم ولا أعرف أسماءهم ولا ماذا يعملون.. ولم أعد أذكر متى وأين تعارفنا.. لكنني كنت أقضي الوقت بصحبتهم بشكل شبه يومي بعد انتهاء الجامعة والكورسات الخاصة.. وأحياناً أخرى كنت أمر على سباستيان في الجريدة.

انتهت مناقشة الرسالة بنجاح وصرت على مشارف حلم التدريس  
كما تمنيت دومًا.. وكما تمنى لي جدي سليم رحمه الله.. وافقدته كثيرًا  
أثناء المناقشة الخاصة بالرسالة.

لكنني كنت أراه طوال الوقت في عيني زينب الفرحتين في صدق  
طوال المناقشة.. ورغم الجمود الذي كان بيننا.. إلا أنني كنت أشعر  
بالفخر كلما نظرت إليها في المناقشة.. وبعد إعلاني رسميًا حاصلًا  
على شهادة الماجستير وبعد تلقي المباركات.. عرض عليّ سباستيان  
القدوم مساء إلى شلة المقهى وقد اعتزموا تنظيم حفل صغير لي  
احتفالًا بحصولي على الرسالة.. وعرضت على زينب بشكل عابر  
أن تأتي معي إن أرادت.. لكنها اعتذرت في رفقٍ وعرضت هي عليّ  
الخروج مساء للاحتفال وحدنا إن أردت.. فقلت في غير نية حقيقية  
للذهاب:

-لا أمانع.. إذا سمح الوقت.

وفي مقهى البستان بأحد الممرات العتيقة بوسط البلد كانت  
تنتظرني مفاجأتان أحدهما سباستيان.. الأولى كانت احتفالًا مسليًا  
نظمه مع إحدى زميلاته في الجريدة والتي كانت من المداومات على  
الحضور معه إلى القهوة مع صديقين آخرين..

أحضروا كعكة صغيرة وبعض الهدايا التذكارية احتفاء بي.. أما  
المفاجأة الثانية فكانت ميريت التي فاجأتني وسط الموجودين..  
ووجدتها أمامي على نفس المنضدة.. وكانت تبسم في رقة وتلمع  
عينها الجميلتان في مكر.

مدت يدها الناعمة في سلام جاهدت ألا يكون حارًا.. وكانت  
يدها باردة بشدة وأبعدت عيني عنها ناظرًا إلى سباستيان في استغمام..

فلذا به ينسجم في بلاهة كعادته.. وهز كتفيه ومط فمه معلناً أنه لم يكن يعلم بقدومها.

لكنني لم أستطع أن أمنع نظرة اللرم الحادة التي رمقته بها.. ميريت لم تقرأ الغيب وتعرف عن وجودي هنا اليوم من نفسها بالتأكيد.. وترددت في اتخاذ قراراي بالرحيل أو البقاء.. لكن توتري البائن وارتعاشة يدي بعد سلامي عليها أنذراني بضرورة الرحيل، وأخذت أفكر في حجة أقوم بها من المقهى دون أن أتسبب في إحراجهم.. خاصة وأن التجمع الليلة كان معداً خصيصاً للاحتفاء بي.. مدت ميريت يدها بعلبة قطيفة صغيرة الحجم وقالت:

- ألف مبروك يا دكتور يحيى.

وعادت تبسم ابتسامتها القديمة.. وتنظر في وليه وكأننا كنا سوياً بالأمس.. تناولت الهدية من يدها مجبراً وشكرتها ولم أقم بفتح الهدية إلا أنها أشارت إليّ أن أفعل دون أن تتكلم.. وتعجبت من طريقتها هذه.. أعدت النظر إلى وجه ميريت وكانت دقات قلبي قد انتظمت وهذا انفعالي من مفاجأة رؤيتها بهذه الطريقة.. كانت تضع الكثير جداً من مساحيق التجميل على وجهها وطلاء شفيتها شديد القتامة بشعر كإنهما تديمان.. وأخذت أنظر إلى عينيها الجميلتين اللامعتين.. ثم أنظر ثانية إلى ملابسها المثيرة الملفتة وصدرها البارز المكشوف.. ثم أعاد النظر إلى وجهها وأصباغه الكثيرة مرة أخرى وقلت في سري: «لم كل هذا؟ كنت جميلة دون تجميل».. ووجدتها تحديق في عيني باستغراب شديد.. وتسبل جفنيها بطريقة قصدت أن تجعلها مثيرة.. لكنني وجدتتها مبتذلة بشدة.. ثم أرحت ظهري على مقعد المقهى وأشارت إلى صبي المقهى وطلبت قهوة مركزة.. وقبل أن يذهب قلت لها:

- أطلب لك قهوة معي؟

وكنت ابتسم بطريقة لم تفهمها وقد أربكها سؤال الذي خرج هادئاً تماماً.. وشكرتني في غير ود.. ثم عدت أناملها من جديد.. ولم أستوعب كيف ذهبت ميريت الجميلة من العالم الواقعي فجأة هكذا لتستقر فقط في ذاكرتي.. تاركة أمامي هذا المسخ الملوّن المبذل.. أم أن ميريت الجميلة كانت مجرد وهم ولم تكن واقعاً أبداً وما أراه أمامي الآن هو الواقع الوحيد.. ولم تكن الابتسامة تفارق وجهي طوال الجلسة.. وكنت أمزح معهم وأضحك وأسخر من كل واحد فيهم وأتحدث مع ميريت بعفوية شديدة وكأنها زميل عمل قديم.. أو كأنها أحد زبائن المقهى الغرباء.. وكان ارتباك ميريت يزداد كل دقيقة وقد أحست أنها لا تفهمني بعد أن بطل مفعول سحرها المزيّف فجأة؟.. أو أنها خافت مم قد فهمته.. وقد علمت أنها انتهت فعلاً بالنسبة لي.. بينما كان الأمر مسل جداً طوال الجلسة.. وأخذت أتعامل مع الجلسة الطويلة وكأنها لعبة ممتعة.. وإن كان في الأمر بعض من التشفي الذي لم أنكره أمام نفسي.. ولا أعلم لم أحسست فجأة برغبة شديدة القوة في العودة إلى المنزل.. ولولا ذلك لبقيت أمارس لعبتي المسلية هذه طوال الليل رغم القهوة شديدة السوء التي كان يقدّمها المكان.. وعندما استأذنت منهم وأشرت إليها بيدي مودّعاً كانت ابتسامة جديدة على وجهي ولم أعرفها من قبل.. وانصرفت إلى الممر الجانبى المؤدى لشارع طلعت حرب وأمام مقهى ريش وقفت أشير إلى سيارة للأجرة وجاء صوت ميريت من خلفي وكانت ممسكة بالعلبة القطيفة التي كنت قد تركتها على الطاولة وقالت:

- على الأقل افتحها.

فقلت لها:

- ليس لدي أي فضول لمعرفة ما فيها.

فقامت هي بفتحها وأخرجت منها ميدالية لأحد التماثيل الفرعونية  
وكان له رأس طويل مدبب وأذنان شديداً الطول، وقالت:

- ظنتها سوف تعجبك.. قال لي صاحب البازار أنه إله العاصفة  
القوي عند القدماء.

لم أستطع أنه أمنع نفسي من الابتسام وقلت لها:

- أنتِ أول شخص أعرفه يشتري ميدالية للإله «ست» كهديفة  
لأحدهم.. كلمة «إله العاصفة» هذه بديل مهذب جداً يا ميريت  
نستخدمه فقط مع السائحين.. «ست» عند المصريين هو إله الشر.  
وضحكت مرغماً ودون قصد حقيقي للسخرية منها.. وتركت  
الميدالية في يدها وركبت سيارة الأجرة التي توقف صاحبها أمامنا  
وقد جذبته بالطبع جسد ميريت المثير واتجهت مباشرة إلى المنزل.  
عند دخولي كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً.. ووجدت  
زينب تنظر إليّ متعجبة من قدومي مبكراً وقد ظنت أنني سوف  
أغيب عنها كالعتاد.. وظللت أنظر إليها وكأنني أراها للمرة الأولى..  
وقلت:

- ارتدي ملابسك سريعاً سوف نخرج سوياً.

ولم تصدق هي ما سمعت وابتسمت وأضاءت ابتسامتها الواسعة  
مزلنا الكتييب دوماً.. وكنت أبتسم لها أيضاً في صدق.. وقالت  
ونحن خارجان:

- ماذا بك.. تبدو غريباً.

ولم أرد.. نزلنا إلى شارع الشيخ رجحان وكان مزدحمًا كالمعتاد.. وأشرن  
إلى سيارة أجرة وسألت زينب:

- إلى أين تحبين الذهاب؟

- لا أعرف.. أنت غريب حقًا.. قل لي ماذا حدث لك؟

فأعدت السؤال، وكنت أضحك هذه المرة وسائق السيارة ينظر  
إلينا متعجبًا فأخذت زينب تفكر وقالت مرة أخرى:

- لا أعرف.. قل أنت.

فسألتها:

- ما هو أكثر مكان تريدين الذهاب إليه؟

فقلت:

- نفسي أعمل عمرة.

وأخذت تضحك وضحكت أنا أيضًا بصوت عالٍ وخُيِّلَ إليَّ أن  
السائق أطلق سببة لم أسمعها وانصرف مسرعًا.. وغرقنا أنا وزينب في  
نوبة ضحك شديدة ثم أعدت سؤالها لكن بجدية فأجابت:

- نروح الحسين.. شارع المعز.

فوافقت على الفور.. وتحركنا إلى شارع بورسعيد مشيًا وكان المنزل  
قريبًا منه ثم عبرنا الشارع إلى الناحية المقابلة وأشرت لأول سيارة  
أجرة لمحتها.. ودخلنا إليها وقال السائق:

- هل اتفقتما أخيرًا؟

وفوجئت بأنها نفس السيارة التي أوقفناها منذ دقائق.. فقلت لي  
أدبٍ وكأني أعتذر:

- الحسين بإذن الله.



وكنمت ضحكتي بصعوبة.

كان المكان مزدحمًا بشدة عندما وصلنا والناس تتخبط في بعضها البعض وسألني زينب:

- ألن تخبرني ماذا حدث لك اليوم؟

ولم أرد، وكننت أحاول أن أعبر بها وسط الحشود الكثيرة التي لم أكن أتخيل وجودها في هذا التوقيت.. وأحسست كأنتي والد لطفلة صغيرة يحاول أن يحميها من التيه وسط كل هؤلاء البشر.. بينما كانت زينب منكشمة في ذراعي تستمتع في نفس الوقت بالمكان.. وكل دقيقة كانت تشير إلى مقهى أو بازار وتطلب أن تدخله.. لكنني كنت أتابع في رفض وأقول:

- اصبري.. عندي لك مكان سيعجبك.

فتزوم بشفتيها في طفولة.. وظللنا نحارب الزحام حتى هدا أخيرًا عندما وصلنا إلى عطفة يبدأ عندها مسجد شديد الجمال سألتني عنه زينب فقلت لها:

- إن هذا هو الجامع الأحمر

وسألني:

- لماذا اسمه الأحمر؟ ما معناه؟

- حسب الكتب فالأمر عليه جدال.. أما ما أخبرني به جدي رحمه الله فالسبب هو نوع الأحجار البيضاء التي شيد منها، وقديماً كان انعكاس ضوء القمر عليها يجعل المكان كله قطعة جميلة من نور. ثم ابتسمت متابعًا:

- والعهد على جدي.

فقال زينب:

- أريد أن آخذ صورة أمامه.

وكانت الإضاءة لا تساعد على التقاط صورة واضحة بالهاتف الذي كنت أحمله وقتها إلا أنها ألحّت عليّ، وأخذت أحاول أن ألتقط لها عددًا كبيرًا من الصور ربما تكون إحداهن واضحة.. ومرر جوارنا رجل عجوز يدفع عربة صغيرة بيديّة أمامه وقد حمل عليها عددًا من الطرايش الطويلة.. فطلبتُ منه زينب أن يلتقط لنا صورة سوياً وأضعت وقتاً كبيراً أشرح له كيفية التقاط الصورة بالهاتف.. وبطفولتنا التي عادت إليها اليوم فقط، ابتاعت زينب أحد الطرايش منه وأخذت تتصور به أمام سور المسجد وعلى الرصيف الحجري المقابل.

عدنا نتمشى سوياً في شارع المعز وسألت زينب عن المكان الذي أبحث عنه وكنا قد وصلنا تقريباً.. وكان الزحام شديداً.. ربما أكثر من ذلك الذي كان عند ساحة مسجد الحسين.. وقلت لها:

- هذا هو بيت السحيمي.

وكانت إحدى فرق المولوية في أحد عروضها بالداخل وبدأ أنها سبب هذا الزحام الشديد.. فقالت بقلق:

- أتأت إلى هنا كثيراً؟

- لا.. مرات قليلة.. كان لي صديق يعمل إدارياً في هذا المكان فكنت أزوره أحياناً.

فنظرت في عدم تصديق لكني ابتسمت وقلت:

- أتسكن في يازينب؟

لكنها لم ترد على سؤالِي.. وجاهدت في صعوبة كي ندخل وسط

هذا الزحام الشديد أمام الباب رغم تأخر الوقت.. وتسلك معها بصعوبة من أحد الأبواب الجانبية التي كنت أعرفها.. وردت زينب بصوت مسموع «مرات قليلة؟!» فابتسمت وأمسكت يدها داخلين إلى القاعة المزدحمة والتي كان العرض قد بدأ فيها.. ولم أعد أستطيع أن أسمع أسئلة زينب الكثيرة عن المكان من ارتفاع صوت الفرقة المؤدية.. وكل ما كان يشغلني هو الزحام الشديد ومحاولاتي المستعينة لمنع أي من الواقفين من الاحتكاك بجسدها وسط هذا الصخب، حتى صرنا ملتصقين تمامًا ويدها في يدي واندمجنا مع العرض وموسيقاه الرائعة، وكانت الفرقة تنشد «أكاد من فرط الجمال أذوب» على رقصات التنورة.. ولا يوجد مكان لقدم.. وبدأت زينب بعد اندماج طويل في القصيدة تضغط على يدي برفق كل فترة ثم بقوة شديدة وغاصت بجسدها كله تحت ذراعي.. فطوقتها بكلتا يدي وبدأ كان العازفين والمنشدين والراقصين جميعهم يقدمون العرض لنا وحدنا.. والتفتُ إلى زينب وكانت عيناها دامتتين والمنشدون يرددون مجتمعين في صوتٍ واحد:

«شاقني وجدي وجبك مطلب.. من شاقه حب الجمال يصيب»

وكان راقصو التنورة يدورون في وجد حولنا ويأخذونني مع زينب إلى أماكن لم نطأها من قبل.. وخرجنا متأخرين بعد أن انتهى العرض وكانت زينب متعلقة في ذراعي بقوة وتدمع عيناها كل فترة حتى وقفنا أمام بازار صغير يكاد صاحبه أن يغلقه وكان يضع عددًا من التحف والجرامافونات القديمة أمام واجهته في الشارع واستوقفني زينب وسألت صاحبه إن كان يبيع أسطوانات جرامافون فردَّ بالإيجاب.. وطلبت زينب أن أنتظرها بالخارج وغابت داخل البازار لدقائق قليلة ثم خرجت وكان معها أسطوانة لأسمهان.. ثم تحررنا عائدين إلى

البيت.. ووجدتني قد اشتقتها.. وفور دخولنا انهلست عليها تقيلاً  
فقابلتني قبلي أكثر سخونة وانفرط حبل جموحنا تلك الليلة حتى  
صرنا نكتشف ما في أجسادنا من غريزة كامنة للمرة الأولى، وكان  
عطشي إليها شديد فكانت تسقيني في كرم حتى أنهكنا جسدينا بشكل  
بالغ، وفور أن هاجمتني ذكرى قبليتها الأولى لي في الشرفة منذ سنوات  
وجدتني أطلب جسدها مرة أخرى فأقبلت ملبية في شوق.

انقلبت حياتي وزينب في ليلة واحدة فصرت شخصاً جديداً لم  
أعرفه من قبل وعادت إليّ زينب كاملة كما عرفتُها قديماً.. وصرت  
لا أصبر على الابتعاد عنها كثيراً وأعود إليها في لهفة متجددة كل  
يوم.. ووجدتني قد وقعت في حب زوجتي بعد أكثر من عام من  
الحياة الرتيبة الجافة.. وأخذ وجهها يضيء نوراً وجمالاً ويزداد بريق  
عينها حتى صارت روحها تضيء المنزل من جديد بعد أن استقرت  
فيه الكآبة لأعوام طويلة.. ولم أدرك كيف كنت غيباً ومغيباً كل هذه  
السنوات الحزينة؟

في إحدى الليالي الطويلة من ليالينا الشبقة قلت لها بعد أن انتهينا  
أنه يجب أن نبدأ في التفكير بالإنجاب.. ووجدتها قد ارتبكت قليلاً ولما  
سألتها عن سبب ذلك قالت:

- أرجو أن تسامحني.. عندما تزوجنا كنت أشعر أنك لم تكن لي  
أبداً.. وكنت أتناول أدوية لمنع الحمل.. فلم أكن أعلم إلى أين  
ستذهب بنا في هذا الزواج.

ولما وجدتني تحاول الاعتذار مرة أخرى عن ذنبي لم يكن يخصها  
من البداية، تناولت يدها وقبلتها وسألتها المغفرة.. وقد تفاجأت أنني  
لم أسأل نفسي من قبل لماذا تأخر موضوع الإنجاب هذا.. فاكشفت  
أنني لم أكن أفكر فيه من قبل.. وقد كنت بالفعل مغيباً عن حياتي

لحقيقية.. وعن كل ما هو رائع بين يدي.. وأخبرتني أنها توقفت  
عن تناول هذه الأدوية منذ شهرين تقريباً.. فاقترحت أن نذهب إلى  
زيارة الطبيب ولو بشكل روتيني فوافقت.

أخبرنا الطبيب بعد كشف عادي أنه لا توجد أي مشاكل ظاهرية،  
وطلب منا بعض الاختبارات العامة لي ولها وإعادة المرور بعد  
أسبوعين.. وبدأنا نفكر أنا وزينب ونتحدث في موضوع الإنجاب  
بشكل مستمر، وقالت إنها تمنى لو تنجب بشئ.

أخذ الطبيب في زيارتنا التالية يتفحص النتائج الخاصة بتحليل  
زينب لفترة طويلة وبدأ القلق يغزو وجهه.. ثم أخذ يسأل زينب  
عددًا كبيراً من الأسئلة الغريبة ولم تكن لها أي علاقة بموضوع  
الإنجاب.. ثم استأذنها أن تنتظرنا في الخارج للانفراد بي.. وقال في  
لمحة بها نوع من المواساة:

- هناك ارتفاع خفيف في عدد كرات الدم البيضاء.. أنصحك  
بالنوجه لمختص في أمراض الدم فوراً.. الآن لو تستطيع.

سألته وقد كنت لا أفهم أي شيء مما يقول:

- أعني أن هناك مرضاً ما بالدم يسبب عدم القدرة على الإنجاب؟  
فردت في نفس الأسى:

- لا علاقة لموضوع الإنجاب هنا بما أقول.. المشكلة أكبر من  
ذلك بكثير.. طبقاً لهذه التحاليل والفحص البدني.. قد يكون  
هناك أورام حادة بالدم.. الموضوع ليس في نطاق اختصاصي بالمرّة..  
لا بد من اختصاصي لأمراض الدم فوراً.. وكذلك إعادة التحاليل..  
وأصف عليها ما سأطلبه منك.. لكن إن كانت هذه النتائج حقيقية  
فالامر غير مبشّر.. أرجو من الله أن يكون ظني خاطئاً..

ثم صمت ولم أستطع أن أستوعب منه ما يقول، وحاولت أن  
أستفسر أكثر لكنه أكد على أن زيارة طبيب أمراض الدم هي التصرف  
الوحيد السليم حالياً.... ورشح لي عددًا كبيرًا من زملائه.. وخرجت  
إلى زينب ووجهي يتحدث وحده عن كل شيء.. وكل ما استطعت قول  
لها أن الطبيب وجد شيئًا غريبًا في الفحوصات لم يستطع تفسيره..  
فانكمشت زينب في نفسها وعلمت أنني أخفي عنها شيئًا كبيرًا..  
وتوجهنا إلى عيادة أقرب طبيب لأمراض الدم.. وفور اطلاعه على  
الفحوصات التي كانت معنا رفض أن يعلن أي تشخيص ولو كان  
مبدئيًا إلا بعد عمل عدد كبير من التحاليل والأشعة التي ملأت  
الروشتة التي أعطاها لنا.. ولم تعد زينب إلى أي من الأسئلة الكثيرة  
التي كانت تفتلها.. لكنها التزمت الصمت التام وظلت تمسك يدي  
في خوفٍ شديد، وكنت أتعلق بيدها وقد تهت تمامًا.. وعندما دخلنا  
إلى البيت هربت إلى الحمام سريعًا ورحت في نوبة بكاء لم تنته أبدًا..  
وانتهى بنا الأمر بعد ستة أشهر من العلاج الكيميائي والإشعاعي  
والفحوصات والمزيد من الفحوصات إلى جسد ممتص هزيل ذبل كل  
ما كان فيه من محبة وحياة.. وفي تلك الليلة السوداء كانت زينب ترفد  
جواني وقد استسلمت لمصيرها، واستسلمت أنا ليأسي ودموعي،  
وقالت وهي ممسكة يدي في ضعفٍ شديد: «لا تحزن».. فكننت أقبّل  
يديها وقدميها وأبكي كطفل تائه ووحيد، وكان عجزني يقتلني وقد  
اقتصر دعائي أن تنام دون الألم اليومي الشرس الذي يهاجمها ويقتلني  
جوارها.. وقالت وقد بدأت عيناها تغيبان في استسلام للنوم:

-ماذا كانت تقول تلك الأغنية في الحسين؟

وحاولت أن أتذكر وقلت بآكيًا:

- كانت تحكي عن جمالك يا زينب.

لكنني لمحت انعكاس وجهها الذابل في المرأة وقد راحت في نوم  
هادئ أخيراً فحمدت الله كثيراً، ثم احتضنتها برفق شديد ونمتُ إلى  
جوارها من فرط إرهاقي الطويل.

جاءني جدي سليم في نومي وكان وجهه مضيئاً تملاه ابتسامته  
الطيبة وكان يشير بإحدى يديه في ببطء وهو يقول مكرراً: «لا تحزن..  
لا تحزن».. وقُقت من النوم على برودة شديدة في جسد زينب بين  
ذراعي.. وكان انعكاسها ما زال أمامي في المرأة وقد غادره الشحوب  
الأخير إلى الأبد.. وبرزت عروقٌ رفيعة وخط بياضه الجديد. وخفت  
أن أنظر إليها مباشرة جوارِي، وبقيت أراقب وجهها الساكن في المرأة  
وأبكي في صمتٍ ثم خائني صوتي وعلا نحيبي وهزتها في عنفٍ  
منادياً عليها، وكانت قد رحلت نهائياً وبقيت وحدي مع حزني  
ووحدي إلى الأبد.

في العزاء الصغير كان سباستيان هو آخر الراحلين من البيت..  
وودت ألا يرحل ويتركني وحدي في الشقة ولم أعرف كيف أطلب  
ذلك منه.. ورحل الجميع وصرت وحيداً لا أفهم ماذا أفعل.. أقوم  
من نومي أبحث عن زينب في الشقة فلا أجدها فأظل أنادي عليها..  
وعندما لا ترد أرتدي ما أجده متاحاً من ملابسِي وأخرج أبحث  
عنها في الشارع بين أوجه المارة وفي انعكاسات وجهي أمام فاترينات  
المحلات التي كنا نقف أمامها سوياً في الماضي، ثم أتعب من البحث  
فأعود إلى الشقة الخاوية.. أترك أنوارها جميعاً مضاءة من شدة الوحدة  
والخوف.. ثم أنظر إلى وجهي في المرأة لأجدها راقدة جوار انعكاسي  
فيها.. فأعود لأبكي.

أدارت الحياة وجهها الطيب بعيداً عني تماماً.. وسلمتني إلى وجه  
فيسح لم أعرفه من قبل.. واستسلمت ليأسي في ضعفٍ ورضا.. وجاءني

الإنذار الأول بالفصل من الجامعة بعد أن نفذ صبرهم الطويل على انقطاعي.. وكان سباستيان لا يتركني كثيرًا.. وداوم على زيارته المستمرة محاولاً انتشالي من الغرق في دوامة حزني هذه لكنه لم يستطع أن يفعل لي أي شيء.. وأحيانًا ما كنت أنفعل عليه وأعامله بقسوة كلما ألح عليّ في عدم الاستسلام.. أو ألح عليّ للخروج.. وفي مرة فقدت أعصابي وقمت بطرده من المنزل.. وبعد أن فقت من ثورتي حزنت أكثر على ما فعلته معه من تكرار للجميل.. فعاودت الاتصال به ورفض أن يقبل الاعتذار ما لم أخرج لمقابلته" على المقهى أو في أي مكان أريده.. فقبلت.. وعدت أنظر إلى وجهي في المرآة بلوم شديد ولم أقم بهتذيب هيتي وارديت ما وجدت من ملابس وخرجت إلى ملاقاته. رحلت أتمشى في وسط المدينة أراقب الأرجح في فضول ومقت.. كانت الشوارع شديدة الازدحام.. والناس كلهم على عجلة من أمرهم.. أوجههم جميعها عابسة كثيفة ربما أنتشر من وجهي.. وكان وجه المدينة قبيحًا.. فيبْحًا إلى درجة منفرة. وأبذت أعجب من قول جدي سليم دائمًا أن بلدنا «جميلة».. وقلت مخاطبًا إياه في غضب: أي جمال وسط كل هذا القبح؟ وسألت نفسي: أي بلادٍ كان يقصد جدي؟ وأين ذهب هذا الجمال الذي كان دائمًا يتحدث عنه.. أم أن زينب قد تكون أخذته معها عندما رحلت؟

ووجدت عيني لا تلتقط من الشارع إلا كل ما هو سيء مشير للغضب.. ملابس الشباب والفتيات أشبه بمهرجي السيرك.. تقليعات عجبية تحت مسمى الموضة.. تحرش وشجار ونظرات جوع في أعين الجميع.. وتعجبت تمامًا.. أحدث للبلد هذا كله في تلك الأيام القليلة الماضية؟ أم إنني لم أكن أرى شيئًا قبل رحيل زينب؟ ولم أستطع أن أتحمّل الجلوس مع سباستيان على المقهى لأكثر من



نصف ساعة واعتذرت له كثيرًا قبل أن أنصرف.. وعدت سريعًا إلى المنزل وقد حسبته أكثر رحمة.. لكنني فور دخولي عادت إليّ هواجس الوحدة وأنياب الخوف. وعندما عدت أنظر إلى المرأة وكان وجه زينب متظرًا، قمت بتغطية المرايا في الشقة كلها ولم أعد أستطيع أن أتحمّل النظر إلى وجهي الذي صرت أكرهه.. ولم أعد أحتمل ذكرى زينب الراحلة في تلك الليلة الحزينة الباردة.

حاولت مرات ومرات الاندماج ثانية في الحياة.. لكنني كلما خرجت إلى الشارع وجدتنني أصاب بنوبات من الاختناق والهلع الشديدين حتى أصبحت لا أتحمّل منظر الشوارع والعابرين من المارة والجالسين على المقاهي.. وأحسست أنني أعيش داخل مسخ كبير اسمه القاهرة.. وعندما حاولت العودة للجامعة صار الجميع يتأفف من ضيق خلقي وقلة ذوقي الواضحين.. وأصبح الدكتور يحى الطيب رمزًا للمشاكل والخلافات في الكلية ووجهًا مكروهاً لدى زملائه من الأساتذة والمعيدين بالقسم، حتى تعاملاتي مع الطلبة صار يشوبها نوعٌ شديد من الإهمال واللامبالاة في مسئولياتي تجاههم.. فصارت سمعتي باللغة السوء لدى الكلية فعدت للانقطاعات المتكررة.. وقبل أن يأتيني إنذار جديد بالفصل قمت بتقديم استقالتني وذهبت إلى عددٍ من شركات السياحة أعرض عليهم خدماتي.. وكان طلبي الوحيد هو العمل في أي مكانٍ بعيدٍ عن القاهرة.

بدأت العمل أولاً في شركة صغيرة ألحقتنني للعمل في طابا، ومن طابا إلى سانت كاترين، حتى استقر بي المقام في كامب وادي حبيبة بالغردقة.. وجدت جزءاً من نفسي في الصحراء.. لم أستطع أن أتقبل نفسي بالكامل.. لكنني في نهاية الأمر ومع مرور الوقت وجدت طرقاً عديدة للتعايش معها.. كان إحساسي القاتل بالذنب تجاه زينب

يقتلني في البداية.. إلا أنني استسلمت لإرادة الله في النهاية.

«لكنني لم أستطع أن أنظر في وجه امرأة أخرى من بعدك يا زينب.. حتى جاءت ياسميناء.. منذ التقينا في بازار عارف وشيء قوي يدفعني بعنف شديد إليها.. شيء لم أفهمه إلى الآن.. أحياناً كنت أشعر ونحز معاً أنها تتكلم بروحك يا زينب.. وتعاتب وتلوم بلسان جدي.. حتى إنها كانت عندما تمزح تذكرني بسباستيان. كل أرواح من عرفهم في حياتي كانت تحملها ياسميناء معها.. وتظهرها وقتها تشاء.. وكيف تشاء.. وعندما كانت تصمت أو تحزن فإنها كانت تحزن مثلي يا زينب. وتصمت مثل صمتي.. وقبل أن أشعر أنه ثمة ما يمكن أن يعيد لي الأمل في حياة جديدة.. وجدتها تخدعني. تعلقت بأمل بدا جميلاً في بدايته لكنه انقطع في النهاية.. ساءلك الله يا جدي.. قلت لي قبل رحيلك ألا أفكر في مشقة الطريق.. وأن أفكر في متعة الوصول.. وما هو الطريق قد طال.. طال كثيراً يا جدي حتى صرت منبوذاً في الصحراء.. فلما أين أذهب بعد ذلك.. وأين وكيف يكون الوصول؟»

انتصف الليل وأنا غارقاً في أفكاري بين الماضي وياسميناء، حتى سمعت صوت سيارة تتوقف أمام الغرفة.. بعدها جاء صوت طرقات قوية غاضبة على الباب، وعندما فتحت وجدت ياسميناء أمامي، وكانت تحمل في يدها مجموعة من اللفائف دخلت وألقت بها على المنضدة جوار الجرامافون وقالت في غضب:

- كنت سأخبرك بكل شيء.. لكنني لم أعرف متى كان يجب أن أفعل ذلك.

ونظرت إلى رابطة العنق الملقاة على الأرض في أسفٍ بالغ وقالت وهي تشير إلى اللفائف:

- ماتت جدتي رُوز من أجل هذه.

ثم خرجت من الغرفة في نفس الغضب تاركة بابها مفتوحًا.  
بقيت واقفًا في مكاني لا أفقه شيئًا مما قالت.. ثم ذهبت وأغلقت  
الباب ورحت إلى اللفائف أتفحصها.. فوجدتها مجموعة عريضة  
مطوية حول بعضها وملفوفة بعناية في أكياس بلاستيكية شفافة..  
وفور أن أخرجتها وجدت لائف من أوراق البردي مكتوب عليها  
بالهروغليفية، وعندما لمست أولها ونظرت إلى الأحرف التي فوقها  
عرفت فورًا أنها برديات أصلية وليست مقلدة.. فهالتني المفاجأة..  
قمت مسرعًا إلى باب الغرفة وتأكدت من إحكام إغلاقها بالمفتاح  
من الداخل ثم عدت إلى البرديات أتفحصها.. مررت بعيني فوق  
بدايتها وقرأت في السطر الأول الكبير

«الأول العظيم من ثلاثة»..

ثم في السطر الذي يتبعه:

«أنا الزعفرانة.. أنا الجميلة فوق كل جميلة»..

ثم مررت سريعًا بعيني فوق بقية الأسطر في البردية الأولى  
فوجدتها قد زُينت بالنقوش والخراطيش الملكية التي أعرفها جيدًا  
للمسوك الدولة الحديثة في العصر القديم.. وأخذ عجبي وفضولي  
يتفاحمان حتى زاحماني في الغرفة.. تفحصت البرديات أكثر بين يدي  
وكانت من القطع المتوسط أو الصغير للكتابة في ذلك الزمان..  
نظرت إلى زينب في المرأة خلفي مرة أخرى وكانت تنظر في ترقب..  
ثم أخرجت كل الأفكار من رأسي قدر ما استطعت وأحضرت  
أوراقًا وقلماً، ثم جلست لأدوّن ما أترجم.



(٦)

## الزعرانة

«الأول العظيم من ثلاثة»

١

أنا الزعرانة.. أنا الجميلة فوق كل جميلة.. أنا التي رضي الإله ملكي وما  
رضيت.. أنا التي تقدّست أسمائي وتجلّت ألقابي من الشمال إلى الجنوب..  
فبذت هذا كله وسعيت مع مَنْ آمَنَ بي نحو الشرق.. حيث يمكث رب  
الشمس والمها «رع» طوال الليل يدير لنا سُبُلنا في النهار.. فنقتات من عطفه،  
أو نتصارع من غضبه.. أنا التي حُمِلت فوق ما حُمِلَ من في مثل قداسي.. لما  
ضعفت وما خنعت.. وعندما حاول أعدائي دس السم لي قبل أن أكشف  
خياتهم.. قلبت الأمر عليهم.. وتركت لهم الشر ينعمون به ما شاءوا وكدت أن  
أُتصر.. وثُرت ثورتي الكبرى ساعية أكثر إلى الحقيقة.. فأقسمت أمام «رع»  
المقدس ألا أهدأ حتى أصل إلى قلب الحقيقة.. وإلا ما استحققت نسيي إله  
بكميلته التي يحب.. ومفضلته بين من سبقني من الأميرات.

أنا جميلة الإله «نفرو- رع» ابنة سيدة الأرضين الحرة. النبيلة في ملكها،

موهبة الحياة والبقاء الأبدي على عرش «حورس» الذهبي. أنا ابنة جلاله  
الملكة العظيمة المعظمة. خليفة آمون المقدمة على الأميرات.

أنا الأميرة «نفرو-رع» ابنة الملكة المقدسة دومًا «ماعت-كا-رع-  
حشسوت».

أنا الزعفرانة.

خبرتني أمي الملكة «حشسوت» في مهدي المقدس الأول أن أبي الملك  
«تحتمس الثاني» قد زاره طيفٌ في حلم خافت بعد نوبة تعبٍ طويلة وقد  
نبأه الطيف بقدومي.. فما كان منه إلا أن ابتهج ابتهاجًا لم يعهده.. وقام بنشر  
الصلوات في أرجاء القصر الملكي.. وبشر الشعب العظيم بالنبوءة الرائعة..  
ولم تلبث أن تباركت بطن أمي المقدسة.. وأعطى رب الأرباب الإذن لي  
بالقدوم.. فجئت.

سألت وزير القصر الحكيم «سن-موت» ذات مرة بعد أن انتهينا من أحد  
الدروس التي اختصته جلالة الملكة بتقديمها لي وقلت مستغرة عن سبب  
اسمي.. فقال إن جلالتها هي من اختارته لي.. وردد بتبجيل «أنت جميل مرآك  
يا «نفرو-رع» منذ جئت إلى الحياة.. وتبارك هذا القصر بممالك منذ ذلك  
اليوم العظيم».

عُهدت أمي ومولاتي الملكة «حشسوت» إلى ستموت الحكيم برعايتي  
منذ المهد.. وكان أن اختصتني بذلك وحدي.. فلم تنعم بذلك أختي  
«ميرت-رع».. وبالطبع لم يمنح تلك الرعاية «تحتمس الثالث» ابن أبي. وأُنهي  
من المحظية «إيست» والتي كان يفضّلها أبي الملك عن سائر المحظيات..

ولم أكن أعلم لذلك سبباً سوى رغبة الملك المقدس في أن يحظى بكدي الأكبر  
بابن ملكي يرث الأرض ويملك العرش من بعده.. وكانت أمي جلالة الملكة  
لم تمنحه الإبن الذكر. لكنني عندما كبرت نفث لي أمي الملكة ذلك.. وقالت  
جلالتها إن «إيست» أعجبت والدي الملك فقط.. ولم يكن يسعى إلى المزيد  
من الورثة.. خاصة أن «إيست» لم تكن من دم ملكي صافٍ مثلي ومثل  
«ميريت» وبالتبعية فإن «تحتمس الثالث» ابن أبي من «إيست» محروم من  
الصفة الملكية.. لكنني لم أكن أستوعب ذلك كثيراً.. فقد كانت أمي الملكة  
أجمل جميلات القصر.. وإن قارنتُ جمال «إيست» بها فكأنني كنت أقارن  
الثور المحتلء بالفزال الرشيق.

فارقنا أبي الملك وأنا صغيرة.. لم أكن قد رأيت سوى خمسة فيضانات للئيل  
العظيم.. وذهب أبي إلى حياته الأخرى ليظفر بالنعيم الأبدي.. وكان هذا في  
نفس العام الذي ولدت فيه أختي «ميريت» التي جاءت بعد موته مباشرة في  
نفس الحريف.

بينما كنت أنا أكبر من «تحتمس» ابن أبي بفيضانٍ واحد.. لكنني كنت  
أيضاً.. كما أخبرني «سنموت» الحكيم - الأكثر ذكاءً والأكثر جمالاً.. وكيف  
لا أكون.. وأنا جميلة جميلات الإله رع؟!

كانت لي خصلة شعر ذهبية نادرة نبتت وسط شعري الأسود الليلي بعد أن  
ولدتني أمي.. وحكى لي الحكيم «سنموت» أن أبي الملك كان قد قام بإزالتها  
بمقصٍ ذهبي وأنا وليدة عندما لمهما فوق رأسي أول مرة.. بل وتشام منها  
لأن مرآها قد ذكره بلون شعر «أبناء بحر» الذين طالت حروبنا معهم. ولم يكن

بتبي تمردهم عليه وعلى جدي من قبله. وبعد أن مات أبي الملك. وجلست  
الملكة أبي مكانه على العرش. وأخذت الوصاية على «تحتمس» والذي لم يكن  
قد جاوز الأربعة فيضانات.. أحبت أبي هذه الخصلة. وقد كان لونها يمزج بين  
الأصفر الذهبي تحت شعاع رع المقدس نهاراً، والأحمر البرتقالي كقرصه النيل  
عندما يذهب مساءً.. وقالت لي سيدة الأرضين وأنا صغيرة:

- ليتقدس اسمك يا «نغرو»، أنت جميلة جميلات الإله.. لقد اصطفاك  
رع دون جميع الأميرات من دمنا المقدس، ومنحك لمسة مقدسة من يده  
الطاهرة، طبعها تاجاً على جانب رأسك كي يصحبك نوره أينما ذهبت.  
ثم دلتني ناطقة باسم الزعفرانة. تيمناً بتلك الزهرة الجديدة التي اكتشفوها في  
إحدى الحملات التأديبية التي قام بها جدي الأكبر «تحتمس الأول المقدس»  
والتي كانت خصلة شعري تتلون بلونها تحت شعاع رع المقدس.. وصار اسم  
الدلال يني وبين أبي لفترة. ثم شاع بعد ذلك بين جدران القصر. حتى صار  
اسماً لي.. مثله مثل اسمي الملكي.

في ذكرى مولدي الثامن.. كانت الملكة قد أحكت قبضتها على العرش  
وصار كل من بالقصر من الكهنة والنبلاء في طيبة يذكرون اسمها جنباً إلى  
جنب مع اسم الآلهة.. ونجحت في إنهاء عصر الفتوحات الذي كان قد بدأه  
جدي منذ عقود. وقالت في حزمها المعبود للنبلاء المجتمعين والمعارضين على  
قرارها الحكيم:

- لقد ولى الهكسوس إلى غير رجعة منذ زمن، ولم تعد التمررات تشكل  
خطراً علينا حتى في أقصى الأقاليم البعيدة.

ثم قامت من جلستها وصاحت بصوتها الذي كان يشق أعنى القلوب من الخوف:

- لقد حان وقت العمل الحقيقي؛ فن أراد بقي، ومن اعترض فلاني سوف أكون أكثر كرمًا مع التماسيح في «حابي» تلك الأيام.

لم تكن أمي ملكة قاسية لكنها كانت امرأة قوية.. أو هكذا كنت أراها دائماً.. كما أنها كانت أمًا عظيمة، ولم أكن أحب لجلسات البلاط الملكي.. كان رأيي يتصدع من زحام الأرقام وتفاصيل الجبايات ومناقشات جامعي الضرائب، وخلافات القادة العسكريين التي لم تكن أكثر سوءًا من نزاعات الكهنة معها في معبد آمون. وعندما كنت أشتكي لـ «سننموت» وكلّي خوفًا من أن تسمعي كان يقول:

- هذا واجب من واجبات الملكة. أم أنك لا ترين «ميريت» أختك التي تجلس دومًا تحت قدميها؟.. وكذلك ابن أهلك الجالس دومًا إلى جوارها على العرش

فكنت أضحك وأقول:

- وكأنه يفهم ما يقولون.

- يومًا ما سوف يفهم يا بني، ويجب أن تفهمي أنت أيضًا كل شيء.. أنت الأكثر ذكاءً وجمالًا ونبلًا.. أنت الدم الملكي العاصي.. ويجب عليك أن تستعدي باكراً لمسئولية الحكم، فبعد سنوات سوف تصبحين الزوجة الملكة لـ «تحتمس» الابن.. وتجلسين إلى جواره على العرش مكان جلاتها.

فرُحْتُ أقول:



.. زوجة ملكية.. لمن؟ لأخي ابن أبي؟ أنا لا أحب أن أكون زوجة ملكية.

وكنْتُ أُمس في سِرِّي حتى لا يسمعي سوى «رع» العظيم: «أنا أحب القمر.. وأحب الموسيقى».

وكان «سنموت» يستاء من ردي كل مرة، ويظل يقول أنه يوماً ما سوف أكبر وأدرك مسئولتي وواجباتي تجاه مصر، وتجاه انشعب، مثلما فعلت أي بعد أن مات أبي الملك.

كنت أحب «سنموت» وأثق في حكمته أكثر من أي شخص في القصر.. كان أباً إلهياً لي دون أن أخبر بذلك أحداً سوى «رع العظيم».. ومنذ مهدي كانت قد أسندت إليه مهمة حمايتي وتنشئتي.. وكنْتُ أبتهج من مرآه وأجزع من رجليه. كنْتُ أحب هدوءه حين يتحدث وينطق بلسان فيه من حكمة الآلهة ما فيه.. وكان دائم التطيب بأجود وأنظر العطور التي كانت أنفي تتادها وتحبها حتى إنني كنْتُ أميز رائحة عطور أبي بين ثيابه كثيراً، وكنْتُ أحب اقترابه كلما شق عليها مجالستي لانشغالها بشئون الحكم ومشقته، وكان «مختس» ابن أبي ينشغل بأمور السيف والرمح. وتنشغل «ميريت» بزيئتها لكن يومي الحقيقي كان يبدأ عندما يسمح لي «سنموت» الحكيم بحضور دروس الموسيقى مع العازفين المهرة على القيثارة.. أحب الآلات إلى قلبي وأكثرها طرباً، حتى كنْتُ لأشعر أحياناً أنها صوت السري لـ «رع» المقدس وقد هبط إلى حديقة القصر حيث كانت تبدأ الدروس. والتي كانت تؤنس حياتي المملة في القصر، وكان حرمانني من حضور دروس الموسيقى عقاباً عبياً لدى الملكة إذا ما أهملت في دروس الحساب ودروس الإدارة العامة..

خاصة أن مَنْ كان يعطيني هو رئيس الديوان الملكي للتعليم بنفسه.. وقد كنت أكرهه، ولا أطيع صبراً إذا ما جاء موعد الدرس الخاص بالموسيقى فأضع زيني وأومتي وأنتقل فرحة إلى حيث كانت العازفات ينتظرنني، وإلى حيث كان يوجد الصبي «حور».

آه يا ربّ الالهي المقدّس.. ماذا أقول عن «حور» الطيب.. «حور» الجميل ذو الدراع القوي والساق الطويلة والأعين السوداء المكحلة بالأحجار المقدسة والتي كان اتساعهما يشملي في أوقات دروس الموسيقى. حتى إنني كنت لأرى انعكاسي فيهما وأحب النظر إليهما كثيراً.

كان الجميل «حور» أكبر مني سنّاً، وشهد هو موسمين من الربيع قيلي.. جلبه الحكيم «سننموت» بعد أن صار كبير خدام آمون.

كان الجميل «حور» صامتاً دائماً لأنه وَلِدَ أصمّاً لا يسمع ولا يمكنه الكلام. وقد اختاره «سننموت» الحكيم لهذه المهنة تحديداً لكي يكون حارساً أميناً لي أنا وأختي «ميريت» الصغيرة، ولم تكن تحب دروس الموسيقى ولعب القيثارة بعد أن أدمنت جلسات البلاط الملكي جوار جلالة الملكة، بينما كان «تحتمس» ابن أبي قد أدمن ألعاب المبارزة والنحرط فيها أيّما النحرط، لكن أمه «أيسيت» كانت تجبره دوماً على عدم تفويت جلسات البلاط مع أمي الملكة.. لأنه الحاكم والفرعون المنتظر.

كان الجميل «حور» أكثر مني طولاً، يقف دائماً عاري الجذع، حلق الرأس، يبرق جمالاً تحت أشعة رع المقدسة.. يظل طوال دروس القيثارة واقفاً قبالي ضاماً ذراعية إلى صدره حتى إذا ما احتجت شيئاً لبأه لي بمجرّد

الإشارة.. وقد كان يفهمني دون كلام.. يقف في عزة وشموخ أمام كل  
الوصفات الجميلات وكأنه أمير نبيل.. حتى إذا ما جئت أنا، انكسرت حدة  
شموخه.. ونظر إليّ في ابتهاج وخشوع وكأنه يتعبدني..

عندما كنت أقوم بالعزف على قيثارتى الذهبية كنت لا أنقطع عن النظر  
إليه. فإن جاء عزفي طرباً حسناً وجدته يتسم في إجلال واستحسان رغم أنه  
لم يسمع شيئاً.. وإن جاء أدائي مبعثراً قلقاً وجدته ينظر إليّ في تشجيع وحث  
على المتابعة.. وأحياناً كان يخالف قوانين القصر بمخاطبة الأميرات عن طريق  
الإشارة؛ فيومئ إليّ أن عاودي مرة أخرى، فأستعيد حماسي وأجدي قد  
منحت رشاقة ونعومة في يدي حتى يخرج عزفي رائعاً يطرب كل من حولي  
في حديقة القصر.. وبالتأكيد يكون «حور» أكثرهم طرباً لما لم يسمع.

طالت توسلاتي إلى أمي الملكة.. وكثرت صلواتي وابتهالاتي إلى إلهي  
الحبيب رع الذي خلق كل أشكال الحياة؛ كي توافق أمي على ترقية «حور» من  
زمرة الخدم الخارجيين للقصر وضمه إلى خدام الحاشية الداخلي لقصر الأميرات..  
حيث أمكث أنا و«ميريت»، وكنت قد مللت من الجارية الكوشية<sup>(٢)</sup> غليظة  
الصوت المستولة عن جناحنا. وضقت ذرعاً من ملامحها القاسية.. ولم تفلح  
أي من توسلاتي أو صلواتي في شيء، ولم يفلح مع أمي الملكة سوى ما كنت  
أعرفه مسبقاً.. الحكيم «سنموت» بالطبع، والذي أقنعه بذلك في سهولة..  
وقد ضمنه بنفسه لثقتة الشديدة في إخلاص «حور» وولائه لنا.

كان «حور» يشعر بي قبل أن أشير، ويوجد أمامي قبل أن أفكر في طلبه،

<sup>(٢)</sup> مملكة كوش: مملكة قديمة كانت في المنطقة من حوض نهر النيل الواقعة بين مصر  
والسودان حالياً

وكنْتُ أعتقد طوال الوقت أن الجميل «حور» تحركه الآلهة المقدسة وتتواصل معه أكثر منا.

كانت «ميريت» دائمة السخرية من عدم قدرة «حور» على السماع.. فكانت تسبه أمام الجوّاري بصوت عالٍ، وتظل تضحك معهم لعدم قدرته على الرد، حتى وإن كان يستطيع الكلام، فهو خادمها المطيع مهما كان تصرفها بذيلاً معه. وليس بيده شيء سوى أن يطيع ما يؤمر به.

في أي عمر بدأت أكره الذهاب إلى المعبد.. لا أعرف تحديداً.. لكن هذا كان بالتأكيد بعد الربيع العاشر، وكانت أمي لا تسامح في هذا الأمر أبداً.. ولم تكن تسمح لي أولاً «ميريت» بالتغيب عنه أبداً.. لكنها أحياناً كثيرة ما كانت تترك «تحتمس» يتغيب عن حضور الصلاة فيه.. وإن كانت أمه «إيست» سرعان ما ترسل به مع أحد الجنود خلفنا ليلحق بنا في الصّوات وأحياناً كثيرة ما كانت «إيست» تأتي بنفسها معه.. وتظل بعد رحيلنا جالسة مع كهنة المعبد لتوطد علاقة ابنها -ولي العهد المنتظر- بهم.. وكانت أوامر مولائي الملكة صارمة بشأن احتكاكها بها إذا ما واجدت معنا في نفس الوقت.. كانت أمي تنبه على الحرس بمنع الاختلاط مع «إيست» تماماً.. بل وتجرّمه.. خاصة بعد الإشاعات التي دارت في القصر عن سقوط بردية في يد حرس القصر قد أرسلت إليها رداً من أحد سحرة الشمال المنبوذين

يرع «تحتمس» ابن أبي في الصيد والقنص سريعاً.. يرع فيه إلى درجة أنه كان يذهب في حملات الصيد مع قادة الجيش قبل أن يشهد الفيضان الثاني عشر.. وعاد ذات مساء إلى القصر وفي يده رأس لبؤة كبير اصطاده من

صحراء الجنوب في رحلته الأخيرة، وكان أن قدّم الرأس لي كهديّة صرّده  
سالمًا من رحلته.. فرفضتها لمنظرهما الدموي المفرز.. ونهرتني أمي الملكة على  
ذلك.. وقبلتها منه نيابة عني بل وشكرته كثيرًا عليها، ثم أشارت إليه كي يقبوا  
مكانه جوارها على كرسي العرش.. وقالت لي مولاتي الملكة قبل أن أعود إلى  
غرفتي بقصر الأميرات:

- لا تتحمقي كثيرًا يا «نفرو» قريبًا سوف ألحق بأهلك الملك إلى عالم  
الخلود.. ولا بد أن أطمئن على مُلكك جوار أخيك من بعدي.

ولم أرد عليها، فلم يكن هذا مسموحًا.. فقط نظرت إلى «حور» الواقف  
وقد نظر أرضًا حيث لم يكن من المسموح له أن ينظر إلى قداسة الملكة  
مباشرة.. ثم انتظرت أن تذهب جلالتها ودخلت إلى غرفتي وأشرت إلى  
«حور» أن يتبعني، فدخل ورائي في صمت.

خلعت الأكاليل الزهرية من فوق رأسي، وزعت منها الأشرطة الكثانية  
حتى أترك شعري ينسدل على ظهري في حرية، ووقفت أمام المرأة أنزع  
الأقراط الثقيلة التي تورمت من أثرها أذني، وكان «حور» يقف خلفي بعيدًا  
أراه في المرأة في سكونه المعتاد.. قلت مخاطبة انعكاسه:

- لا أحد في هذا القصر يفكر سوى في رغباته.. وكأني غير موجودة.  
فشد «حور» على أسنانه معلنًا مشاركته استيائي مما يدور وتابعت وأنا ألتفت  
قائلة:

- لماذا أشغل بالي من الآن بالعرش والحكم؟!

مال برأسه مشاركًا اعتراضه.. ثم اقتربت منه في بطء، وقلت:

- أُمي الملكة بدأت تفكر في زواجي من الآن.. ألا ترى معي أنني لا زلت

صغيرة على الزواج.

ثم وضعت يدي حول خصرِي وهبطت بها على جانبيّ نظائري وتابعت:

قائلة:

- أعلم أنني قد بلغت حد الكمال في جمالي.

وشددت على صدري أمامه وبدأ مرتبكاً وأنا أقول:

- قل لي أنت ماذا ترى؟ هل تراني قد صرت أنثى ناضجة صالحة للزواج

والمعاشرة.

فزاد ارتباكهُ وابْتسم في تخرج، وكنت أحب كلامي معه في أموري الخاصة كثيراً.. بل ويسعدني كثيراً عندما أراه وهو يبتسّم النظر إلى ما قد يصير من جسدي بقصدٍ أو بدون قصدٍ أمامه.. ثم تركته وعدتُ إلى مرآتي أخاطبه فيها وتابعت:

- والآن ما العمل؟ الملكة تصر على زواجي من «تحتمس» أخي.. وهو

أمرٌ آتٍ لا محالة، شئتُ أم أبيتُ يا «حور» الطيب.. ماذا أفعل الآن ونحن لا

نحب هذا الـ «تحتمس» غليظ القلب الذي لا يتمتع شيء في الحياة سوى الذبح

والقتل؟

والنفت إليه وكان يتألمني في خشوع ولطالما أحبته عندما ينظر إلي ب تلك

الطريقة بعينه الجليتين الواسعتين وما بهما من كحلٍ أصيل.. اقتربت منه

ثانية حتى كدت أن أكون ملتصقة به.. وضعت أصبعاً على صدره وقلت له

وابتسامتي وعيني فيهما ما فيهما من خبيثٍ وغنيج:

هل تعلم أكثر ما يثيرني فيك؟ صدرك العاري دوماً هذا.

وبدأ «حور» المسكين يتنفس في سرعة ويتعثر نفسه كلما هبطت بأصبعي على جسده حتى ضحكته من منظره المسكين رغم اشتغالي أنا أيضاً له.. واستدرت في مكاني دون كلام وفردت ذراعي بطولهما إلى جانبي في إشارة معادة كي يسدل الرداء من على ظهري.. فأزاح الرداء من فوق كتفي يدي مرعشة أكثر من المرة السابقة.. وكنت أبتم في رضا وأنا أتأمله في المرأة وهو بالكاد يلفظ أنفاسه.. ثم تركته وانصرف نصف عارية وأنا أوليه ظهري إلى حوض الاستحمام في القسم الشرقي من الغرفة.. وظل مكانه حتى اختفيت عن ناظره ثم انصرف في صمت.

وبعد أن انتهيت من الاستحمام وقفت عارية أمام المرأة أتأمل جسدي وأتحصيه وقد فاضت مفاثه منذ أكثر من عام إلى الآن.. وقلت لنفسي: «ألم ين لهذا الجلال اليابس أن يرتوي؟».. ثم ثمت وأخذت أحلم بـ «حور» طوال الليل وقد صرنا شجرتين يافعتين أمام قرص الشمس هبطت أشعتها علينا فأثمرنا مريباً في آنٍ واحدٍ ثم خرج كلٌ منا من إحدى الثمرات ونحن عراة فامتزج كل منا بالآخر حتى تخلصت الأرض من تحتنا بما بقي منا فأنبت أشجاراً لتثمر من جديد.. وهكذا..

في اليوم التالي طلب مني «سنموت» الحكيم أن أحضر أنا و«ميرت» إلى جلسة خاصة بينه وبين جلالة الملكة في بلاط القصر.. ولما دخلنا عليه كان ساهياً ولم تكن الملكة قد حضرت بعد.. وسألته عما سيحدث فطلب مني أن أنظر حتى تأتي أمي.. وبعد قليل صاح الحارس:

- مولاي الملكة.. سيدة الأرضين.. العظيمة في قدرها «حتشبسوت».

ودخلت علينا الملكة فالحيننا جميعاً في تجميل حتى جلست جلالتها على عرشها وأشارت بيدها حتى انصرف كل من في القاعة الملكية ولم يبقَ غيرنا أنا وأختي «ميريت» و«سنموت» الحكيم وقالت جلالتها بعد تنهّد طويل:

- لقد عثر الحراس مرة أخرى على رسالة قادمة من أحد الكهنة المرتلين المنبوذين لممارسة السحر.. والرسالة قادمة من الشمال.

ثم قامت من مجلسها الذي لم تكن قد اتكأت عليه بعد وصاحت:

- البردية هذه المرة كانت ردّاً على أخرى تم إرسالها منذ فترة ولم يضبطها أي من الحرس!

وكانت تنظر بلوم شديد إلى «سنموت» الذي ارتبك فور أن علا صوت جلالتها وقال في أسف:

- لو تسمح لي جلالتها.. إن إخفاء البرديات هو أمرٌ يسير على أي شخص في القصر.. وإني لأرى أنه كان من رفق «آمون» بنا أن وجدنا هذه البردية قبل أن تصل إلى صاحبها.. وقد أراد بهما سوءاً كما ظهر من مضمون البردية.

وكان يشير إليّ وإلى «ميريت» ورددت جلالتها عليه في وقارها:

- أنا لا ألوّمك على التقصير الأمني يا «سنموت».. المسائل الأمنية في البلاد ليست في نطاق اختصاصك.. لكنك أنت من عارضت رأيي في البداية بالتخلص من تلك الحية التي لن تهدأ قبل أن تلحق الأذى بالصغيرات. والآن ها هي صارت كما يبدو على اتصال وثيق بكهنة السحر الذي حرّمته فور اعتلائي العرش.



ثم نظرت إلى الكرسي الملكي الشاعر جوار كرسيا وأكلت غاضبة:  
- والوصاية..

لم أكن أفهم ما يقصدون وعمن يتكلمون بحدithهم هذا فنظرت إليها بعيني  
فقط في تساؤل مستغسرة فقالت:  
- أسألي ما شئت يا «نفرو-رع»

قلت:

- من قصد جلالها بالحية التي لن تهدأ قبل أن تؤذينا؟

فأشارت يدها إلى «سننموت» كي يبينني هو فقال:

- قصد «إيست» من كانت زوجة أهلك الملك يا بنيتي ومولاتي.

فصاحت في صوت كاد أن يشق جدران القصر:

- محظية الملك.. لم تكن زوجة أبداً.

فراجع «سننموت» طالباً غفرانها وقال في اعتذار:

- لتسامحني جلالتك وليغفر لي «آمون» إنما قصدت ما قلته يا مولاتي.

ثم تابعت الملكة وهي تضرب على يد كرسي العرش:

- والآن.. بعد أن قويت شوكة «تحتمس» وتوطدت علاقته بقيادة

الجيش.. لم يعد من الممكن القضاء عليها بسهولة.. لقد قضيت سنوات عديدة

أدفع بهذا البلد نحو الاستقرار والرخاء.. حتى إذا ما حلت مواجهة صرنا في

صفوف المهاجمين لا المدافعين.. أما الآن.. وبعد أن صارت الحرب داخل

طوية وليست خارجها.. صار عليّ أن أقف ذليلة في موقف المدافع عن نفسه

وعن أهله.. لا في موقف من يهاجم ليبيد أعداءه!!

فسأل «سننموت» في ترقب:

- وما الصواب الذي تراه عظمتك حفاظًا على جلالتهما من شرٍّ قد يأتي؟  
- الكثير يا «سننموت».. الكثير.. لكننا سنبدأ أولاً بنقل الأميرين من مكانهما.. أريدهما أكثر قرباً مني بعد اليوم. لم يعد مكانهما آمناً الآن.. ولعلنا  
معي هنا في القصر ولا يأكلان ولا يشربان إلا بإشرافك أنت على ما يقدم لهما  
من مطبخ القصر وليرافقهما ضعف العدد من الحرس.. واجعل ضابطاً على  
رأس كل مجموعة من الحرس وابتعد عمن يدينون لـ «تحتمس» بالولاء... فهؤلاء  
أيضاً غير آمنين.

فرد «سننموت» في إخلاص:

- أمر جلالتك.

وقالت «ميريت» في فرحة:

- سيكون هذا جميل يا أمي.. القصر هنا أجمل وأوسع من الآخر.

فتظرت إليها أمي الملكة في لوم شديد وقالت بحزم:

- الأميرات لا يتكلمن في حضور الملكة دون إذنها، تأدبي يا «ميريت».

فردت أخوتي في حرج:

- عفوك مولاتي.. لم أقصد.

ولم ترد عليها أمي وإنما أشارت إليها بالانصراف عقاباً على سوء تصرفها

فانصرفت «ميريت» في غضب فشلت في أن تخفيه، وقالت الملكة بعد أن  
أغلق باب الديوان ثانية:

.. أما الأمر الثاني فسوف أنفذ ما اقترحته أنت يا «سنموت» منذ الفيضان الأخير.. لقد آن الآن الأوان أن نذهب إلى «بونت».

هنا أبدى «سنموت» الحكيم عجبه من قول أبي وسألها:

- «بونت» الآن جلالتك؟ لا أقصد أن أشكك في حكمة مولاتي لكن ألا تزن أن التوقيت الآن أصبح متأخراً على هذه الرحلة؟ سوف تكلف هذه الرحلة الكثير من النفقات.. وسيكون هذا مدخلاً للكهنة في المعبد للزيادة على القرارات الأخيرة التي تخص القصر.  
ردت أبي في هدوء:

- أعلم.. هذا ما سوف نعمل أنا وأنت عليه يا «سنموت».. سوف ندير سويًا كيف نجعل الطرح يأتي منهم أولاً.. ولن يكون قرارنا سوى استجابة لرغبات الكهنة.

- تأمرني حكمة جلالتك دائماً يا مولاتي.. لكن هل لي أن أستفسر كيف سيكون ذلك؟

عادت أبي إلى كرسي عرشها وجلست عليه في وقار، ثم أشارت إليّ وإلى «سنموت» بالجلوس وقالت بصوت رخيم:

- اسمعني جيداً يا «سنموت»، وأنت أيضاً يا زعفرانة.. اصبري لما أقول جيداً.. إن التجربة الأخيرة لتجراً المكسوس على أقطارنا وحروبهم الطويلة قد تسببت في ارتياب رعايانا من كل ما هو أجنبي بشكل مبالغ فيه.. بل إنه الأجنبي صار منبوذا لدى الجميع.. رغم أنه لا أحد يستطيع أن يعيش منعزلاً طوال العمر.. لا بد من التعاون والتبادل والتجارة مهما ساءت أحوال الأقطار..

والآن بعد أن استقرت الأوضاع في بلادنا منذ زمان بعيد.. ولم يعد أحد يبرز أو يفكر مجرد التفكير بالمساح بحدودنا مرة ثانية.. وصار الجيش في أقوى حالاته.. لم يعد هناك مبررٌ للزيد من الحملات الحربية والتأديبية.. أصبح الكل يدبُّ لنا بالولاء الكامل.. وقادة الجيش الذين أدوا واجبهم على أكمل الوجوه أصبحوا غارقين الآن في النعيم والثروات بفضل الخطط التي أقامها أبي وزوجي.. ويفضل تدبيرنا الحكيم من بعدهم.. كما أن الضريبة المفروضة على سائر البلاد المجاورة تأتي إلينا في وقتها دون أي تأخير.. لقد سيطرنا على الجميع في الخارج.. وقد آنَّ الأوان أن يتعمَّ من في الداخل بالمكاسب من وراء ذلك.. مثلهم مثل قادة الجيش وكهنة المعبد.. كما أنني أخشى أن تزيد توسعائنا في الخارج أكثر من اللازم إلى الحد الذي نفقد فيه السيطرة بقاَّة على الجميع.. ولذلك..

ثم قامت من مجلسها ونظرت في شموع إلى الأفق البعيد قائلة بصوت جهوري:

- بأمرى أنا الملكة «حتشبسوت».. سيدة الأرضين.. ملكة البلاد شمالاً وجنوباً.. سوف تُوقَف جميع الحملات العسكرية بدءاً من اليوم.  
ثم نظرت إلى «سنموت» بنظرة آمرة فردَّد في إجلال بعد أن وقنا احتراماً لها:

- أمر جلالة الملكة.. إن السماء كلها الآن تمطر من أجلك فوق بلادنا وفوق البلاد الأجنبية فلتكن مشيتك أمراً إلهياً ما علينا إلا تنفيذه..  
ثم عادت لتجلس وأكلت:  
- أما الأمر الثاني فهو ما أحتاج منكم فيه إلى المشورة.

وقالت وهي تنظر إليّ:

أنت معي في هذا يا «نفرو-رع»

قلت:

- ما تأمر به مولاتي الملكة هو أمر سيكون بمشيئة آمون الإله.

ف نظرت إليّ وهي ممتنة وتابعت:

- نحن الآن محتاج إلى فتح سُبُل التجارة مع الحدود المجاورة بكل أشكالها..

وليس أفضل من أن نبدأ بأصعبها.. وهي «بونت».. تا- تر.

لرُدّد «سننموت» في ورع:

- تا- تر.. أرض الإله الرب.

وأكلت أُمي:

- الفكرة الآن التي تشغل رأسي، تكمن في دفع الكهنة بمعبد آمون أنفسهم

إلى طرح الفكرة وقَبْلُها.. بل ومباركتها.. وقد هداني آمون الإله إلى فكرة

أراها مناسبة.. لا بُد أن تبدأ موارد «بونت» التي استقدمناها مؤخراً في النقص

الشديد.. أخص بذلك البخور والعنتيو<sup>(٣)</sup>.

فتدخل «سننموت» قائلاً:

- لكن جلالتك.. ما لدينا في مخازن المعبد والقصر يكفي لعامين.. بل يزيد.

- وهنا يأتي دورك يا «سننموت» أيها المخلص الحكيم.. أريد أن تختفي هذه

انغزائن من أرض طيبة كلها.. أريد أن ينفذ كل ما بها من موارد.. وأعلم أنك

لك في ذلك سُبُلِكَ وحيلك.

<sup>(٣)</sup> نوع خاص جداً من البخور

أطرق «سنموت» الحكيم مفكراً متأملاً كلام جلالته وبعد برهة اصرح قائلاً:

- إن حدث الأمر في هيئة سرقات متكررة فسوف يشك قادة الجيش وفي الأمر.. وكذلك الكهنة في المعبد.  
- إذا، ماذا ترى بحكمتك؟

- العفو مولاتي.. إنما الحكمة والتدبير ما تعلنا من جلالته.. وما منعك إياها آمون العظيم.. لكنني أرى أن الحرائق هي أفضل وأسرع الطرق. وفيها ما فيها من المميزات.. أولاً سوف نقضي على مخزون طيبة من البخور والعنبر في آنٍ واحدٍ. ثانياً سوف يبتهج أهل طيبة لو رأوا السماء فوقهم وقد غطت بالبخور وبحابه المقدس.. ولن يذكر الشعب الحادثة بشيء. وإن شك أحدٌ من المعبد أو غير المعبد سيجدون أنه أمر وارد حدوثه ولا ريب فيه.

- الصواب ونعم الصواب ما رأيت أنت يا «سنموت» الحكيم..

هنا أشرت لأمي راجبة في الكلام فأذنت لي، فقلت:

- لكن كيف سيدفع هذا الكهنة في المعبد إلى عرض الذهاب إلى «بونت»؟

فردت جلالته:

- لن يطلبوا هذا بشكلٍ مباشرٍ بكل تأكيد.. بل سيدفعهم هذا إلى الزايدة على القصر وسياسته و كبار موظفيه لعدم قدرتهم على توفير ما يحتاجه المعبد من هذا التراب المقدس.. وسيقومون بالإشارة إلى القصر تحديداً بشكل مباشرٍ لوهم هذا.. وهنا..

ثم أشارت يدها إلى «سنموت» الحكيم الذي ابتسم وتابع مفسراً ما  
قصده:

- وهنا تقوم جلالتها بالتضحية بقدر لا بأس به من المال في رحلة مقدسة  
إلى أرض الرب.

غلبي فضولي فسألت أمي دون استئذان:

- لكن جلالتك.. ما الذي يمنعنا من جلب ما يحتاجه كهنة المعبد من  
احتياجاتهم بالطرق العادية؟ التجارة المعتادة مع القوافل التي تأتي من هناك  
كل عام.. أعني أن هذا ما قد يسألونه..

- يجبني تفكيرك في كل شيء يا زعفرانة.. لكن اعلمي يا بنيقي أن ما  
نجلبه القوافل عامة لا يكفي ما سوف يضيع في المخازن.. كما أنهم لن يستطيعوا  
أن يمنحوا فضولهم وطعمهم إذا ما اقترح القصر الذهاب في مغامرة كذلك..  
لأنها إن لمجحت سوف تفرق معابدهم ومنازلهم في العطايا المقدسة من تلك  
الأرض المباركة.

- لكنهم يقولون يا أمي إن الطريق إلى «بونت» شاق ومخيف ومليء  
بالخاطر.. وهي بلاد بعيدة وغريبة.. ربما لهذا السبب من الأساس لنجلب  
بضائنا من القوافل التي تمر بها ولا نذهب بأنفسنا إليها.

- أعلم يا زعفرانة كل ما يقال.. وأغلبه مجرد قول.. لقد كان أجدادنا  
يذهبون إليها في سلام منذ زمان.. ولم نسمع بمثل هذه الأمور.. وإنما هي  
أكاذيب روجها التجار في الشرق وفي الجنوب للرفع من قيمة تجارتهم والحد  
من المنافسين فيها.

ثم نظرت إلينا وبدأ أنها قد حسمت أمرها بشأن التخطيط للذهاب إلى بونت وقالت لـ «سنموت» سائلة:

- كم سوف يستغرق الإعداد لتلك الرحلة يا «سنموت»؟

- قد يستغرق التجهيز أشهراً ثلاثة جلاتك.. لكن بالطبع لو توفر المال والعتاد والرجال.. قد يستغرق أقل بكثير.

فابتسمت جلاتها قائلة:

- ظننتك فهمتني من البداية أيها الحكيم.. سيتوفر المال بالتأكيد فور توقف الحملات العسكرية.. وكذلك الرجال.. أراك لم تربط بين الأمرين بعد.

فابتسم «سنموت» من دهائها وتابع:

- ليس لنا من قدر حكمتك إلا القليل جلاتك.. لكن هل لي أن أسأل أي الطرق تفكرين في اتخاذها إلى «بونت»؟

وردت مباشرة وكأنها كانت تنتظر سؤاله:

- الأخضر العظيم<sup>(٤)</sup>.

ووقف «سنموت» من المفاجأة، وقلت سائلة وقد هالتي المفاجأة أيضاً:

- هل سنتخذ طريق البحر إلى بونت؟!

- نعم يا «نفرو-رع».. سوف نتخذ البحر شرقاً ثم جنوباً إلى بونت.. سوف

تذهب خمسة من المراكب الهائلة إلى هناك.. وفوق ظهر كل منها مائتان من الجنود الباسلين.. وأكفأ الضباط في الجيش.. ولتُحمّل السفن بالعطايا والهدايا من معبد آمون ومن كل طيبة.. لتعود إلينا بكل غالٍ من تلك الأراضي المقدسة.

(٤) البحر الأحمر حالياً



فقال «سنموت»:

- لكن حمل السفن من طيبة إلى سواحل الأخضر العظيم سوف يستهلك الكثير من الرجال والعتاد والأموال أيضاً.. وربما لن يصبر الكهنة ولا القادة في الجيش على ذلك.

- هذا أمر يمكن تديره مع الوقت.

وهنا تدخلت مقترحة وقلت لهم:

- ولماذا نذهب إلى البحر بالسفن.. يمكننا أن نجعله جوارها؟

فقال «سنموت»:

- ماذا تقصدين يا زعفرانة؟

- أقصد أنه بدلاً من مشقة صنع السفن في موانئ طيبة.. ثم مشقة نقلها مع العطايا إلى سواحل الأخضر العظيم.. لماذا لا نقيم ميناء جديداً على ساحل البحر.. ونقوم بصناعة السفن في الورش البحرية بها.. بدلاً من تلك المشقة؟  
ابتهج وجه أمي الملكة بما اقترحت وانفجرت أساريرها، وقالت مخاطبة «سنموت»:

- تباركت لما علته ابنتي من حكمة يا «سنموت» الرائع.. لقد أحسنت وأبدعت في تعليمها.

فرد فرحاً من إطرائها:

- إنما هو نسلكم المقدس بعلم آمون يا مولاتي.. ما علنا إلا ما تعلناه.

ثم قامت أمي معلنة الاستقرار على ما اقترحت، وقالت في ختام مجلسنا قبل أن تنصرف:

- إذا فقد استقر الأمر على ما اقترحتَه ابنتنا.. ولتبدأ يا «سننموت» في إنهاء موضوع الكهنة هذا.. ومن الليلة تبیت الأميرات معنا هنا في القصر.  
ثم انصرفت فالحيننا لما في إجلال.. وعبس وجهي بعد أن أعادت ذكر انتقالنا من قصر الأميرات.. وأول ما فكرت فيه هو وجه «حور» الجميل.. ولم أكن أعرف إلى أين سيؤول مصيره.

جاءت غرفتي الجديدة في القصر على شرفة واسعة لحديقة كبيرة في ساحة القصر.. وجواري كانتت غرفة ميريت.. وأمام الغرفتين حرس مدجج بالسلاح.. كانت أوامر جلالتها ألا يتركوا أماكنهم مهما حدث.. بينما كان يرافقنا عدد آخر من الجنود والضباط إذا ما تحركنا.. وكانت تحركاتنا كلها قد اقتصرت تقريباً على معبد آمون للصلاة.

سألت الحكيم «سننموت» بعد ذلك عن مصير «حور» فأخبرني أنه نُقل إلى العمل مع بعض الخدم في ساحة الرماية الخاصة بجنود القصر.. وبعد محادثات جديدة نقله «سننموت» للعمل في حديقة القصر منسقاً للزهور في أحد البساتين تحت غرفتي.. وأصبح «حور» أول ما تراه عيني في كل صباح عندما أقف في شرفتي لأقوم بصلاحي إلى القرص المقدس للإله المعبود.

بعد أيام هاجم حريق كبير مخازن الغلال في طيبة.. كان هائلاً إلى الدرجة التي جعلته يمتد أثراً لينال من مخازن القمح والشعير.. وكذلك مخازن البخور والعنبيو.. وكما ظننتُ أمي ووعد «سننموت».. ابتهج أهل طيبة رغم الكارثة.. واعتبروا أن ما حدث علامة رضا من آمون. وذهبوا يقيمون الصلاة شكراً وامتناناً للإله.. حتى انتهت الحرائق وأنت على كل ما في المخازن من خير.

واشتعل كهنة آمون غضباً.. بعد أن جاءتهم الأخبار بنفاذ مخزون البلاد من بخورهم المقدس.. وأعدوا حملة تطوق البلاد تنذر الناس بالوعد السيئ الذي ينتظرهم إذا لم يتوفر لدى معبودهم ما تحتاجه الكهنة من بخور لإقامة الشعائر المقدسة.. وأتوا في حشد كبير إلى الملكة في القصر.. وبدأوا يندرون بنضبة الآلهة ويحذرون من شر انتقامها إذا ما جاء يوم ولم تعبد المعابد ما يقيم به صلواتها إليهم.. وفاجأتهم أمي الملكة بعرضها الكريم بأن تُوقف بعض الحملات الخاصة بالجيش.. وتستبدلها برحلة كبيرة إلى بلاد «بونت»<sup>(٥)</sup>.. وقالت جلالتها إنها مستعدة لبذل كل التضحيات في سبيل إرضاء آمون وإسعاد كهنة معبده المقدس.. فعاد الكهنة يملأهم الحبور بعد قرارها هذا الذي صاغته بدهائها في صورة اقتراح.. وركع لها كبيرهم في إجلال معلناً رضاهم الأبدي عن ملكها.. ولم يبد أي من كان في المجلس تدمراً سوى «تحتمس» ابن أبي الجالس جوار أمي الملكة على العرش.. وقد ساء ما عرضته أمي بشأن إيقاف الحملات الخارجية الخاصة بالجيش.. لكنه لم يعلن عن ذلك صراحة.. وبعد أن انصرف الكهنة مسرورين بما قالته لهم الملكة أشارت إلى الملكة أن أنظر مع «تحتمس» وصرفت الجميع بمن فيهم «ميريت» و«سنموت».. ثم أشارت لنا بالجلوس وقالت مخاطبة «تحتمس»:

- المجد لك أيها الملك ابن الملك العظيم.. أما آن لك أن تستقر فوق عرشك ونعم بملكك؟

ثم أكملت وهي تنظر إلي:

<sup>(٥)</sup> بلاد كانت تطل على البحر الأحمر، لا يوجد إجماع بين العلماء على مكانها المؤكد ولكن أغلب ظن أنها في سواحل شمال غرب الصومال

- وإلى جوار الملكة القادمة للأرضين.. «نفرو-رع» ابنتنا.

ابتهج وجهه وانفجرت أسارده بعد أن كان عابساً فور إعلان الملكة إيقاف حملات الجيش الخارجية.. ثم اقترب منها ومال على يدها في خشوع مبدئياً ولاءه وامتنانه الشديد بعرضها.. ولم يكن هذا التبجيل الشديد وارداً بينهما من قبل. فرغم أنها ما زالت واصية عليه إلى الآن.. لكنه في نهاية الأمر كان الملك الفرعون الذي ينتظره الجميع تقريباً.

أبدت أمي راحة كبيرة بعد خضوعه لها بتلك الطريقة ووضعت يدها بعد ذلك فوق رأسه مباركة وجوده.. ثم سألتني في حزم:

- مالك لم تتطقي بشيء يا «نفرو-رع».. هل ترين شيئاً آخر غير ما تراه الملكة؟  
وكان «تحتمس» ينظر إليّ منتظراً ردي في جوع إلى جسدي وإلى العرش من بعده.. وكنت قد لاحظت أن نظراته الجائعة إليّ هذه قد زادت في الفترة الأخيرة ومنذ جئنا لنقيم معه ومع أمي الملكة في القصر.. لم أستطع أن أرد على جلالتها بشيء فالتزمت الصمت.. لكنها صاحت في حزم أكبر:

- تكلمي يا زعفرانة..

فرددت في جمود :

- ما تراه مولائي دائماً هو أمرٌ مقدس

إلا أنها لم يبدُ أنها قد اكتفت بردي الجاف هذا فتابعت تسأل وقد بدأ الغضب يغزو صوتها:

- مالي أراك غير مبتهجة بقراري.. هل لك من رأي آخر غير رأي الملكة؟  
إن كان كذلك فلتكلمي الآن.

.. لو تسمح لي جلاتها.. أريد أن أتكلم معك وحدنا..

ونظرتُ إلى «تحتمس» في مقبٍ لم أفلح أن أخفيه.. فهرب شرٌّ من عينيه  
الماديين ثم انصرف قبل حتى أن تأذن له الملكة.. واقتربت أُمي من بعدها  
وكلها غضب وصاحت:

.. ماذا دهاك يا «نفرو»؟ هل أفسد الشعر والموسقى عقلك؟ لماذا تنبذين  
أخاك الملك هكذا؟

لم أستطع أن أرد عليها في وسط صياحها.. وبقيت بي صميتي غارقة لا أفكر  
سوى في الهروب إلى غرفتي.. إلا أنها أصرت أن تستنطقني وعادت تسأل  
لكن في لهجة أقل حدة قائلة:

- تكلمي يا ابنتي.. أنتِ لا تخفين عني شيئاً.. أليس كذلك؟

وقامت تتمشي في هدوء وهي تفكر قبل أن تقول مازحة:

- أم أنه قد أفسد لك الصبي الأصم قلبك؟ ماذا كان اسمه؟

ارتبكت من كلامها ثم قلت بصوت خافض وكلي نجل:

- أتقصدين «حور» جلاتك؟

فاقتربت مني ووقفت إلى جوارِي واضعة يدها فوق شعري وداعبت  
خصلته الصفراء بأصابعها وقالت:

- لم يعد لكلمة «جلاتك» معنى الآن.. نحن الآن أم طيبة وابنتها الجميلة..  
لتعكي لي دون قلق.

ترددت قبل أن أتكلم إلا أن عينها التي كانت تنظر إلي في حنو بالغ ثبعتني  
على الكلام فقلت:

- أتعلمين يا أمي أنني أذكرك أنتِ وأبي عندما كنت صغيرة.. قبل أن يتركنا ويرحل إلى نعيمه الأبدي.. أعلم أنني كنت صغيرة وقتها لكنني أذكر جيداً كيف كنتما تجلسان في بهجة طوال الوقت.. وكيف كان يحبك ويحبلك.. وأعلم أيضاً كم كنت تحبينه.. ولم بكيت في صمت رغم إخفائك هذا عنا طوال الوقت.

بدأ حزن يزور عينها فور أن أتيت على ذكر أبي الملك الراحل ولم ترد علي.. ترددت قليلاً قبل أن أتابع قائلة:

- بل إنني أعلم دون الجميع لماذا تقسين على «ميريت» من وقت لآخر.. لأنها تذكرك برحيله الذي كان وقت قدومها.. رغم أنه لا ذنب لها في ذلك سوى الذكرى.

ردت بسرعة:

- أنا؟ أقسى على «ميريت»؟

- نعم يا أمي.. يحدث هذا كثيراً.. أنتِ لا تلاحظين نفسك.. أعلم أنها كثيراً ما تكون مزعجة وكثيراً ما تبدو أنانية في تفكيرها.. لكن ألم تفكري أن هذا ربما يكون سببه هو معاملتك القاسية لها.

بدأ حزنها جلياً وهي تقول لي:

- اصمعي يا «نفرو».. اصمعي يا ابنتي.. أنتِ صغيرة لا تفقهين شيئاً.

- كما نشائين.. لكنني فقط كنت أطلب منك ألا تحرمي ابنتك من سعادة مثل التي عشتها مع أبي.. وأنت تعلمين كل العلم أن ذلك لن يكون مع غليظ القلب هذا.

- ولن تترك الحكم؟ لقد كبر «تحتمس».. وفي غضون عام سوف يحكم البلاد وحده.. وإن لم تكوني إلى جواره فسوف ينعم العرش لنفسه.  
- وما في ذلك؟ أليس هو ابن الملك؟

- فيه الكثير.. ألم أقل لك أنت لا تفهمين شيئاً.. إن حدث ذلك واستقل بالعرش سوف وحده سوف يأخذ البلاد إلى حروب طويلة لا تنتهي.. وهذا ما أخاف على البلاد منه.

- وما الغريب في ذلك؟ «تحتمس» وإن كنت لا أطيقه إلا أنه سيكون قائداً قوياً. فهو الآن محارب بارع ويعلم الجميع ذلك.. وإن استقل بالبلاد في الحكم سيكون ملكاً قوياً.

- هذا غير حقيقي.. إن أصبح ملكاً قوياً سيكون هذا بفضل حكمي وحسن تديري.. وأنا أخشى أن يأتي ليضيع كل هذا في حروب لا تحتاجها.. كما أنه ليس من دم ملكي صافٍ ولا بد له من الزواج من ابنة الملك حتى يسمح له الكهنة بتولي الحكم ويدينون بالولاء لحكمه.  
قلت في ضيق:

- الدم الملكي.. الدم الملكي.. فليتزوج من «ميريت» إذا ما دام الأمر بترك السخافة.

فردت أمي في سرعة:

- لا.. هذا لن يكون أبداً.. كما أن أختك لا تزال طفلة.. وهو لن ينتظر كل هذا الوقت..

ثم بقينا في صمتٍ طويلٍ وقد انتهى الكلام إلى غير نتيجة قالت بعدها أمي  
في شرود:

- لا بد أن نجد حلاً قبل أن يأخذ الأمر مأخذ النزاع.. لا أريد صراعاً  
بين أبناء عائلتي.

وعادت إلى الكرسي وأتت بجسدها عليه في همٍّ وأشارت إليّ أن أذهب  
فانطلقت حزينة إلى غرفتي.

بعد أسبوع كنت في غرفتي أبحث من نافذتها عن «حور» كي أسر ناظري  
به لكفي لم أستطع أن أجده في البستان.. وكان القصر كله في حالة تأهب  
شديدة استعداداً لإرسال البعثة التجارية إلى «بونت» وما كدّر هذا التأهب  
والحاس إلا ما علم به «تحتمس» من رفضي للزواج منه. وأخبرني «سنموت»  
أن أمي سريت خبر رفضي الزواج من تحتمس إلى كهنة المعبد.. وكانت  
تحاول أن تدرس ردة فعلهم بعد خبر كهذا.. وإرباكهم بذلك وسط انشائهم  
بشأن الرحلة الكبيرة المنتظرة إلى بونت.

جاءني إفطارٌ لم أطلبه في الصباح.. وضعه أمامي أحد الجنود المكلفين  
بحراسة الغرفة.. وقبل أن يذهب، أخبرني أن أمي الملكة هي من أمرت  
بذلك.. وعندما همّ بالانصراف اندفع «حور» فجأة إلى داخل الغرفة متجاوزاً  
الضابط والحارس الآخر الذي أمسك به في عنقٍ قبل أن يصل إليّ.. وكنت  
ممسكة بكأسٍ من الحليب الدافئ وأهم أن أتناوله.. عندما صاح «حور» مفاجئاً  
الجميع:

- احترسي يا مولاتي إنه كأس مسموم.



نظرت إليه غير مصدقة أن هذا الصوت كان خارجاً من فمه، وأنه مثلنا  
يستطيع أن يتكلم، وأفلت بصعوبة من بين ذراعي الحارس ودخل إلى الغرفة  
فدفع الكأس من بين يدي.. وحاول الحارسين والضابط أن يحاصروه وأخذت  
أنا في الصراخ منادية على أمي وعلى «ميريت».. وعندما لم يجد «حور» أي  
مهرب، قفز من شرفة الغرفة العالية إلى حديقة القصر.



(٧)

## يحيى

أنهيت قراءة البرديات للمرة الثانية بعد ترجمتها، وأخذت ألقبها بين يدي غير مصدق أنها انتهت عند هذا الحد، وغير مصدق لما هو كائن بين يدي من أسرار لم يقرأها أحد غيري حسب ما أعرف وما وصلني من دراستي للتاريخ.

أحفظاً كتبت هذه البرديات الأميرة «نفرو- رع» بنفسها؟ تلك الأميرة التي اختفت تماماً من صفحات التاريخ بعد أن تولى الملك المحارب «تحتمس الثالث» الحكم خلفاً لحتشبسوت زوجة أبيه.. ولم ترد أي مصادر لتوضح مصير بنات الملكة بعد رحيلها.

بقيت واقفاً على حالي متوتراً كذليل عقرب متحفز من عقارب المكان المنتشرة في الكامب.. وكانت ساعات النهار الأولى قد حلت ومر الليل كله عليّ في ترجمة البرديات حتى إنني لم أشعر بالليل وهو يمر من حول الغرفة.. وصرت أفكر ما الذي يجعل الأميرة «نفرو- رع» تادون هذا الجزء فقط من سيرتها.. وبدأ فضولي البحثي يأكلني حتى صرت ألقف في الغرفة كالمجذوب.. وأخذت أسأل نفسي كيف ومن أين لي اسمينا أن تأتي ببرديات أثرية خطيرة وهامة كهذه؟!

إنكون قد جاءت بها من إحدى العائلات الأوروبية المتخصصة في سرقة واقتناء الآثار من مصر منذ العهد القديم؟ عندما كان الأجانب يدخلون ويخرجون بالقُطْع الأثرية من مصر على مرأى ومسمع من العالم كله.. ورأس الملكة «نفرتيتي» في برلين خير شاهد على تلك الواقعة المشينة لسرقة شواهد ذلك التاريخ العظيم.

لكنني عدت لأقول إنه حتى لو كانت ياسميننا قد أتت بها من بلادها.. فكيف لها أن تدخل وتخرج بها من المطارات؟ هذا ليس بالأمر السهل.. لكنه ربما يكون ممكناً وأنا الذي لا يعلم.. كما أن هذه البرديات لو كانت موجودة من قبل فلا بُد وأن أكون قد سمعت عنها بأية صورة.. ولو مجرد سماع. من الممكن سرقة وإخفاء البرديات. لكن حكاياتها وأسرارها مستحيل إخفاؤه. فهم اكتشاف في حد ذاته يساوي ثروات.

أخذني التفكير في البرديات كثيراً وبعد تفكير طويل وجدت أن كل الطرق لا بُد وأن تؤدي إلى ياسميننا في النهاية.

ترددت كثيراً وأنا أفكر في الاتصال بها.. لكنني أيضاً قلت مبرراً الاتصال لنفسي أنني لن أصل إلى أي شيء دونها.. لا بُد من سؤالها عن البرديات.. هي وحدها من تملك الإجابة.. ثم عدت لأقول أنه يمكنني أن أسأل البرديات إلى المتحف المصري.. ويتولى هو مسئولية البحث عن المصدر.. وعن بقية الرسائل إن وجدت، خاصة وأن مقبرة الأميرة نفرو-رع التي اكتشفت في وادي الملوك كانت فارغة.. مثلها كمثل معظم مقابر الملوك والأسر الحاكمة في العصور القديمة. نبذت فوراً فكرة تسليم البرديات مباشرة إلى المتحف هكذا.. فأنا لست بمواطن عام وجد أثراً لا يفقه معناه وقرر أن يسلمه..

أنا أثري مصري.. وقد جاءت هذه البرديات إلى يدي لسبب لا بُد أن أعرفه.. ونظرت إلى انعكاس واضح لوجهي في المرأة وسألت: هل أتججج بذلك للاتصال بياسميننا ومحاولة رؤيتها مرة أخرى؟ وطردت السؤال من رأسي مباشرة.. وقد كان وجه زينب معي في نفس المرأة.. وكان ساكنًا على غير عاداتها.. وأخذت أنظر إليها في صمتٍ متظرًا أي إشارة أتهدي بها وعلى أثرها أقوم بالتصرف السليم.. لكنها ظلت ساكنة وكأنها تحملني مسؤولية كاملة لما قد أفعله.

في النهاية حسمت أمري، وقمت بالاتصال بياسميننا.. وردت هي بسرعة شديدة إلا أن صوتها جاء حزينًا.. لكن فيه فضول وقالت:

- هل قرأت ما في البرديات؟

- من أين أتيت بهذه البرديات الملكية ومن أعطاها لك.. هذه البرديات أصلية.. ألا تفهمين؟ مر عليها أكثر من ثلاثة آلاف عام.. كيف وصلت إليك؟

ردت في تعجب من قولي:

- برديات ملكية؟! هذا غريب.. سأخبرك بكل ما تريد لكن هذه حكاية طويلة.

ترددت وأنا ممسك بالهاتف واستدرت ناظرًا إلى المرأة خلفي وكانت الشمس قد أشرقت على الكامب وبدى النور الشديد من الخارج حول الغرفة واضحًا.. قلت في النهاية:

- سأنتظرك إذًا.

- سأتحرك فورًا.

وأنهيت المكالمة.. ولم أعرف لم انتابتني حالة من البهجة فور إنهائي  
المكالمة.. هل هي البرديات؟ أم أنها ياسمين؟

وبقيت انتظرتها وأنا أفكر مرارا في البرديات حتى سمعت صوت  
السيارة أمام باب الغرفة فأسرعت لأفتحه.. ووجدتها أمامي وكانت  
عيناها متفتحتين كعيني باديّا عليهما السهر.. وتأكدت أنها لم تنم ليلتها  
منلي.. ولمحت عارف في نهاية الطريق ينظر إلينا بفضول شديد.. ولم  
أشر إليه بأية تحية ودعوت ياسميناً إلى داخل الغرفة ثم أغلقت الباب  
خلفها.



(٨)

## ياسمينا

عزيزتي بيلا:

كانت الليلة حُلماً جميلاً يا حبيبتى.. لكنها سريعاً ما تحولت إلى كابوس مزعج مثله مثل حياتي كلها.. لقد تعبتي يا أمي.. تعبتي من معاناة الحياة لي بهذا الشكل المرهق.. واستنزفتني سوء حظي الليلة لأبعد الحدود حتى كدت أياس بعد أن أحياني يحبى وزرع الأمل داخلي بأن يكون لي حياة طبيعية.

ذهبنا الليلة سوياً يا بيلا الحبيبة إلى عرسٍ مبهج في قرية نائية بعيدة وسط الجبال.. قرية جميلة وبسيطة بعيدة عن ضوضاء المدينة القاتلة. في العرس تزينتُ مع النسوة.. من أجل يحبى فقط وتمنيت أن يراني جميلة.. وأحسست بذلك عندما رأيته ينظر إليّ في حب وغزل.. فأيقظ داخلي كل ما مات منذ سنين.. أو هكذا كنت ظننت.. وانطلقنا نرقص سوياً وكنا نرقص يا بيلا وكأننا نحن العروسين.. وكان العرس في القرية قد أعدّ لنا لا لغيرنا.. وكان يحبى يمسك يدي وكأنني حبيبته التي يعشقها.. وكنت أذوب أمامه كلما نظر في عيني وأنا أدور حوله وأكاد أحلق كالطير من نشوة الرقص.. وبعد أن عدنا

إلى الاستوديو وصرنا وحدنا أخيرًا أخذت أفكر فيه يا أمي وأمناء  
لنفسى

سألت نفسي يا بيلا لماذا لا أكون مثل باقي الفتيات أعشق أحدهم  
ريعتني هو الآخر؟ لماذا كُتِبَ عليّ هذا السفر الطويل وتلك الوحدة  
للهلكة؟ ولماذا منحني الله هذا الجمال وتلك المشاعر ثم حُرمت من  
الاستمتاع بها مع رجلٍ أحبه؟! خاصة بعد أن انتهى أمر ذلك التزيف  
وأحسست أن تلك اللعنة قد غادرتني بعد أن عرفت يحبى.. ورغم  
أننى لم أجد لذلك سببًا إلا أننى وجدتنى قد أحببته حقًا.

نعم يا بيلا.. الآن أعترف لك دون أن أخفي عليك ذلك.. لقد  
أحببت يحبى منذ رأيته للمرة الأولى في البازار.. وأحببته دماي قبل أن  
يحب قلبي.. ولا أريد أن أعرف السبب.. كل ما أريده الآن هو يحبى  
فقط.. وقد أضعته بغائبي يا بيلا.

نسيت الكتب التي كنت أحاول أن أفهم منها ما كُتِبَ في تلك  
اللفائف الملعونة. والتي أخبرني زين أن يحبى هو من سيساعدني  
على فهم أسرارها وما كانت تسعى إليه جدتي روز. لكنني في  
النهاية لم أصل لشيء.. وها هو يحبى أيضًا قد رحل.. مثله مثل  
جدتي.. ومثلك.

عدتُ إلى وحدتي من جديد يا أمي.. لكنني لا أحتمل أن بتركني  
وهو يظن أنني كنت أخدعه تلك الأشهر السابقة.. سوف أذهب إليه  
الآن.. فأننا لا نستطيع أن أجلس وحدي هكذا وأتركه ليظن بي الظنون.  
سأعيني يا بيلا.. سوف آخذ إليه اللفائف. وأتركها بين يديه..  
عساه يصدق أنني لم أكن أنوي به غدًا.. وربما استطاع أن يجيب  
عن السؤال الذي كانت تسعى إليه روز طيلة هذه السنوات..

او على الأقل.. عسى أن اراه لمرة أخيرة قبل أن أعود من جديد لل  
وحدتي القاتلة.. أدعو الله أن يكون زين صادقاً فيما قال.. وألا يجيب  
يجبى ظني فيه.

أحبك يا بيلا.. أحبك وأفتقدك وأحتاجك كثيراً الآن  
ابتتك المخلصة والوحيدة.. باسمينا.



لم أحتمل نظرات يجبى إليَّ عندما ذهبت إليه وتركت له اللفائف..  
كنت أفكر طوال الطريق أن ألقى بنفسي بين ذراعيه.. وأحكي له  
كل شيء.. أحكي له عن أنطوان وعن اختفاء روز، وعن موت بيلا،  
وعن فيليب، وعن نزي في الطويل الذي لم ينتهِ إلا على يديه.

إلا أن نظرت له في أمام غرفته ألفت بكل أحلامي أرضاً.. وزرعت  
مكانها بؤساً وإحباطاً قاتلين.. ولم أستطع أن أقل له أي شيء. تركت  
اللفائف بين يديه ورحلت. وأخذت أبكي طوال الطريق من الكاب  
إلى الاستديو. وعندما عدت إلى غرفتي وكانت أنوارها مغلقة ندمت  
على تركها كذلك قبل رحيلي وانتويت أن أعود إلى طقوس الوحدة  
من جديد. وقضيت ليلتي أفكر فيه. وسألت نفسي في خوف شديد:  
هل أكون قد فقدته بغبائي؟

طوال الفترة التي عرفت فيها يجبى أدركت من كلامه القليل  
انعدام ثقته بالآخرين إلى حد كبير.. ثم جئت أنا وبمتهى الغباء  
لأؤكد له شكوكه وأفقد ثقته إلى الأبد.

لكنني لم يكن لدي اختيار.. ما الذي كان يجب عليّ أن أفعله؟  
لقد ذهبت إليه كما طلب مني زين.. ولو كنت أخبرته بذلك من  
البداية لما كنت استطعت أن أتقرب إليه هكذا.. وكان انجذابي إليه



من البداية أقوي بكثير من فضولي ولهفتي لمعرفة سر هذه اللغائف  
وما كُتب فيها.

كنت أرى الحب الصادق في عينيه الليلة في الجبل ونحن نرقص  
سويًا.. ربما للمرة الأولى في حياتي.. وللمرة الأولى أيضًا أشعر بكل  
هذا القدر من الانجذاب والأمان معًا في نفس الوقت تجاه رجل..  
رجل كان يعاملني دون أي طمع في شيء.. دون رغبة واضحة أو كامنة  
في استغلاله. كان كل ما يطلبه هو الرفقة فقط. وكانت كل ما أحججه  
في البداية. لكنها الآن لم تعد تكفي.. أردته لي كاملًا.. فضاع مني  
وضاعت صحبته.

الآن أعود إلى الليالي الحزينة المليئة بالوحدة.. لأكمل رحلتي في  
هذه الدنيا حتى أموت دون أحدٍ جواربي.

أخذت الساعات تمر عليّ وتأكل في روحي بنهم وشراسة، وجاء  
نور الصباح وأنا ما زلت يقظة أندب حظي ولعتني التي لعنت  
بها ولم أعرف لها سببًا.. حتى جاء اتصال يجيى ليبيدي الأمل من  
جديد.. قال أشياء غريبة لم أفهمها عن برديات ملكية وكان قليل  
الكلام ولم أفهم معظم ما قاله.. ولم يكن يهمني شيء مم يقول.. كنت  
فقط أود أن أعرف ما علاقة هذا كله بي.. وما كان يهمني أكثر أنه  
انصل في النهاية.. وكان هذا يكفيني. وذهبت إليه بعد اتصاله مباشرة.  
فور أن دخلت إلى غرفة يجيى بالكامب وجدت وجهًا مرهقًا وقد  
بدا عليه السهر.. وعلمت أنه لم ينم ليلته أيضًا.. وبدأ لي أن عينيه  
كانتا دامعتين وليس مجرد إرهاق.

تفحصت غرفته بعيني ولم أكن قد دخلتها من قبل.. فالمرات  
القليلة التي كنت أقابله فيها أمامها عندما نكون سويًا في الكامب

كان دائماً ما يطلب أن أنتظره في كافيتيريا وادي حبيبة.. وكنت أشعر أنه يعتمد إيعادي عنها قدر المستطاع.

كانت غرفته صغيرة لا أثاث فيها تقريباً سوى مقعد صغير أمام طاولة خشبية يبدو عليها القدم.. وعليها عدد كبير من أقذاح القهوة القديمة.. وعدد من علب السجائر الفارغة.. وعلى المنضدة كانت اللفائف مرصوفة في عناية شديدة وجوارها أوراق أخرى مبعثرة بدت لي أنها ما كانت يعمل فيها على الترجمة.

جلس يحس على الفراش قبالي تاركاً الكرسي الوحيد كي أجلس عليه، وسألني في لهجة جافة ولم يكن ينظر إليّ:

- احكي لي.. كيف وصلت هذه البرديات؟

أقلقتني لهجته الجافة رغم توقعي لها، لكنني كنت قد جئت في حنين فخرج صوتي مهزوماً وقلت:

- لم تصلني.. إنما أنا التي سعت إليها.

- لا أفهم.

- الأمر كله كان غريباً من بدايته.. لكن أخبرني أولاً ما الذي وجدته في هذه البرديات وجعلك تتنازل هكذا وتتصل بي؟ ظننت أنك سوف تبلغ عني شرطة الآثار..

- ما زال هذا الاحتمال قائماً.. عندما أعلم كل شيء سوف أحسم هذا الأمر.

- لهذه الدرجة!

- أكره الكاذبين يا ياسمين.. وقد أخبرتك بذلك منذ التقينا.

أهانني رده، فقلت في حدة:

- وأنا لم أكذب عليك يا يحيى.

- بهم تفسرين هذه البرديات إذا؟

- لم أكذب عليك في ذلك.. لقد أخفيت الأمر عنك فقط.

قال في سخرية:

- اختلف الأمر.. حسناً، وهل كنتِ صادقة عندما قلتِ إنك هنا

في إجازة؟ أم إنك أخفيت هذا الأمر أيضاً؟!

نظرت إليه في لوم شديد وقد آلمني ما يتهمني به ولم أجد لسؤاله

رداً فقد كان صائباً في كذبي عليه بشأن السبب الحقيقي لوجودي في

الغرفة.. فقلت له:

- السبب الحقيقي لوجودي هنا كان أنت.. ولم يكن في استطاعتي

أن أخبرك بهذا منذ البداية وقبل أن أعرفك جيداً.

ردّ في تعجب:

- أنا؟ وما شأني بك؟

- سوف أخبرك.. لكن قل لي أرجوك ما الذي تخفيه هذه

البرديات؟ لقد أخبرتك أن جدتي روز ماتت وهي تحاول أن تفهمها.

نظر إليّ بحسب طويلاً وكان كالعادة يمرر كلامي على جهاز كشف

الكذب الكامن في رأسه.. ولما تأكد من صدق قولي نهض مثاقلاً،

وتناول إحدى البرديات من فوق الطاولة التي كانت أمامي بعد أن

أخرجها بحرص شديد وكأنه يقوم بعملية جراحية.. ثم فرد البردية

بلطف شديد فوق الطاولة وأشار إلى مربع مزين داخله أحد الرموز

التي قضيت ساعات طويلة في محاولة ترجمتها ولم أستطع وقال وهو

يشير إلى مجموعة من النقوش:

- انظري هذه الكلمة «نفرو- رع» وتعني جميلة الإله رع، إلى  
قرص الشمس المعبود عند المصريين القدماء.. وهذا المستطيل المطرل  
هو الخرطوش الملكي لصاحبة البردية.

أعجبني طريقته وهو يشرح لي في سهولة ما كان بارعاً فيه..  
وتملكني فضول نحو ما يقول حتى كدت أنسى حدثه السابقة في  
طريقة كلامه وسألت:

- ومن «نفرو- رع» هذه؟

- «نفرو- رع» هي الابنة الكبرى للملكة «حتشبسوت».. أهم ملكة  
في التاريخ المصري القديم، وفترة حكمها هي الفترة الأكثر طولاً في  
فترات حكم النساء في تاريخ مصر القديمة كله.

- وما هي قصة «نفرو- رع» هذه؟

عاد يجي ليجلس على فراشه في تفكير قائلاً:

- لا أحد يعلم إلى الآن.. هذه الأميرة كان من المفترض أنها ورثت  
أمها الملكة «حتشبسوت» في ملك مصر.. كانت الابنة الكبرى ومن  
دماء ملكية خالصة لأبيها «تحتمس الثاني».. ومن المفترض أنها هي  
من شاركت الحكم مع أخيها «تحتمس الثالث» وكان أخاها لأبيها من  
إحدى محظيات والدها.. لكنها اختفت من كل النقوش والبرديات  
فجأة وهي بعمر السادسة عشر.. وكانت مقبرتها خالية كمعظم مقابر  
الملوك التي نُهِبَت في عصور كثيرة لاحقة.. حتى تماثيلها لا يوجد لها  
أي أثر تقريباً.. لا يوجد لها سوى تماثيل وهي طفلة مع مربيها وزير  
قصر آمون المعلم والمهندس المعماري «سنتموت».

بدأ الفضول يتنامى في داخلي بينما كان يجيى مندمج تماماً وهو  
يحكي لي وكأنه يلقي محاضرة لمجموعة من الطلبة.. فسألت:

- وماذا حدث لها بعد ذلك؟

- قلت لك.. لا أحد يعلم.. اختفت من صفحات التاريخ..  
تبخرت مثل الماء.. ومن المفترض أن نقول هذه البرديات ما حدث.  
- وهل قالت شيئاً؟

- قالت الكثير.. لكنني لن أخبرك بأي شيء قبل أن أعرف الآن  
كيف وصلت هذه البرديات إلى يديك.. أنت لا تدركين قيمة هذه  
البرديات.. قد ينقلب التاريخ بعد معرفة ما فيها.  
تهدتُ طويلاً ونظرت إليه ثم قلت في صبر:  
- سأخبرك بكل شيء..

\*\*\*

قال لي «زين» ونحن على متن القطار المتجه إلى الأقصر:

- لم تحكِ لي روز هانم بالتفصيل نص الرسالة التي بعثتها إليها  
أختها الدكتورة تريز رحمها الله.. كل ما فهمته منها أنهما كانتا على  
تواصل طوال سفر جدتك. وأن أختها الدكتورة «تريز» ترجمت  
قصاصة ما وطلبت منها الذهاب إلى مكان في بالأقصر.. وعادت  
جدتك بعد وفاة الدكتورة مباشرة. وكنت خادماً للدكتور تريز منذ  
جئت إلى الإسكندرية هرباً من ثأر قديم.. وقد كان لها فضل كبير  
عليّ حيث آوتني ووفرت لي عملاً في «فيلا» أنطوان باشا.. وأوصتني  
على جدتك قبل أن تموت.. وطلبت مني أن أنتظرها لأنها ستأتي عما  
قريب.. وكانت متأكدة أنها سوف تعود.. رغم أنني منذ عملت في  
الفيلا لم أسمع عن روز هانم إلا القليل.. وبعد أن جاءت من اليونان  
وقضت بعض الأيام في غرفة الدكتورة تريز تفتش فيها، أخبرتني أنها

ستسافر إلى الأقصر.. وسالتي أن أذهب معها فوافقت على الفور.  
رغم علمي بخطورة ذلك على حياتي.. وكان موضوع الثأر هذا  
يبرد بعد.

نظرت إلى وجه زين العجوز أنفحصه في فضول بالغ وهو يحكي.  
وكان يذكر كل شيء وكأنه كان بالأمس فقط وسألته:

- ظننت أن موضوع الثأر هذا مقتصر على الصعيد وليس للنون  
علاقة به.

فابتسم في طيبة وظهرت أسنانه النخرة وقد بدت عليها آثار  
التدخين الطويل، وقال:

- الثأر موجود في كل مكان في مصر.. وموضوع النوبة هذا كان  
كذبة اخترعتها لكي أجد أي عمل عندما هربت من قنا قبل سنين  
طويلة.

- أتعني أنك لست نوبيًا؟

- لا يا ست ياسمين.. أنا قناوي من قوص.. أعني كنت..  
ساعهم الله.

ثم صمت طويلاً وبدأ أسى يغزو وجهه بعد أن كان يتسم منذ  
دقيقة واحدة فسألته أن يكمل فتابع:

- وصلنا بعد ليلة سفر طويلة إلى الأقصر.. وكان السفر شاقاً تلك  
الأيام ليس يسيراً مثل الآن.. كنت قد تجاوزت الثامنة عشرة بقليل،  
وكانت روز هانم في ترقب وقلق طوال الوقت.. كنا في شهر مارس..  
ولم يكن قلقي من المجهول الذي أذهب إليه مع جدتك تنفيلاً  
للوصية.. لكنني كنت خائفاً من منظرنا الملفت لكل من يرانا..

رتبات أن عودتي من الأقصر سالمًا لن تكون سهلة لكنني لم أستطع إن أدعها تذهب وحدها في سفرها هذا.. وعندما وصلنا أقامت في بانسيون صغير جوار محطة القطار.. وكانت الوقت عصرًا.. ووضعنا حقائبنا في غرفتين ثم توجهنا مباشرة إلى البر الغربي للنيل.. وذهبت جدتك إلى أحد المعابد وأخذت تسأل أحد المرشدين بعض الأسئلة ثم توجهت إلى إحدى الواجهات الشرقية للمعبد، وكانت ممسكة حفية لم تركها من يدها منذ تحركنا.. ففهمت أن هذا هو المكان الذي طلبت منها الدكتورة تريز أن تذهب إليه.

ظلت على حالها هذه حتى حل الغروب.. ولم يحدث شيء ثم عدنا إلى البانسيون.. وفي نهار اليوم التالي ذهبنا إلى نفس المكان.. وظلت واقفة مكانها لا تتركه.. وأحضرت لها مقعدًا صغيرًا عندما فهمت منها أن الانتظار سوف يطول. وبقينا على نفس الحال إلى نهاية اليوم.. وفي اليوم الخامس جاءها أحد الرجال ووقف معها لدقائق قليلة وكانا يتحاوران فلم أسمع منهما أي شيء.. لكن جدتك بعدها طلبت مني أن أذهب معهما إلى «نجع الحسينات».. ولم يكن لي أن أرفض لها أمرًا.. فعبنا النيل عائدين إلى ضفته الشرقية.. وبعد ساعة كنا في بيت «آل عواد».. وجلست أنا في صحن الدار مع مسعود الابن الكبير لهم.. بينما بقيت جدتك مع الشيخ عواد الكبير.. وظلا سويًا لمدة ساعة خرجت جدتك بعدها وتحركت أنا وهي ومسعود إلى مدافن البلدة.. وغاب مسعود بالداخل لفترة كبيرة حتى كانت الشمس قد قاربت الغيب ثم عاد بلفافة مطوية ناولها للسيدة روز ووقفنا يتكلمان لفترة ثم عدنا إلى البانسيون.. وقبل أن تصعد إلى غرفتها أعطتني خطابًا وطلبت أن أرسله إلى ابنتها في اليونان إذا حدث لها أي مكروه..

وكان وجهها تعبًا ولا يطمئن.. ثم أخبرتني أننا مستوجه إلى سفر آخر بعد يومين.

فسألت زين :

- سفر آخر.. إلى أين؟

- هذا ما لم أعرفه من جدتك أبدًا.

- ماذا تقصد؟

- في اليوم التالي انتظرت أن تناديني لكنها لم تفعل.. انتظرت كثيرًا ثم بدأ قلقي عليها يزيد.. ولم أعرف ماذا أفعل.. وبعد أن طال انتظاري تجرأت ودخلت غرفتها.. فوجدتها غارقة في دماثها وقد فارقت الحياة.. فارتعبت ولم أدرى ماذا أفعل.. وكانت اللقائف معها جوار فراشها.. وعندما رأيتهما عرفت أنها أثر لشيء ما لكنني لم أفهمه.. ولم يكن من أحد أعرفه قد يساعدني في تلك الورطة سوى «آل عواد».. فذهبت إليهم مستغيثًا.. ولما علموا وجدتهم وكأنهم لم يفاجئهم الأمر في شيء.. جاء معي مسعود وكان معه رجلان آخران واستأجرا غرفة في نفس البانسيون. ودخلا إلى المكان بحقيبة كبيرة فيها ملاءة ضخمة وطلبنا مني أن أنتظرهما في موقف المحطة بعيدًا عن البانسيون.. وفي نهاية اليوم جاءني مسعود وأخبرني أنهم أخرجوها هي واللقائف كلها التي كانت معها من الغرفة.. وقال أنها الآن مسئوليتهم وحدهم.. وطلب مني أن أعود حيث جئت.. وقال إن يومًا ما سوف تأتي ابنتها لتأخذ الأمانة.. ولم أفهم ما الذي كان يقصده بتلك الأمانة وقتها.. أهى اللقائف أم كان يقصد جدتك نفسها؟. وذهبت إلى محطة القطار وكلي رعب مما ينتظرني وما سوف أجده في فيلا أنطوان من تساؤلات



حول مصير ابنتهم وما حدث لها.... وقبل ذهابي إلى الفيلا قمت بتنفيذ الوصية الأخيرة التي طلبتها مني جدتك في البانسيون ليلة رحيلها.

فهمت بالطبع ما يعنيه وقلت:

- قمت بإرسال الخطاب إلى أمي بيلا في اليونان.

- للأسف.. وكان دليل براءتي الوحيد لدى أهل جدتك.. كان الدليل الوحيد؛ فقد كان مكتوبًا بخط يدها.. ولا أعلم لم تأخر هذا الدليل كل هذه السنوات؟ وعندما عاد للظهور كنت هاربًا مشردًا بين تهمة بالقتل وثأر قديم.

تذكرت ما حدث بين بيلا وأبي منذ خمسة وعشرين عامًا.. وقلت لزين:

- لم تتسلم أمي الخطاب بيدها للأسف.. وإنما تسلمه جدي فيليب ولم يعطه لها إلا عند وفاته.. قالت لي أمي إنه لم يصدق ما كان فيه وعندما سافر بنفسه إلى الإسكندرية شُبَّت مشاجرة بينه وبين خالها أنطوان.. وكنت أنت قد اختفيت وقتها ولم يستطع جدي أن يصل إليك.

- وماذا كان يوجد في هذا الخطاب؟

- كانت جدتي تطلب من أمي أن تذهب معك إلى حيث نحن ذاهبان الآن.

- ولماذا منع عنها جدك - سامحه الله - هذا الخطاب وأخفاه كل هذه السنوات؟ لقد عشت هاربًا لسنين طويلة بسببه.. بعد أن مهدني أنطوان باشا بالزج بي في السجن إن لم أقل له الحقيقة..

ولم يصدق أي من كلامي فعشت هارياً في النهاية.. وكل ذنبي أنني حافظت على وعدي لجذتك وللدكتورة تريز.

- لا ذنب لك.. خاف جدي على أمي أن تلقى نفس مصير جدي وتحتفي هي الأخرى إن عادت إلى مصر.. كان يقول لأمي إنه غشني لو استطاع أن يحرق هذا الخطاب لولا أنه كان آخر خطاب من روز كيت بخط يدها.. وكان يشعر بتأنيب ضمير شديد تجاهها.

- ولماذا قرر فجأة أن يعطيها الخطاب بعد أن كان قد مرَّ على ذلك سنين طويلة؟

- لم يقرر فجأة.. كان يحتضر، ولا بد أنه أحس عندها بالذنب فأعطاه لها. لقد انفصلت أمي عن أبي سنين طويلة بسبب قرارها العودة إلى مصر كما طلبت جدي.. لكننا لم نجدك وقتها.

- لا أراك الله أياماً مثل التي عشتها.. لقد كنت أبيت كل ليلة منتظراً القبض عليّ في غبشي.. ولم أستطع العودة لغرفتي إلا بعد أن مرت كل هذه السنوات.. وكان أنطوان باشا سامحه الله قد رحل هو أيضاً.. ووجدت رسالة أمك إليّ داخل الغرفة.. وعدت إلى حياتي القديمة أخدم في أحد البيوت حتى صرت شيخاً عجوزاً.. ولم أنجبل أن تأتي أنت بعد كل هذه السنوات.

قلت له وأنا شاردة في الطريق أمامي:

- ولا أنا يا زين كنت أتخيل كل هذا الشقاء الذي لاقته جدي وكل هذا الغموض الذي دفعت ثمنه أنت.

- أدعو الله أن نجد الإجابة هذه المرة.

- ليت هذا يحدث يا زين.. ليت يحدث.. أنت لا تتخيل كم أفتنى

إن أعرف ما الذي جعل جدتي تفعل كل هذا وفي النهاية لم تصل إلى  
إجابة.

وكننت أتذكر جسد أمي الملقى على الفراش وهي غارقة في دمائها  
مثلها مثل جدتي روز كما حكى لي زين منذ قليل.. ودعوت الله في  
مري أن نجد الإجابة في الأقصر كما قال زين.

نزلت في فندق صغير في شارع رمسيس الرئيسي بالأقصر ورفض  
زين أن أحجز له في الفندق، وقال إنه لن يجرب راحة أو نومًا قبل أن  
يلعب إلى بيت «آل عواد» ويجده.. وقد مر سنوات كثيرة لم يعد يذكر  
عدها منذ ذهب إليه للمرة الأولى.

اختفى زين ليومين كاملين وتركني في ترقب وقلقي شديدين..  
عاد بعدهما مشرق الوجه وأخبرني أنه وجد المنزل وقال إن الحاج  
مسعود ينتظرنني في منزله مع ابنه الوحيد.. وقد صار مسعود شيخًا  
كبيرًا لا يتحرك.

رغم فضولي الشديد ورغبتني في معرفة السر وراء كل هذا الشقاء،  
إلا أنني كنت في شدة الخوف عندما ذهبت مع زين إلى نجع الحسينات  
حيث يبيت الحاج مسعود هذا.

كانت بلدة فقيرة رغم ازدهارها، وبدا أنها لم تعتد على وجود  
الغرباء فيها، على عكس الأقصر التي تعج بالآلاف من الغرباء  
يوميًا.. وكان الناس ينظرون إليّ في فضولٍ زاد من خوفي.. وعندما  
دخلنا على الحاج مسعود هذا وكان عجوزًا قارب سنه السبعين عامًا  
أزيزيد.. وكان يتكلم في صعوبة، تولى عمار ابنه الوحيد التواصل  
بيننا وبينه.. وبعد عددٍ كبيرٍ من الأسئلة عني وعن روز، وعن نص  
الخطاب الذي أرسلته روز إلى بيلا منذ سنوات قال لي الحاج مسعود

إنه هو الذي طلب من روز أن ترسل هذا الخطاب إلى بيلا تلك الليلة، ولما سأله عن السبب قال:

- نحن لا نملك إجاباتٍ لا نعرفها.. مهمتنا فقط هي توصيل الأمانة إلى أهلها.

وفشلتُ تمامًا أن أنتزع منه أية معلومة تفيدني، وكان سنه الكبير وثقل لسانه في الكلام ما زادنا الموضوع مشقة وصعوبة.. وبعد أن انتهى كلامنا، قال لولده عمار أن يسلمني الأمانة ثم نتحرك بعدما مباشرة.. وطلب منّي أن أبعث بعنوانه إلى أكبر بناتي، ولما أخبرته أنني لم أنجب لأنني لم أتزوج، غمر صوته إحباط شديد. وقال لي إنه يجب أن أتحرك بسرعة، وازداد خوفي وعاد مشهد أُمي بيلا في فراشها إلى ذهني وأصابني شفقة على نفسي لفرط وحدتي وأنا أتحرك وسط كل هذا الغموض دون أن يوجد شخص واحد معي أعرفه واثق فيه.. وطلب عمار أن نتظر حتى الليل كي لا نلفت انتباه أحد في تحركاتنا.. وعندما جاء الليل خرجت مع زين وعمار إلى مقابر القرية.. وبدأ خوفي يزداد وامتلاء قلبي رعباً.. وكان عمار رقيقاً في تعامله معي، ولولا وجود زين ما كنت ذهبت معه إلى أي مكان.. وعند المقابر كان الظلام الحالك يزيد المشهد رعباً وقلقاً.

جاء رجل طويل نحيف الهيئة إلى حيث كنا مع عمار وفي يده طوقٌ حديديٌّ به عدد كبير من المفاتيح الصدئة.. وقام بفتح إحدى البوابات وسط المقابر، وعلى ضوء مصباح زيتي خافت لمحتُ شاهداً للقبر الذي وقفنا أمامه.. وفتح الرجل باباً حديدياً صدئاً، وطلب منّي أن أدخل معه فرفضت في حزم وتراجعت خطوتين إلى الوراء.

منية في زين العجوز، وقد أدركت أنسي قد تماديت في الذهاب  
مهم وحدي هكذا. وقال عمار: أعطها الأمانة لا نريد منها إزعاجًا.  
ثم نظر إليّ وقال في خبث ووقاحة:

- إن تلقي نظرة وداع على المرحومة.

وضحك في خبث وودت لو أسبّه لكن منعني خوفي بالطبع..  
رهره الرجل الآخر ودخل إلى المقبرة، ثم غاب لدقائق قليلة عاد  
بعدها باللفائف، وكانت متربة باديًا عليها الإهمال.. ونظر إليها عمار  
في حيرة وقال:

- ما منعني عنكم سوى الحاج سامحه الله.. هذه تساوي ثروة الآن.

وأخذت اللفائف وطلبت من زين أن نتحرك فورًا فقال عمار:

- إلى أين؟ لم ينته الأمر بعد..

فسألته في غلظة:

- ماذا بعد؟ أليست هذه الأمانة؟

فقال:

- ليست كلها.. تنقصك الإجابة.. ما زال لدينا لدينا سفر آخر.

- سفر؟ إلى أين؟

- إلى الغردقة.. هذه وحدها لن تنفعك بشيء..

ولم أكن أعرف ما الذي تحتويه تلك اللفائف.. فقلت وأنا أتحرك  
مع زين:

- غدًا غدًا.. نعود ونتفق.

وهربت بسرعة، وقد أقسمت على عدم تكرار هذا التهور مرة أخرى، وسمعتة يردد من خلفي بخبث:  
- على راحتك يا هانم.

فلعلته في سري وعدتُ مرتجفة خائفة إلى الفندق بعد أن أخفيت اللفائف بصعوبة في حقيبة كبيرة. ولما فتحتها وجدت تلك البرديات، وبالطبع لم أفهم منها شيئاً.. وفهمت ما كان يقصده عمار الملعون هذا.. فطلبت من زين أن يذهب للقاء الحاج مسعود بنفسه وليس عمار ويستفسر منه عن أمر الغردقة هذا.. ولما عاد قال إن الشيخ مسعود طلب مني أن آتي إلى هنا.

\*\*\*

كان يحبى ينصت إليّ في شغفٍ وترقبٍ شديدين ولم ينطق بكلمة أو سؤال حتى انتهيت من كلامي ولما سكت سألتني:

- ثم ماذا؟

فقلت له:

- ثم لا شيء.. فعلت كما طلب مني مسعود وجئت إلى هنا.. أخذت أراقبك لفترة طويلة وأبحث عن فرصة للكلام معك.. لكنني وجدتك لم تلمحني في أي مرة أكون معك فيها في الكامب وسط السائحين.. حتى شككت أنك تعتمد ألا تلاحظني. ولما التقينا في البازار مصادفة وجدتك قد لاحظتني للمرة الأولى بعد شهر من المحاولة.. فجئت أنا إليك.

قام يحى من جلسته وبدأ متحيراً وسألتني:

- وما علاقتي أنا بكل هذا؟

- لا اعرف.. لقد جئت إليك كما أخبرني زين.. وظننت أن الإجابة ستكون عندك أنت بعد أن نترجم هذه البرديات.

فقال يحيى في عجب:

- البرديات لا علاقة لها بكل ما حكيت، لقد قمتُ بترجمتها كلها ولم يكن فيها شيء يخصني.. هذه برديات لأميرة مصرية مضى عليها آلاف السنين.

قلت له:

- لم تقم بترجمتها كلها.. لقد ترجمت ما أحضرته أنا لك.

فسأل يحيى في لهفة:

- ماذا تقصدين؟

- اللغائف كانت مجموعتين.. وما فهمته من زين أن هذه التي أحضرتها إليك هي التي كانت مع جدتي روز.. أما الأخرى فهي التي كانت مع «آل عواد».. وهي معي في الاستوديو بعد أن أخذتهم جميعاً من قبر جدتي روز.

فصاح يحيى:

- أتمزحين.. لماذا لم تحضريهما معاً.. لكننا قد فهمنا الآن ما كان فيهم.

- وما الذي يجعلني أفعل هذا وقد أهتمني بالأمس ونعتني بالكاذبة؟ لقد خفت أن تضيع البرديات كلها مني وأنا لم أفهم أي شيء إلى الآن.

صمت يحيى قليلاً ثم قال:

- لو كنتِ أخبرتني من البداية لم أكن لأشك فيكِ يا ياسمينا.

- صدقتني كنت أتمنى لو أفعل.. لكنني كنت خائفة.

- خائفة من أي شيء؟

- من أن أفقدك.. لا تدعي أنك لا تفهمني وتعرف مشاعري  
ناحياتك كما تنكر مشاعرك تجاهي.

قال يحمي وهو يتعلل حذاه.

- أنا لا مشاعر لدي لأي إنسان.

- من الذي يكذب الآن.. لا تنكر ذلك.. يمكنك أن تتركني لكن  
لا تنكر أنك أحيتني مثلما أحيتك.

صاح يحمي متعجباً:

- أحيتك؟

- ألم تر كيف كنت تنظر إليّ ونحن نرقص سوياً؟

انجبه يحمي في عصبية إلى باب الغرفة وتناول معطفاً طويلاً كان  
معلقاً على شِاعة بالباب ونظر طويلاً في المرأة وبدأ عليه الارتباك  
عندما استدار وقال في حزنٍ شديد:

- من فضلك يا ياسمين.. لقد أخبرتك منذ اليوم الأول.. أنا  
رجل مستهلك ولا أصلح للعلاقات.

- لا يهمني إن كنت تصلح أم لا.. أتعلم.. لا يهمني أي شيء سوى  
أن أعرف فقط أنك تحبني مثلما أحبك.

- ومن الذي يعرف أي شيء عن أي شيء.. أنا لم أعرف شيئاً عن  
نفسي طوال عمري.. أضعت ثلاثين عاماً لم أعرف فيهم أنني كنت  
أحب زينب.. وعندما علمت كانت قد رحلت.. فكيف أعرف عن  
حبي لك وأنا لم ألقاك قبل ثلاثة أشهر؟

قامت من جلستي واقفة وصحت:



- وأنا ذهب من عمري ثلاثون عامًا لم أحب فيهم أحدًا.. وعرفت أنني سأحبك منذ اليوم الأول الذي التقينا فيه..

وكان يحبى ما زال ينظر إلى المرأة ويزداد شروده حتى أحسست أني سأكلم نفسي إذا تابعت.. لكنني قلت في يأس:

- ماذا تقاوم يا محبى.. لماذا تهرب من نفسك الآن؟ ألم تتعب من الهرب؟ كل هذا الحزن وكل هذه الغربة.. والآن ترفضني رغم أنني أثبت إليك في رضا؟ ماذا تريد من الدنيا إذا؟ ما الذي تنتظره؟

ولم يرد عليّ محبى أيضًا.. ظل واقفًا في شروذ وسكون دون أن ينطق بكلمة.. ثم تحرك بعدها في سرعة وكأنه يتلافاني، وجمع البرديات في حرص شديد ورتبها في عناية ووضع فوقها الأوراق التي ترجمها وطوى الكل في رقة بالغة ثم نظر إليّ في صمت سائلًا أن نتحرك إلى الاستديو.. فتنهدت في يأس وخرجنا إلى السيارة.

لم ننطق بكلمة طوال الطريق من الكامب إلى الاستديو في الغردقة.. وكان الغضب يملككني وقد أحسست للمرة الأولى أنني لم أفهمه.. وعند مدخل البناية في النزل الليبي كان الحارس جالسًا يدخن في شراة، ونظر إلينا ونحن داخلان إلى المبنى ولم يعلق بشيء، وبدأ أن يحبى لم يكن مهتمًا بوجوده.. وعند دخولنا الغرفة ألقى محبى بجسده في تناقل شديد على المقعد.. ووضع اللفائف التي في يده فوق الطاولة الصغيرة جوار كتب الهيرغليفية.. ولم أنتظر منه أن يتكلم أو يسأل وأحسست أنه لم يعد يريد مخاطبتي.. فذهبت إلى الدولاب الكبير وأخرجت منه حقيتي حيث كانت توجد بقية اللفائف.. وقال محبى وأنا أخرج البرديات منها بحرص شديد كما وجدته يفعل:

- هذه البرديات شديدة الأهمية وبالغة القيمة الأثرية.. كيف عوملت بكل هذا الإهمال طول هذه السنوات؟

قلت معقبة على كلامه وما زال غضبي بادياً عليّ:

- لا تُلَمُّ أحدًا بجهل قيمة ما يملكه.

فصرف عينه بعيداً عني بعد أن فهم قصدي وناولته اللفائف الثانية وأحضرت له أوراقاً ليقوم بالترجمة عنه يهدأ.. وكان يشاء بعينه صارتا محمرتين من فرط السهر.. وكنت أعاني مثله.. فقلت دون اهتمام:

- ساعد قهوة لنفسي.. هل ترغب؟

فأوما برأسه دون رد فذهبت إلى ركن المطبخ لأصنع القهوة.. وعندما عدت كان قد بدأ فعلياً في ترجمة البردية الأولى من اللفائف الجديدة.. ناولته القهوة فأخذ منها رشفة سريعة وقال في امتنان:

- شكراً.. شكراً جداً.

وكان الحماس قد بدأ يغزو صوته بعد أن بدأ الترجمة.. ووضع الفنجان بعيداً خوفاً على البرديات.. وسألته:

- كم سوف تستغرق ترجمة هذه المجموعة؟

فقال في شرود وهو يقلبها وكأنه يبحث عن شيء ما:

- لا أعرف تحديداً.. ربما أربع أو خمس ساعات.. وربما النهار كله.

فأرحت ظهري على وسادة الفراش وتشاءبت في ملل.. وقال بحمى:

- لكن من الواضح أن هذه ليست نهاية البرديات.

فقلت:

- ماذا تقصد؟

- التقسيم هنا تحت الخرطوشة الملكية يشير إلى أن هذا هو التدوين الثاني لمجموعات ثلاث.. وكان الآخر هو الأول.. وهذا هو الثاني.. لكن لا يوجد أي شيء هنا عن التدوين الثالث.. هل أنت متأكدة أنك أخذت كل اللقائف التي كانت في قبر جدتك روز؟  
- لا أعرف.. هل يكون عمار قد خدعني؟

فقال يحيى مفكرًا:

- لا أظن.. إن كان ينوي خداعًا لكان سرقها كلها من البداية.. نهمت من كلامك أنه كان يخشى من غضب والده.. قلت لي ماذا كان اسمه؟

- مسعود؟

- نعم نعم الحاج مسعود.. لا يهم الآن.. أترجم هذه أولاً ربما وجدنا فيها إجابة على كل هذا الغموض.

ثم عاد يحيى للترجمة واندمج فيها بشغف كبير بعد أن أنهى قهوته وبدأ أنها أنعشته قليلًا..

بعد ساعة بدأ الملل يتسرب إليّ، وكنت أقاوم النوم بصعوبة شديدة ولما وجدت أن الأمر سيطول قمت إلى الترجمة التي قام بها يحيى للمجموعة الأولى وأخرجتها وجلست أطلع عليها ربما أفهم منها شيئًا جديدًا.. وأخذت أقرأ عن الأميرة «نفرو-رع» وقصتها تلك، حتى انتهيت من القراءة.. وكنت قد فشلت تمامًا في إبقاء عيني يقظتين فغلبنني النوم بعد انتهائي من القراءة مباشرة، وكان يحيى يترجم البرديات بانهمالك شديد، ولم يعد يشعر بوجودي.. حتى رحلت تمامًا في النوم وحلمت بيحيى وهو يقبلني في رقة شديدة.

عندما استيقظت بعد نوم عميق ولم أدركم مضيبي عليّ في تلك  
الحالة ووجدت يجيى هو الآخر ممدداً على الكرسي ماذا قدميه على  
طرف الفراش وقد راح في النوم هو الآخر.. ووجدته قد وضع غطاء  
فوق جسدي عندما كنت نائمة.. فنهضت في هدوء شديد كي لا  
أوقظه.. ووجدت أمامه على الطاولة ما قد قام بترجمته.. فمددت  
يدي إلى الأوراق في فضول شديد لأكمل ما قد قرأته عن تلك  
الأميرة.



(٩)

## الزعرانة

الثاني الأوسط من ثلاثة

أنا الزعرانة.. أنا الجميلة فوق كل جميلة.. أنا التي رضي الإله مُلكي وما رضيت..  
أنا التي تقدّست أسمائي وتجلّت ألقابي من الشمال إلى الجنوب.. فنبذت هذا كله  
وسعت مع مَنْ آمَنَ بي نحو الشرق..

ولمّا كان من قومي ما كان. زاد إيماني بنبذي لهذه الحياة وكل ما فيها من خبثٍ  
وأُفِنت في قرارة نفسي أنني لا بد راحلة.. إنما أنتظر الإشارة من سيد الآلهة..  
وأستظر المباركة من معبودي الأبدي «رع» العظيم.

أنا الأميرة «نفرو- رع» ابنة المقدّسة دوّما «ماعت- كا- رع- حتشبوت».  
أنا الزعرانة.

\*\*\*

أعدم الحارسان والضابط المكلف وكبير الحرس بالقصر.. وتنفذ الجلادون  
في تطعيم كثيرًا قبل أن تُصْلَعَ رؤوسهم.. ولم يفلح التعذيب معهم في انتزاع أي  
اعتراف منهم بمن أمرهم بدس السم لي.. كان الكل ينكر معرفته بأي شيء عن

الكأس المسموم بعد أن ثبت فعلاً ما وُضِعَ فيه من سم كاد أن يقضي عليّ.. لولا أن تدخل «حور» في اللحظة الأخيرة.

انقلب القصر رأساً على عقب بحثاً عن أي خيط يؤدي إلى معلومة ثبت تورط «إيست» في تلك الفعلة.. وكان من الواضح أن من فعل ذلك أثقن فعلته جيداً.. فإما أن ينتهي التحقيق إلى شخص ميت.. أو إلى شخص نفذ أمراً من شخص أصبح ميتاً.. وأصبح الوضع يدعو إلى السخرية الشديدة.. وما زاد من السخرية أن «تحتمس» نفسه كان يتزعم فرّق التحقيق.. رغم أنه كان جلياً للجميع أن الشكوك كلها كانت تحرم حوله وحول «إيست».

قالت الملكة بعدها لـ «سنموت»:

- لم يعد هناك وقت لنضيعه.. لن أنتظر حتى أجد ابنتي وقد هلكت إحداهما.. والكهنة متورطون في ذلك.. رأيت هذا أم لم تراه.

وكان «سنموت» مصرّاً أن الموضوع مقتصر على «تحتمس» وحده.. خاصة بعد انتشار خبر فشل مشروع زواجنا المقدس.. وتعطل حصوله على الشرعية الكاملة لاعتلاء العرش وحده. وقال «سنموت» لأمي:

- أفهم جيداً جلالتك أن يسعى الملك إلى ذلك.. أو أن يتم ذلك بتدبير من «إيست» وحدها.. لكن ما دخل المعبد وكهنته في ذلك؟ لماذا يلوثون أياديهم وشرطهم بدماء مولاتي «نفرو» وع؟

قالت الملكة:

- لا أظن أن «تحتمس» له يد في هذا.. أعلم أنه خائف وغاضب منذ رفضت زواجه.. لكنه قائد كبير في الجيش الآن.. ورجل ذو عزة وشأن.. إن أراد بها شراً لدخل عليها مخدعها وذبحها ثم خرج علينا برأسها.. ليس الخداع أسلوبه ولا

الحياة من خصاله.. دماء أبيه الملكية تسري في عروقه رغمًا عنه وعن رأس الأهل  
والله..

ورجعت أمي تتحدث عن ذبحي وكأنني بقرة أو ماشية عاقر لا قيمة لها ولا  
لمن.. قلت في حق:

- هل أصبحت الآن ذبيحة مختلفون فيما ينكم على من سينال حظه في ذبحها.  
فقلت أمي في رفق:

- هوني على نفسك يا بني.. إنما نحاول أن نتأكد من الفاعل حتى لا يتكرر  
ما حدث.

- وهل سيتكرر ما حدث؟

- في الغالب لن يهدأ من حاول حتى يصل إلى هدفه.

- وما الهدف من التخلص مني؟

- العرش يا زعفرانة.. العرش.

- أليس العرش لـ«نحتمس».. سواء تزوجنا أم لم نتزوج؟ لم صار التخلص مني

أمرًا يسهل عليه الوصول إلى العرش؟

هنا تدخل «سنحوت» مفسرا:

- وجودك إلى جواره كزوجة ملكية كان يمنحه شرعية قوية في الانفراد بالعرش

لنفسه، منحياً مولاتي الملكة جانباً.. ورفضك مع إبقاء الملكة واصية عليه لعام أو

عامين يقلقه بشدة.. أو أنه يقلق من هم وراءه ويتعارض مصالحهم مع جلاله

الملكة.. أما التخلص منك فإنه سوف يدفع بالملكة إلى أمرين لا ثالث لهما.

قلت:

- وما هما؟

إما التنازل عن العرش له وإنهاء الوصاية عليه.. وإما ترشيح أختك «ميريت» بدلاً منك لتشاركه الحكم.. وكل الأمور تدفع إلى تخفية جلالتها عن العرش.

- وما المانع في أن تشاركه «ميريت» في الحكم أو أن يتزوجا؟ أنا لا أرى في الأمر أي غشاضة.

وهنا صاحت أمي بغضب:

- قلت لك لا، هذا أمر لن يكون ما دمت حية.

- ولم؟

لم ترد أمي على سؤالي.. فنظرت إلى «سننموت» مستفسرة فقال:

- يبدو أن أمك يا بنيقي ترى خطراً من توليها سويًا حكم البلاد.

- خطراً؟! على من؟

قالت أمي:

- على البلاد نفسها.. وعلى أختك.. وعلىك يا انيقي.

- ولماذا تتعاملين معهم جميعاً على أنهم أعداء لنا.. ألم تقولي بنفسك إن الحرب

قد ولت وانتهت؟ لماذا تبخنين عن الأعداء الآن حولك؟

- أنت صغيرة حاملة يا بنيقي.. ولا تعين العالم من حولك.. الحرب لا تنتهي أبداً.

ثم أضافت:

- وفي الحرب.. من يعرف عدوه يكسب نصف هذه الحرب.. ومن يعرف

قدراته يكسب نصفها الآخر مهما كان ضعيفاً.. وفي بعض الحروب قد يكون العدو

هو أقرب الناس إليك.



ونظرت إليّ في إشارة لقصدها فقلت:  
- وقد يكون هو نفسك.

لرمقتني في حدة بعينيها وتدخل «سننموت»:  
- جلالتك.. صغيرتنا لا تقصد شيئاً بذلك.

قلت بغضب:

- بل أقصد كل ما أقول.. لماذا لا يكون ما نحن فيه الآن من خوف وترقب  
وقلق لن ينتهي إلا بموتي بسبب الطمع في الحكم؟ لمَ كل هذا التآمر والترقب  
والتعایل؟ من أجل ماذا؟ العرش؟! ولماذا يجلس شخص واحد على العرش يستأثر  
به لنفسه؟ لماذا يجب أن يكون الحاكم ملكاً؟ لماذا لا يكونون ملوكاً وأمراء ونبلأ  
وأشرافاً من عامة الشعب؟

فاجأتني أمي بضحكة عالية طويلة أطلقتها وأدارت لي ظهرها منصرفة إلى  
كرسيها، ووجدت «سننموت» يتسم في تحفظ وقالت أمي بعد أن أنهت سخرتها  
من قولي:

- أي خرف تطيقين به يا نفرو- رع؟ أتظنين أن أهل طيبة وسائر الأقاليم سوف  
يدينون بالولاء لمجموعة من الناس العاديين دون ألقاب ملكية أو نسب إلهي؟ ألم  
تعرفي شيئاً عن شعبك بعد؟ يا طفلي الصغيرة البريئة.. الناس هنا لا تؤمن إلا بالملك  
الفرعون.. لا تدين بالولاء إلا للملك القوي الأواحد. ثم نظرت إلى «سننموت»  
وقالت مكحلة:

- ولا تسجد إلى للإله وأبنائه.

وعطت أنفي لن أصل إلى شيء يجدي، هذا وكل ما أقول بالنسبة لها هو مجرد

تخريف لصغيرة لا تفقه شيئاً في الحياة.. فسكتُ عن الكلام.. إلا أنها لما رأت من صمتي هذا عادت لتقول في رفق:

- أكثر ما يحزنني يا بني هو أنك أصبحت تتحدثين بلغة المغييب عن واقع بلاده.. ألم تري بنفسك ما فعلته للناس وللبلاد طوال حكمي إلى الآن.. لم يعد يوجد بيت واحد في طيبة لا يدعو للملكة لما أصبح فيه هو وأهله من نعيم في عهدي.. دانت لنا الأرض كلها من حولنا بالطاعة وانتهى عهد طويل من الحروب والدماء.. امتلأت خزائننا بالذهب وامتلات المخازن بالمؤن والغلال.. حتى صرنا نبني من المخازن أضعاف ما كنا نبنيه منذ أعوام. ألا يعني لك هذا شيئاً؟.. ألا ترين في أمك شيئاً سوى الملكة الطاغية؟. ولا تجددين فيها الحاكمة الأمينة التي خدمت شعبها رغم ما كانت عليه البلاد بعد الحروب الطويلة من ضعف وفقر؟

- أنا لا أنكر أيّاً من هذا.. بل أقره وأسعد به وأعرف ما هو أكثر منه.. أنا لست أعيش في وطن آخر يا أمي.. ما أتكلم عنه هنا هو الثمن مقابل كل هذا. انظري إلى أين انتهى بنا الأمر.. الحرس المكلف بحماية ابنتك خان أماتيه.. وحاول قتل أي أمان سيجيء بعد هذا؟ كسبت العرش وخسرت الأمان؟ وولاء كهنة المعبد اتضح أنه وهمي.. إلى أين نذهب بعد الآن؟ هل نعتزل الحياة كي نعيش في أمان.. أم سنقضي عمرنا ننظر خلفنا في انتظار النخجر المسموم الجديد.

صمتت والدتي في حينها وفكرت قليلاً ثم قالت موجهة الحديث لي ول«سنموت»:

- الحرس أمرهم سهل.. سوف يتغير طاقم القصر بالكامل.. وأنت يا «سنموت» من ستختارهم بنفسك هذه المرة.. وإن شئت رأيي.. حاول أن تلح على «نخمس» في تغيير حرسه هو أيضاً.. الخيانة قد تطوله رغم أنه قد يبدو للعامة أنه المستفيد الأول منها.

وقال «سنموت»:

- وهل سيقبل بذلك جلالتك؟

- في الغالب سيقبل.. أنا أعرف ما يفكر فيه.. لقد قلت لكم.. إنه قائد بارع في الجيش وليس قاطع طريق.

- أمر جلالتك..

- أما الكهنة..

ونظرنا إليها في ترقب منتظرين قرارها بينما أخذت تهز قدمها في توتر، ثم قالت له سنموت:

- أما الكهنة يا «سنموت» العزيز.. فلا توجد فرصة أفضل من الآن للضغط عليهم. أصابع الاتهام كلها تشير إليهم جنباً إلى جنب مع «إيست»، وسوف يفعلون أي شيء ويقبلون أي تهمة يطرحها القصر.. محاولة لإثبات نواياهم الحسنة تجاه ملكتهم.. وقد نويت أن أستغل هذا بأفضل صورة ممكنة.. وهذه في النهاية مشيئة عليا من «أمون» الإله ولا يد لي في ذلك.

فقال «سنموت»:

- إذا فقد آن الأوان لجلالتك.. ليتقدس اسمك يا سيدة الأرضين.. ولم أفهم ما كانا يتحدثان عنه.. وقد بدا لي أنه أمر يعدون له منذ فترة فسألت مستغرة:

- هم يشكلون يا أمي؟ أي تهمة بمون وتقصدين؟ ما هي مشيئة آمون تلك؟  
فقلت أمي وهي تتعشى النظر إليّ:  
- ستعرفين كل شيء في حينه يا زعفرانة.

- في حينه؟ مثل العامة؟

- إنما أحافظ عليك يا حبيبي.

ثم التفت إليّ واقتربت مني حتى صارت أمامي مباشرة وقالت وهي تنظر في عيني طويلاً:

- صدقي.. يوماً ما سوف تعرفين وتفهمين كل شيء... ألم تحولي أنت منذ قليل أن الإنسان قد يكون عدواً لنفسه؟

فنظرت إليها ولم أرد.. وبقيت هكذا حتى أشارت إليّ بالذهاب قائلة:

- والآن.. اتركني مع «سنموت».. سوف نتحدث في أمور لا نريد أن نشغل قلبك الرقيق هذا بها.

فانصرفت في صمت.. وعدت في خوفي إلى الجناح الجديد الذي كدت أن أقتل فيه. وقبل أن أدخل غرفتي وجدت «ميريت» في انتظاري وكلها ترقب وفضول لتعرف ما جرى بيني وبين أمي و«سنموت» في الديوان الملكي فدعوته إلى غرفتي وحكيت لها.

كانت «ميريت» قد بدأت تكبر، وصار عقلها يعمل في سرعة وتخفز ورثته من أمي بالطبع.. وكانت قد أصبحت تتطرق بلسان أكبر من سنها بكثير.. ونظّل تفسر المؤامرات وأحاديث الكهنة كلها وتحللها لتستنتج ما سوف يدور في طية قبل حدوده.. كما أنها اعترفت لي منذ فترة أنها عندما انتقلنا إلى القصر بأنها قامت بزرع بعض العيون الخاصة لها لتعرف كل ما يدور داخل أسواره دون أن تتحرك من غرفتها.. وقالت لي وهي تمزح وقتها.. أنها تعتبرني أهم عين من تلك العيون المتلصصة.

بعد أن حكيت لها ما دار بيني وبين أمي وسنموت قالت «ميريت» في شرود:

.. أتعرفين يا زعفرانة أن أمانة كانت تعشق الصيد منذ الصغر، وكان أبونا  
ونحنس» الأكبر العظيم هو من علمها الصيد؟  
.. وما شأن ذلك بما حكيت؟

.. شأنه شأن كبير.. أنا فقط لا أصدق أن «إيست» تمتلك هذه المرأة على  
أن تدير تلك المؤامرة.. وواضح للجميع أن «نحنس» ابن أينا يعشقك ويرحبك..  
والرجل لا يؤذي من أحب وإن رفضه الحبيب ما دام في منزلة أقوى منه..  
ونحنس قوي.. قوي جداً يا نفرو.. القادة جميعهم في الجيش الآن يدينون له  
بالولاء.. ورجل في مثل قوته.. لن يفعل هذه الخدع والمؤامرات التي لا تليق إلا  
بالنساء..

.. لم أفهم ما ترمين إليه إلى الآن..

.. حسب ما تنتويه أُمي وما تحضر من مفاجأة هائلة للشعب.. فإنها وحدها..  
ثم صمتت «ميريت» ولم تكلم.. فقلت أستنطقها:

.. إنها وحدها ماذا؟ أتقصدين أنها المستخيد من تلك المؤامرة؟ أجننتِ يا  
«ميريت»؟

قامت «ميريت» متجهة إلى باب الغرفة تنوي الخروج وقالت بنجش:

.. أنا لم أقل مثل ذلك بالطبع.. لكن أتعرفين القول أن أفضل شرك يصنعه  
الصيد لفريسته هو ما يتركه لتصنعه هي بنفسها لنفسها..

ثم قالت قبل أن تغلق الباب وترحل:

.. لقد أجادت الملكة اللعب بكهنة المعبد بشكل غير مسبوق.. وإني لأشفق  
عليهم..

ثم أغلقت الباب خلفها وعادت إلى غرفتها.. وتركتني وحدي أفكر في كل هذا  
انظر الذي قاله حتى ضاق رأسي، وكادت روحي أن تزهق من كل هذا الجبر  
الخالق من المؤمرات والدسائس والخطاع الذي صار يمتلئ به القصر..

فصمت إلى نافذة غرفتي وفتحتها وأخذت أنظر إلى الليل وإلى بستان القصر  
وأفقد «حور» الذي كان أول ما تراه عيني فيها كل صباح.. وأخذت أتذكر ملامحه  
وأشرد فيها ثم أفكر في السر الذي جعله يدعي كونه أصم طوال هذه السنوات  
العديدة.. وابتسمت رغماً عني عندما تذكرت كيف كنت أتحدث أمامه كل ليلة  
في حرية وأحكي له عن أدق تفاصيل روحي وعن هيامي به وبجسده الرائع ورائحته  
المعطرة دائماً.. لكنني لم أجد في نفسي حرجاً.. بل اشتقت له أكثر وقد صار يعرف  
ما كان في نفسي من عشقٍ له.. وصرت أتمنى لو كان موجوداً حولي الآن كي  
تتأجج وتسمعني صوته الذي أفقده رغم أنني لم أسمعته سوى مرة واحدة فقط..  
إلا أنها كانت كفيلة بتعلق روحي به أكثر.. بعد أن أنقذها من تلك انطيانة الدنس.  
مر أسبوع مشحون بالزيارات العديدة لكهنة المعبد وزيارات أخرى لقادة  
الرحلة التجارية المتجهة إلى «بونت» وقد صار الركب في تأهب شديد وينظر  
الإشارة في أي وقتٍ للذهاب إلى بلاد الرب.. وكان واضحاً أن الملكة قد قررت  
إطلاق الرحلة البحرية بعد انتهائها مباشرة مما كانت تعده للمعبد وللكهنة وللبلاد  
كلها.. وصرت أترقب ما سوف يحدث مثل الجميع.. وأقضي الليل في مناجاة  
صامتة إلى «رع» أسأله أن يعيد إلى «حور» بأي طريقة.. وقد بدأ قلبي ينفطريوماً  
بعد يوم عندما طال غياب.. وفي الليلة الأخيرة من نفس الأسبوع جاءني قرعات  
متقطعة على نافذة الغرفة ظننتها في البداية صوت الرياح المشتدة في خارج القصر..  
لكنها تكررت بشكل أكثر انتظاماً فصمت إلى النافذة أفتحها ونظرت خارجها لم

أجد شيئاً غير طبيعي.. وكان الحرس الجدد في مكانهم تحت شرفتي.. لكنني وجدت عدداً من الحصى المستخدم في تدريبات الرماية للصبيّة الذين كان يُجرى إعدادهم لفرق الرماة عندما يبلغون سنّاً مناسبة.. ووجدت إلى جوارها لفة صغيرة من زهور البنسج ملفوفة بأعواد رفيقة من زهور اللوتس.. فاختلج قلبي في صدري وعرفت أنه «حور» ورحت أبحث عنه في الحديقة لكن مشهد الحرس اليقظ أكّد لي أنه كان قد وضعها قبل فترة.. ربما أثناء راحتهم.. كما أن الحصى هذه توجي إلى أنه يوجد في مكان بعيد عن هنا.. ربما يقف مبتعداً عن سور القصر.. وقد كان «حور» رابهاً ماهرّاً للسهام ويستطيع أن يصوّب على نافذتي من أي مكان.

بقيت لفترة في مكاني محتضنة الزهور إلى «صدري» ربما كان يراني.. وجاء الهواء بارداً رطباً لطيف من روحي وغسلها بدماء تنفقت من قلبي النابض بسرعة من ثوبه إلى «حور».. ثم عدت بعد ذلك وأغلقت النافذة واحتضنت الأزهار حتى لمت وهي بين ذراعي.

في اليوم التالي احتشد الجميع في معبد آمون تميّداً لأوامر الملكة ولطلب الكهنة أيضاً.. حيث جرى الكلام في البلاد طوال الأيام السابقة لليوم عن الإعلان الهام والقرار الذي سيتم اتخاذه في المعبد.. والذي من أثره سوف يعم الخير على المصريين جميعاً.

تلقى النبلاء ورؤساء الدواوين وقادة الأفرع في الجيش دعوات غير مقبولة للرض للحضور إلى المعبد.. ولم يكن من أحد في طيبة ولا مصر كلها بإمكانه أن يرد طلباً مباشراً من المعبد وقد صدر في هيئة أمر يطاع. ودخل المدعوون الرسميون إلى الصالة الرئيسية للمعبد.. بينما احتشد عدد هائل من عامة الشعب ومن الجنود بالجيش في الخارج.

توسّطت جلالتها الجهة اليمنى من الصلاة بحيث بقيت جالسة أمام المدعوين جميعاً وعن يمينها ويسارها حاشيتها وكبار القصر.. واحتل الكهنة المنصة بالطبع واتخذ كبير المرتلين مكانه البارز أعلى المنصة في الجهة المقابلة للنافذة الرئيسية تجاه الشرق.. فكانه مكانه الأكثر بروزاً في الصلاة كلها.

وقام الكاهن المرتل رافعاً يده في إشارة آمرة إلى كل من في القاعة بالتزام الصمت حيث سيبدأ الكلام.. فسكن الجميع وتعلقت أنظارهم جميعاً به.. ونظرت إلى أمي فوجدتها الوحيدة التي لم تنظر إليه.. إنما كانت تتابع وجوه الحضور وتنقل ناظرها إليهم في رقب.. وكان «تحتمس» ابن أبي جالساً قبالتنا وسط قادة الجيش يتابع في قلبي بادٍ رغم صمته الشديد.. قال الكاهن الأكبر:

- «الصلاة لك يا رب.. الصلاة لك يارب السماوات ويا خالق الكائنات.. يا من كنت قبل أن يكون الجميع.. ومنذ البدء..»

ثم التفت إلى الحضور محرّكاً بصره متنقلاً بعينه ليتأكد من انتباه الحضور.. وثبتت عينه على مكان أمي وتابع قائلاً:

- «يا سادة القوم.. يا من يورثكم بكونكم أبناء هذه البلاد المقدسة التي رضيت عنها الآلهة.. تلو عليكم الآن نص النبوءة التي نطق بها الإله آمون.. في العام الثاني من حكم جلالة الملك «تحتمس الأول».. أمام قصر رأس القناة عند المقر الملكي لجلالته..»

ازداد انتباه الجميع واسمعت أعينهم عندما أعلن الكاهن المرتل بأنه سيتلو عليهم تلك النبوءة التي يقول إنها حدثت في عهد جدي لأبي «تحتمس الأول» عندما كانت أمي لا تزال طفلة.

قال الكاهن في ترحم:



- «وكان أن خرجت الملكة في وقتها وقالت لهيئته الإلهية وهي ساجدة: يا لها من طريقة تتجاوز النبوءات المعتادة.. يا من تذكر دائماً في كل شيء... ما الذي تريد أن يخفى ليكون؟ قل لنا لتنفيذ مشيئتك.. فكان أن أشار الإله «أمون» العظيم إليها أن تنهض من سجودها لتتحرك مع مركبه المقدس ناحية مقام «ماعت»<sup>(١)</sup> العظيم.. فتحركت.. وكذلك تحرك النبلاء خلف جلالته..»

ثم سكن الكاهن المرتل حيناً والتفت إلى حيث يجلس النبلاء... وكان جميعهم مشدوهين تعلو وجوههم الدهشة مم يسمعون.. ولا يكادون يطيقون صبراً لسماع باقي الحكاية والوصول إلى نص النبوءة التي تنبأ بها أمون في ذلك الوقت.. وأكمل الكاهن:

- «وبعد أن دخل كافة رجال البلاط وعلى رأسهم كانت جلالة الملكة إلى المكان المقدس والمقام العظيم لـ«ماعت» في صالة التقدّمات بالمعبد قام جلالة «أمون» إله الكون.. وبعد أن وضع الملك «تحتمس» المنديل الأوزيري.. ومد يده المقدسة على كتف جلالته الصغيرة..»

وهنا أشار بناظره في وضوح إلى أمي وثبت عليها قليلاً ليؤكد للجميع من كان يقصد بكلمة جلالته.. ثم أعاد الجملة الأخيرة مكملاً:

- «ومد يده المقدسة على كتف جلالته الصغيرة.. وعلى ذراعها.. وأخذ جلالة الملك يتأملها.. وكانت متألّثة.. وكان تاجها عظيمًا مزدوجاً يحكم بالعدل.. مرضعاً في كبرياء الأحياء.. ثم قال جلالته ناطقاً باسم الإله الأعظم وسيد الآلهة: ...»

وصمت الكاهن ناظرًا ببصره ناحية السقف المرتفع للمعبد قبل أن ينطق نص النبوءة التي قالها سيد الآلهة:

<sup>(١)</sup> إلهة تمثل بيشة سيدة تعلو رأسها ريشة النعام رمز العدالة وإلهة الحق والعدل والنظام لئلا يكون عند القدماء

- «أقبل إلينا أيها العظيمة»<sup>(٧)</sup>.. يا رائمة الجمال كوني أمامي أضحك إلى ذراعي  
لتشهدي ملوك العرش.. ولتخلدي مظاهر الوقار والمُلك.. لتزداد عظمتك في  
القصر.. فتكوني عظيمة بسحرك.. قوية بمرأتك.. ملكة للأرضين تضرين على يد  
المترددين.. فتظهر جبهتك المزدانة بسلطان التاجين.. وتفرحي لأنك أنت وريثة  
«حورس» الذي سلك القيادة.. أمام عروش الآلهة.. أيها النبلاء جميعاً.. يا  
من ترأسون الشعب.. هذه ابنتنا.. «حتشبسوت»، لتحيا.. هي وارثتي في الملك..  
وهي من سوف تجلس على عرش مصر بكل تأكيد.. ومن سوف تصدر الأوامر  
للناس في القصر وخارجه.. وسوف تسمعون لها.. وتطيعونها.. فهي من ستحكم  
جميعاً.. هي ابنتنا «ماعت - كا - رع - حتشبسوت» إلهتك التي ستعيش للأبد..  
وستعارب الآلهة لنصرتها كل يوم.. هذا أمر جلالتي وأوامري سيد الآلهة جميعاً..  
ثم انتهى الكاهن المرتل من سرد نص النبوة كما نطق بها سيد الآلهة آمون عند  
رأس الفتاة منذ سنوات.. نظر الكاهن متلفتاً برأسه إلينا يمينا ويساراً ثم استقر إلى  
مكان مجلس أمي الملكة الساكنة في وقار.. وقد سكن كل من حولها تماماً بعد أن  
أعلنها سيد الآلهة بنبوته تلك ملكاً إلهاً يعيش للأبد.

قامت في وقارها الذي على شأنه بعد تلاوة نص النبوة وتحركت في عزة  
وشموخ إلى حيث كان الكاهن المرتل يقف.. فأحنى رأسه في إجلال عظيم لها..  
وترك المنصة واتزوى جانباً إلى جوار بقية الكهنة.. ويمعت أمي وجهها ناحية الضوء  
المنبثق من النافذة وصاحت منادية:

- الصلاة لك يا رع.. يا من أنت في عليائك رب السماء ورب الأرض.. هبني  
القوة.. هبني الحكمة.. ارسل بنورك إليّ.

ثم التفت إلينا جميعاً بفتة ثم إلى كهنة المعبد ونظرت في حزم وقسوة بادية..

(٧) بتصرف من النص الأصلي

لمروا جميعاً إلى الأرض سجداً يقبلون الأرض حولها تحت قدميها.. ثم تبهم رؤساء الشعب ثم النبلاء ومن ورائهم قادة الجيش والحرس.. سجد كل من كان بالقاعة.. ولم يبقَ سواي أنا و«تحتمس» الذي كان محتقن الوجه مصدوماً.. لكنه ركع في ناطق صاغراً ثم نظر ناحية الأرض.. وسجدت أيضاً وراءه.. ومن ذا الذي يجرؤ على مخالفة ما جاء به آمون سيد الآلهة في نيوته.. وسمعت الملكة الإلهة التي تابعت مابدأته من قسمها:

- سأكون مهابة من عند جلالتك.. أملأ الأرض من خيراته.. وأملأ مخازن الغلال في طيبة.. أزود المذابح في المعابد وأعزز أوضاع الكهنة.. كل في منصبه.. أحرص على تنفيذ القوانين كلها.. ليستقر الحكم أخيراً في البلاد.. وليعم السلام الأرضين في عهدي.. وليصبح المستقبل مشرقاً لمن بعدي.. ولأثقل كافة الرموز الملكية.. كما أمر جلالتك.. تنفيذاً لوصاياها العليا.

ثم سكن حديثها وبدا الساجدون مترددين بين مواصلة السجود أو محاولة سرقة النظر لما سوف يتم من مراسم التتويج الملكي.. واتفق الكهنة جميعاً حول الملكة وقام كبيرهم بوضع تاج الفرعون الملكي المزدوج ثم ركع الكهنة أمامها بعد أن قالوا وقال كبير الكهنة في تجميل:

- نحن الذين نقر بكبريائك ووقارك الملكي.. وقد منحت القدرة على قيادة الأحياء للأبد.. مثلما فعل رع.. يا من تعيشين للأبد.

ونحروا سجداً مرة أخرى ثم قامت الملكة لتمشي أمام الجميع معلنة سلطانها الجديد غير المسبوق على الجميع.. ونادى الحراس في الخارج على الجمهور المحتشدة أمام المعبد معلنين النبوءة والبدا في طقوس إعداد الإله الملك الجديد «ماعت كا-رع-حشبتوت». فهلل الجميع داخل المعبد وخارجه.. ورقص من رقص وسجد من سجد..

وتباركوا جميعاً متفائلين بالإله الفرعون الجديد الذي يحيا بينهم.. والذي يعيش للأبد.. والذي هو.. أمي!!

عدت مع من عادوا بعد انتهاء أمور المعبد إلى القصر.. بينما توجهت أمي الملكة الإله إلى الجربة الطقسية حول الحائط ثم بعدها توجهت إلى أعمال التطهير التي يجب أن تمر بها كملك متوج في المياه الخمسة.. كي توهب الحياة والحياة والصحة والاستقرار كما يعد رب المياه المقدسة في بحيرة «مورس»<sup>(٨)</sup>.

ووجدت الشعب في طيبة وقد جن فرحاً.. كانوا يرقصون كمن ذهب رؤوسهم من فرط النمر.. وسكرت أرواحهم فرحاً.. وظلوا على هذه الحال بين الرقص والصلاة والاحتفال في أرجاء القصر وخارجه.. قبل وبعد عودة أمي وانتهاء من الطقوس الملكية.. وظلوا يرددون الأغاني والحكايات حول المعجزة الإلهية التي حدثت لهم.. والتي حتماً ستعم عليهم بالخير كما وعدهم سيد الآلهة آمون.

وكان مستشارو الملكة مستعدين أتم الاستعداد لاستقبال هذه الفرحة فنظموا احتفالات شعبية ومراسم رقص وعروض ومسابقات رياضية وألعاباً شارك فيها الضباط من الجيش والعامّة جنباً إلى جنب.. وعادت الملكة بعد ليلتين لتجلس على عرشها ملك فرعون منفرداً في حكمه مباركاً من آمون وكهنته وكبار موظفي الدولة.. ولكي تضمن ولاء الجيش قامت بالإبقاء على «تحتمس» إلى جوارها في الحكم بشكل صوري.. وإن كان واضحاً للجميع الآن من الفرعون الحاكم الأمر والناهي.. وانتهت اضطرابات من يحكم مصر بشكل نهائي.. وفي الليلة الثالثة لحكمها الجديد.. كنت جالسة في جناحي أفكر فيما حدث.. ولا أتخيل كيف نظمت هي و«سنموت» كل هذه الأمور بمباركة من الكهنة وتحت رضاهم؟ وأين كانت نبوءة آمون الإله هذه كل هذه السنوات؟ ولماذا لم تظهر إلا الآن؟ وكان رأيي

(٨) بحيرة قارون حالياً

يتعل من كثرة الأسئلة.. وأكثر ما كان يسبب لي اضطراباً.. هو ذلك الطيف  
 الذي رأيته وأنا خارجة من المعبد عائدة إلى القصر.. وكانت له عينان مثلهما مثل  
 عيني «حور» لكنه كان يضع رداءً دثر به نفسه من فوق ركبتيه إلى رأسه.. فلم يظهر  
 منه لي إلا عينيه.. وكان ينظر إلي بقوة وكنت متأكدة أنه هو حور بنفسه.. ولولا  
 خوفي عليه أن يحدث له مكروه لكنت أمرت الحرس بحمله إلي.. وبقيت جالسة  
 طوال الليل أنتظر الزهور التي لم تعد تأتي منذ أيام.. وصار الحرس حول القصر  
 أضغاث مضاعفة.. بعد أن صار الجيش بنفسه مسئولاً أمام آمون عن حماية ابنته!  
 أرسلت الملكة في طلبي وأنا في غرفتي أفكر في «حور» وسر غيابه عني وكيفية  
 الوصول إليه.. وعندما تأهبت للذهاب إلى الديوان للملاقة أُمي أخبرتني وصيفتها أن  
 الملكة تنتظرنني في جناحها الملكي.. ولم يسبق أن استقبلت الملكة أحداً منا أنا أو  
 «سميت» في جناحها الملكي أبداً.. ولم يطأه سوى أبي.. ويعمل على أمور العناية  
 به تعد مختار بعناية لا يدخلونه أبداً.. وإنما تترك لهم أُمي ما تريد العناية به في غرفة  
 مجاورة مخصصة لذلك.. فلا يدنس جناحها المقدس أي إنسان.. وكان الفضول  
 بأكلني لمعرفة سبب هذا التغيير الكبير.. ذهبت إليها ودخلت وحدي إلى مخدعها..  
 وكانت جالسة تتعبد في صمت.. فوقفت مكاني تأدياً حتى تنتهي.. ولما قامت من  
 جلسها من فوق الوسائد الناعمة المنتشرة أرضاً.. أقبلت إلي وقالت وهي مبتهجة:

- كيف حال ابنتنا الجميلة؟

- بخير حال جلالتك.

فنظرت إلي بعينها في لوم وأشارت بيدها إلى المكان الذي لا يوجد به غيرنا،  
 قلت في فهم:

- بخير حال يا أُمي.

فأقبلت تحتضني في رقة وقبّلتني في جيبني وسألتني أن أجلس فقد تعبت من الصلاة.. جلوسنا.. ثم قالت:

- مالي أراك تحضن ابتسامة خيثة داخل ثورك الجميل هذا؟

وكانت صادقة.. فقلت في حرج:

- لم يسبق لي أن أرى إلهاً يتعبد إلى آخر من قبل.

وكدت أن أضحك لكنني كتمت صوتي في صعوبة بالغة.. وكتمت هي غضبها وقالت:

- هل أراك معترضة على مشيئة آمون سيد الآلهة يا زعفرانة؟

- ليس لي من موافقة أو اعتراض يا أمي.. هذا شأنك أنت والكهنة وشعبك. فصاحت:

- وشعبك من بعدي.. لا تمنني أنك وارثتي في الملك.

- ألم تكن قد انتهينا من هذا يا أمي؟

- الأمور اختلفت الآن.. استقر الاضطراب الذي كان يا بني.. لقد أصدرت

أوامري الجديدة لكونك الزوجة الملكية لـ«تحتمس».. لست مجبرة على معاشرته.

لكنكما ستحكما جنباً إلى جنب من بعدي.. وسيضمن المعبد حمايتك وحماية

مقامك المقدس من بعدي.

لم أرد، وكنت أعرف من «سنتموت» ومن «ميريت» أيضاً ما تحدث عنه..

لكنه لم يكن يعني لي أي شيء في الحقيقة.. لتصدر أوامرها كما تشاء.. لكنني لن

أجلس على عرش جاء إلي بهذه الطريقة مهما حدث.. ولما رأت من صمعي ما

كان، تعاملت ضمناً على أنني أقبل بالمرسوم الملكي هذا.. قامت من جلستها وقالت:

..الآن.. ما أرسلت إليك من أجله.. هو أمر لا يخرج أبداً عن جدران هذه  
الغرفة هما كان.. لا لجارية ولا محبوب ولا حتى له ميريت» أختك.. هو أمر يجب  
أن تطيع عنه الآن حتى تتولي حراسته وحمايته من بعدي. وقامت إلى ستائر جانبية  
عريضة احتلت الجدار بالكامل فأزاحتها في صعوبة بالغة حتى بدا خلفها ممر مخفي في  
الظلام.. وقامت بإشعال النيران من شمعة في الغرفة أضاءت بها مشاعل جانبية في  
الممر الصغير الضيق والذي كان ينتهي إلى جدار وضع أمامه صندوقاً خشبياً صغيراً  
وجواره صندوق آخر أكبر حجماً زين كلاهما بأعين حورس الراصدة وكان كلاهما  
يحكم الغلق بقفلين كبيرين.. وطرحت حولهما برديات صغيرة وأقصوصات ورقية  
كثيرة بعضها ممزقة، وكان ببعضها عددٌ من الصلوات والتراتيل التي كنت لا أعرفها  
ولم يسبق لي أن سمعت أيّاً منها في المعبد.. وقفت في دهشة أنظر إلى ما أرثني إياه  
أبي وقلت سائلة في تردد:

- أتمارسين السحريا أمي؟

نظرت إلى في عتاب ولوم شديدين وقالت:

- بالطبع لا..

ثم تقدمت إلى الصندوق الأكبر وتحسسته بيدها في شغفٍ وتهدت متابعة:

- إنما أحرسه.. مثلما فعلت عائلتنا دوماً.

والنفت إليّ مفسرة وقالت وهي تشير إلى الصندوق الكبير:

- هنا تكمن نصوص وصايا وأسرار التاسوع المقدس كما دونها آباؤنا وأجدادنا

منذ قديم الزمان.. منذ بدأ الخلق.. من يملكها يملك الحكمة.. ومن يملك الحكمة

يملك العالم كله.

إذا أنتِ تحكين بالسحر.

- لماذا تصرين على عدم الفهم.. هنا يكمن السحر وطرقه وأسراره ومفاتيح الشر.

وكانت تشير إلى الصندوق الصغير الآخر.. فسألته:

- ولماذا إذاً تجمعين بين الاثنين؟ وما شأن الملوك بالسحر وأسراره؟

- قلت لك.. لا أحكم به.. إنما أحرسه.

- إذاً تحمين بأسرار التاسوع المقدس.

هزت رأسها في يأس وقالت بتنهيد:

- يا بنيقي.. كففاك ظلماً لأملك. أنا أكثر من يحبك في هذه الدنيا.. أملك لا

نحتاج إلى قوة علياً كي تحكم.. إنما أنفذ الوصية وأبقي على الأمانة.. وأحفظها من الأيدي الخائثة المتربصة.. لكن أتدرين بماذا أحكم؟

- بماذا ؟

تحركت من أمام صومعتها السرية هذه عائدة إلى مخدعها وقالت:

- علمتني الحياة أن للإنسان أعداء ثلاثة.. إما العلة.. وإما فقر الحال.. وإما

نفسه.. وأنه إذا انتصر على نفسه سخر الطبيعة لخدمته.. فاستعان على فقر الحال..

وإذا ما انتصر على فقر الحال.. صادفته العلة.. فإن تجاوزها بصبر بلغ الحكمة.. وأنه

إذا بلغ الحكمة.. ملك الدنيا بما فيها.. فشيء وأنشأ وعلا ولم يتكبر.. فهم الكون وإليه

انتمى.. فنال الحياتين وصار ملكاً يمشي.

وقالت سائلة وهي تنظر إلي بعين عيني:

- أتظنين أن الملوك لا يسكنون سوى القصور؟!

- ولم كان التحايل على القصر والكهنة إذاً مادمت تملكين كل هذه الحكمة؟

- يا بنيقي.. قلت لك.. إن مصر لا تقبل إلا ملكاً.. ضحي إنساناً واحداً على



الأرض وسيقوم بمزراعة عشرات الأراضي.. ضعي عشرة أفراد وسيزرعون مئات الأراضي... لكن ضعي مئة واحد منهم دون ملكٍ عليهم وسوف يقتلون بعضهم بعضًا على ما زرعه الأولون.. إنما نحن الخبير والشر مجتمعان في ناموس قديم قديم.. لا ينهم إلا خالقه.

وصمتت لوقتٍ قصير وبدأ أنها انتهت مما دعيتي إليه، ثم قالت وهي تشير إلى الصرمة السرية:

- أما وقد عرفتِ عن الصندوقين.. فقد صرتِ مسؤولة من بعدي عن حفظهم.. هذا ما دعيتك بسببه.. هذه أمانتك التي سوف تحميها طوال عمرك، فت من مجلسي واتجهت إلى الباب لأنصرف فقالت بصخب:  
- أن تودعي أمك حتى قبل رحيلك؟

نظرت إليها للمرة الأولى قلت لها في لومٍ شديد:  
- ألم تفكري بحكمتك العظيمة هذه ما الذي سيجري علينا على يد «تحتمس» ربيشه بعد أن تذهبي أنت إلى نعيمك الأبدى؟

- قلت لك سيدبر الكهنة هذا الأمر.. وسوف نجد لهذا حلًا في حينه.  
- أظنن حقًا أن «تحتمس» سيصبر علينا إذا ما رحلت.. وأنه سوف يعمل حسابًا للكهنة؟ بعد أن يكون قد ضاع منه العرش كل هذا العمر؟  
وصمتت أمي هذه المرة ولم يكن من ردٍّ لديها.. فقلت لها وأنا راحلة في حتى طرّج صوتي محتفًا:

- فتنديري هذا بحكمتك سريعًا.. فربما لا يسعفنا الوقت.. ولتستيري الآلهة ربما ساعدتك في هذا أيضًا.

ثم انصرفت عائدة إلى غرفتي وكلي غضب من الأسرار التي أطلعتني عليها أمي  
وحلتني أمانتها دون رغبة مني في ذلك.. وازداد يقيني بأنني حتماً تاركه هذا القصر  
قريباً.

عند استعالي من جناح أمي إلى جناحي الخاص مررت في ممر مكشوف بين  
المبنيين، وكان الليل قد حل، وكانت نافذتي ظاهرة من بعيد فوق البستان الصغير  
الذي كان يرعاه «حور» قبل أن يخفي ذلك النهار المشثوم.. تمشيت إلى الحديقة  
وانته الحرس لقدومي فأمرتهم بالانصراف للوقوف مع بقية الحرس الآخرين خلفي..  
ورحت أصفد البستان الصغير أبحث عن رائحة «حور» بين زهوره.. واستبد لي  
الحزن الشديد وبدأت عيناï تدمعان فجلست على إحدى أرائك الحرس.. ونظرت  
إلى النجوم بعيداً في السماء ثم أسقطت رأسي بين يدي ورحت أتهدي في حزن  
ووحدة.. حتى جاء صوت «سننموت» من خلفي سائلاً بهدوئه الشديد:

- مالك يا بنيقي.. هل صار اجتماعك مع جلالة الملكة إلى أي سوء؟

لم تواتني القوة لأرفع رأسي منتبهة لما يقول.. فرددت من بين حزني الشديد:

- صار إلى ما صار إليه.. لم يعد شيء يعني في هذا القصر.

فوضع يده فوق كتفي ورفع يده الأخرى ذقني حتى لمح الدموع في عيني فقال  
بقلق بالغ:

- مالك يا زعفرانة؟ ماذا بك؟ احكي لي يا طفلي الصغيرة.

قلت بين بكائي:

- ضاع قلبي مني.. ذهب لا أدري إلى أين.

- وهل تبصين عن قلبك هنا تحت قدميك يا حبيبتني؟

ثم استدار وجلس جوازي وتابع سائلاً:

.. لولي لي يا مطلقتي الصغيرة، يكاد قلبي أن ينفطر عليك كلما شممت رائحة  
الوحدة هذه ضوح من قلبك كل يوم.

.. رائحة الوحدة؟ وهل للوحدة رائحة؟

.. يا حبيبي.. إن كان للحنوف رائحة.. وللحزن رائحة.. وللأشتياق ألف رائحة..

لكنك برائحة الوحدة؟ وهي مزج من هذا كله؟

تأملت كلامه وقلت:

.. ماذا أفعل إن كانت وحدتي هذه قد أصبحت مشيئة الآلهة مجتمين؟

.. يا بني.. لا تغلبي جلالة الملكة.. تعرفين أكثر مني عن حبها لك وخوفها

عليك؟

.. دائماً ما تدافع عنها يا «سننموت» الحكيم.. لكن قل لي.. وأنت من تحذني

عن وحدتي.. مالي أراك غارقاً في وحدتك أنت منذ كنت تحملني وأنا صغيرة في

هدبي.. أين أحبتك يا «سننموت» الحكيم؟ أين عشيرتك ووفقاؤك؟ أين أصدقاؤك؟

هل هربوا جميعاً من هذا الذي تعيش فيه ؟

أطرق برأسه إلى الأرض وبدأ حزنٌ يغزو وجهه.. ثم عاد شاخصاً ببصره إلى

السما حيث كانت أعين رع الحافظة متلائة هنالك.. ثم قال وهو ما زال ينظر إليها:

.. رحل من رحل.. وابتعد من ابتعد.. وسرقني العمر حتى صرت ما صرت..

وتهد طويلاً ثم أكمل:

وكان العمر كلما مر تخففت شيئاً فشيئاً من أحمال المهين.. وحلت بدلاً منها

أوزار ذكراهم.. ولما طال الطريق.. ووجدت خطاي فيه قد قلت.. وظهري فيه

لدي لان.. نظرت معي ولم يكن شيئاً معي.. فطلت أن يزدر الذكرى أفضل وأبقى من

حمل صاحبها.

وكانت عيناه تلعبان من دموع احتبست لهما.. ولما لاحظ نظرتي إليه قام من  
مجلسه جوارى وقال لي:

- ابحني بنفسك عن قلبك الذي ضاع منك يا بنيتي.. ولا تنتظري ذلك من  
أحد.. ولا تتركي نفسك لمخالب القصر.. فهي لن تهدأ إلا بعد أن تنتهي منك.  
وهم بالرحيل فاستوقفته سائلة في غير ابداء لاهتمام:

- ألم تعلموا أي شيء بعد عن ذلك الصبي.. أعني الذي كان يدعي الصمم؟  
فابتسم بين دموعه التي جرت رغماً عنه على خده وقال:

- لا شيء محدد بعد.. لكن أغلب الظن هو ما قاله البيت الذي جلبته منه.. هو  
أحد أحفاد «كاموس» الراحل أو أحد الملوك السابقين.. سأعلمك إذا تأكدت من  
شيء لا تقلقي يا صغيرتي الجميلة.

ثم ودعني بابتسامة طيبة ورحل.. وعدت بعدها أنظر إلى أزهار البستان التي  
بدأت تذبل من قلة العناية بها بعد هروب «حور» ثم عدت إلى غرفتي بمناحي..  
وقفت في النافذة أكل مراقبتي للنجوم واستبدت بي الوحدة من جديد وعادت  
تضرس قلبي فقلت أناجي «حور» في توسل: «يا نوري الذي حل سريعاً ورحل  
سريعاً.. عد إلي.. أمتع ناظري بوجهك الجميل.. وطمئن قلبي الذي لم يهدأ منذ أن  
رحلت.. عد إلى حبيبتي التي وهبتك نفسها ذات مرة فأبيت إكراماً لعزتها.. رغم  
ما كان بادياً من حب في عينيك اللتين كنت تماجيني بهما.. عد إلى حبيبي فأنا  
أشتاقك ولا أعلم كيف أبحث عنك.. عد إلي أو دلني كيف أجذك».

ثم أغلقت نافذتي ومسحت دموعي التي أفلتت مني وناديت على إلهي المهرب  
رع قائلة: «هيني إشارة من لدنك تصبرني على شوقي وأيامي.. فلاني وحيدة..»

وعدت لأنام وأزبد من توسلاتي لرع كى عذورنى «حور» فى أحلامى..

وعندما مصوت من نومى وقت بفتح شرفى وجدت تابجاً من الزهور مزبناً بالبشع.. ووضعت زهرة ذهبية رقيقة لم أرَ مثلها فى حباتى كلؤلة فى مقدمة التاج.. فارتدته فى فرج وعاد قلبى إلى صدرى من جدد.

وطلت من «ميرت» أن الملكة قد أصدرت مرسومًا ملكيًا فى صباح اليوم بقلبد «سنموت» الحكيم منصب مدبراً لبيت آمون الرب.. وعدت أسترجع ما قاله لى «سنموت» ليلة أمس.. وخطرت إلى فكرة مبهجة وكنت متأكدة أن معبودى رى هو من أوحى إلى بها، فصلت له شاكرة كرمه ورعايته.

بعد شهر جاءت الأخبار بمحملة بالبشارة من بونت.. وقد اقتربت السفن من سواحل الأخضر العظيم.. وأخذ الكهنة يترقبون الهدايا والمنح العظيمة التى وعدتهم بها الملكة من جراء القيام بتلك الرحلة.. وأخذت البلاد ترتدى مظاهر الابتهاج متظرين انخيرات الكثيرة مثلهم مثل الكهنة.. وقد اتجهت أنظار الناس وقلوبهم ندعو للملكة وتبتهل لها فى تضرع بعد أن شكك المتربصون من حاشية «إست» وأعاونها فى جدوى هذه البعثة التجارية الضخمة وإمكانية نجاحها وعودتها سالمة من تلك البلاد البعيدة الغريبة..

توسلت إلى أمى الملكة أن تتركنى أذهب مع الموكب الذى سترسله لاستقبال الفوج الأول من الرحلة العائدة من بونت عند سواحل الأخضر العظيم.. فأبت وخافت على.. لكنها قبلت فى النهاية مشرطة على أن أذهب أولاً فى بعثة قصيرة إلى شبه جزيرة القيروز مع «تخمس» بصفتى الزوجة الملكية له.. على أن يرافقنى الحرس الخاص الذى يعينه «سنموت» بنفسه.. وكانت بعثة صغيرة لتفقد المناجم

العديدة الموجودة هناك.. ولإرساء حكم «تحتمس» الملك على الحدود والأقطار البعيدة التي أحبَّ هو مسؤولية العناية بها لميله الشديد للحرب ولمطاردة المارقين المتحردين على الحكم..

وافقت رغماً عني في النهاية أملاً في أن تتركني الملكة أخرج من بين أسوار هذا القصر.. فارتديت عني فوق رأسي التاج ذا الرشتين الطويلتين.. ورافقت «تحتمس» في بعض المراسم التقليدية التي أكرهها.. وكنا نفرق مباشرة بعد انتهاء هذه المراسم ولم أدعه يمسني أو ينفرد بي حتى عدنا إلى طيبة.. ومكثت ليومين اثنين ثم تحركت إلى المرفأ الذي شيد على ساحل البحر حيث كانت السفن العائدة من بونت قد اقتربت.. وصرت أتردد بين القلعة الصغيرة التي بناها المهندسون حديثاً على ساحل البحر، وبين انليم في المرفأ التي نصبها الجالية للنبلاء الذين حضروا معهم عدد من كهنة المعبد وكتيبة مسلحة من الحرس.

صرت أفكر في طريقة تسمح لي بالتخلص من الرقابة الحرجة المفروضة علي في القلعة وفي الخيمة التي اخترتها قبالة الساحل.. واستقرت في النهاية على التحرك عندما تصل أول السفن.. وفور أن ينشغل الجميع بالحديث عن الخيرات والعجائب التي قد تأتي بها.. وعندما انتشر خبر اقتراب أول السفن من المرسى المخصص لها على ساحل البحر وبدأ المهرج يغزو المكان واندفع معظم الناس إلى المرسى وارتبك الحرس وتهرب عددٌ منهم تاركاً خدمته وذهب مع مَنْ ذهبوا، عدت في حرص شديد إلى خيمتي الملم أشيائي لأفر هاربة.. وفور أن دخلت الخيمة وجدت امرأة تضع عباءة من عباءات الجوارى على جسدها وتوليقي ظهرها.. فسألتها في صوت مرتبك من رآها الخفيف:

.. من أنتِ.. وماذا تفعلين في خيمتي؟

لما كان أن استدارت إلي وألقت عباءتها أرضاً.. فوجدته «حور» وقد كان  
منخفضاً.. فاقسمت عيناى دهشة ورقص قلبي فرحاً وألقيت بنفسى بين ذراعيه..  
ورحت أقبّله.



(١٠)

## يحيى

أنهيت الترجمة للبردية الثانية.. ولم أصل إلى شيء وتأكدت من وجود بردية ثالثة كما هو مذكور في التقديمات في بداية البرديتين.. شككت أنه في الغالب قد سرقها أحد أبناء مسعود.. وقد صار شيخاً كما حكى ياسمينا.. وتجارة الآثار المسروقة في مدن الأقصر وأسوان لا تهدأ ولم تنته أبداً.. وبرديات أصلية وملكية كهذه يدفع فيها المولعون بجمع التحف والآثار مبالغ طائلة.. لكن ما جعل ظني غير مؤكد هو ما الذي يجعل السارق يأخذ بردية واحدة ويترك الأخريات؟ ما أهمية الثالثة عن الأولى والثانية كي يتركها هكذا؟

نظرت إلى ياسمينا النائمة كالطفلة من فرط السهر والإرهاق ويبدو أنها استسلمت للنوم سريعاً وهي تقرأ ترجمتي للبردية الأولى. قمت إليها وسحبت الأوراق برفق شديد من يدها كي لا أوقظها.. ووجدت يدها باردة بشدة وكانت آخر ليالي ديسمبر والبرد صار شديداً، ففردتُ أحد أغطية الفراش من تحت قدميها



في حرصٍ وقمت بتغطية جسدها وفتحت هي عينيها ونظرت إليَّ بصعوبة، ولم تلبث أن عادت للنوم في ثوانٍ دون أن تلاحظني. ابتسمت لبراءتها الشديدة ولم أدرِ بنفسِي إلا وأنا أطبع قُبلة هادئة فوق جبينها، ثم عدت أشرد فيما قرأته في البردية الثانية وأقارنه بما درسته من التاريخ. وكان كل ما وصلنا في الكتب يتوقف عند اللحظة التي اختفت فيها الأميرة «نفرو- رع» بين العام الثامن والعاشر لحكم والدتها الملكة حتشبسوت.. وكل الآثار والتماثيل التي شيدت لها كانت لها وهي بعد طفلة صغيرة بين يدي مربيها ومهندس القصر ذائع الصيت «سنموت».. وكان آخر ما وصلنا من أخبار عنها هو نقشٌ وُجدَ في سراييط الخادم<sup>(١)</sup> بسيناء في مناجم الفيروز القديمة آن ذاك.. وكان النقش يجمع بين الأميرة نفرو- رع وأخيها من أبيها.. وقد ذكرها النقش على كونها الزوجة.. في الغالب كانت هذه هي الرحلة التي حكّت عنها الأميرة في تلك البردية والتي قامت بها تنفيذاً لرغبة أمها الملكة..

سافر بي التفكير إلى تلك الحقبة الزمنية البعيدة متجاوزاً مئات السنين التي تفصل بيننا.. وكنت مشبَّعاً بنشوة كبيرة لم أعهد لها في حياتي منذ قمت بدراسة التاريخ.. ورغم تعبِي البالغ لم يهدأ رأسي عن التفكير فيها.. وأخذت أتساءل بيني وبين نفسي عما يكون قد آل إليه مصير البردية الثالثة.. وقد كان من الطبيعي أن تكون في مقبرتها الملكية.. إلا أنها كانت قد سرقت بالكامل مثل معظم المقابر الملكية في وادي الملوك.. ورحت أفكر وأفكر حتى غلبني النوم.

<sup>(١)</sup> تقع في جنوب غرب شبه جزيرة سيناء ويوجد بها معبد حتحور

في الحلم جاءني «سننموت» وكان جالسًا مع جدي في صالة بيتنا القديمة.. وكانت إلى جواره زينب وهي طفلة وكان يمشط لها شعرها في هدوء ونعومة.. ولما انتهى خلع شيئًا كان يرتديه حول عنقه وأعطاه لي.. ولما نظرت فيه وجدتها قلادة علق فيها مفتاح الحياة.. وكانت زينب تنظر إليّ وتبتسم وهي تلملم شعرها. واستيقظت فجأة من الحلم ووجدتني قد نمت مكاني على الكرسي أمام الفراش.. وكانت ياسمينًا قد صحت من نومها مرتدية ملابسها كاملة ووافقة أمام المرأة تعدل من تصفيفة شعرها.

حاولت أن أستعيد تركيزي وقد فقدت الصلة بعالم الواقع بسبب الحلم الأخير بـ«سننموت» وزينب.. ولما تأكدت من صحوي سألت ياسمينًا عن الوقت فأخبرتني أن المساء قد حلَّ منذ فترة وتجاوزت الساعة التاسعة.. ولما نظرت إليها ثانية ووجدتها تعدل من هندامها وهيئتها أمام المرأة سألتها في فضول:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

فردت بمرح:

- سأقوم بتوصيلك.. أنا لا أستقبل غرباء في غرفتي!

فاجتثني قولها الغريب هذا ولما وجدت الدهشة قد غمرت وجهي ضحكت وأشارت إليّ قائلة:

- كان يجب أن ترى وجهك الآن.. أمزح معك يا بحبي.

ثم اقتربت وقالت برفقة:

أعلم أنك كنت سترحل فور أن تستيقظ كي لا نظل وحدنا في

الغرفة.. ففكرت أن أستبقيك قليلاً وفكرت أن نذهب لنسهر قليلاً  
في المارينا.

ونظرت إلى عينيها، وكانت قد زيتتها بكحل مثل الذي كانهما في  
عرس القرية بالأمس فقلت:

- أرى أنك قد أعجبتك زينة نساء القرية.

- نعم.. وجدت عيني أكثر جمالاً في الكحل.. لا أعلم كيف لم  
أجرب ذلك من قبل.. هل أعجبك؟  
- نعم.. جداً.

ثم أمسكت يدي وقالت وهي تنظر إلي:

- أرى أنك قد تفهمت إخفائي أمر البرديات عنك.

- بشكلٍ ما.. لكن كان من الأولى أن تخبرني من البداية.. ولا  
تركيني للشك هكذا.

- أنا آسفة.. والآن هيّا قم واغسل وجهك.. الوقت تأخر  
والمارينا تغلق معظم الكافيهات فيها مبكراً منذ بدأ الشتاء.

- أبة مارينا الآن يا مجنونة.. لن أفعل أي شيء قبل أن أفهم سر  
هذه البرديات.. ألم تقرني البرديات الأولى؟

- قراتها هي والثانية أيضاً وأنت نائم.. لكن لم أفهم شيئاً..  
بالمناسبة.. ما هو التاسوع المقدس هذا؟ فهمت من حكاية الأميرة  
أنه شيء كبير ذو شأن.

نسميه تاسوع هيليوبولس المقدس.. نوع ما من تحالف لكبار  
الالهة القديمة التي عبدوها.. تحكي الأساطير القديمة عن دورهم

في بدء الخلق وماهية الصراع الأزلي بين الخير والشر.. كان له أشكال عدة وله نظائر في ثقافات أخرى.. التاسوع المقدس الذي تحدث عنه الأميرة والذي كانت ترعاه أمها الملكة هو ما يسمى التاسوع العظيم.. فقد كان يجمع بين المعبود الأهم لديهم وهو «رع» جنبًا إلى جنب مع ست وإيزيس وأوزوريس أصحاب الأسطورة الشهيرة.. وخمسة آخرين من أهم الأرباب لديهم في ذاك الزمان.

هزت ياسمينا رأسها في فهم، وكانت يدها ما زالت ممسكة بيدي.. سحبتها في لطف ونحجبت بذهابي إلى الحمام لأغسل وجهي وقلت لها:

- ما وصلني وفهمته من البرديات هو أن جتشبسوت الملكة كانت تقوم على حماية لطقوس أو صلوات تخصهم.. جنبًا إلى جنب مع الصندوق الآخر الذي تحدثت عنه الأميرة في البردية.. صندوق أسرار السحر المحرم.

وجاء صوت ياسمينا وأنا أغسل وجهي.. سائلًا في شرود:

- أنظن أنه موجود؟

- ماذا تقصدين؟

- أعني هذا السحر واللعنات وكل هذا الذي كانت تحكي عن الأميرة «نفرو-رع».

خرجت لأجفف وجهي وسألتها منشقة فأحضرها إلي وهي في نفس شرودها وقلت لها:

- ربما.. وربما لا.. هذا عالم كان مليئًا بالأسرار بداية من بناء

الأهرامات وإتقان علوم معقدة مرتبطة بالرياضيات والطبيعة  
والنجوم والفلك وأسرار التحنيط.. لا يوجد ما يمنع وجود السحر  
به. المحزن هو أننا لم يصلنا منها فعلاً إلا الفتات.. بينما ضاع منها  
ما ضاع على مرّ عصور طويلة قضت حروبها وثوراتها على ما بقي  
من تلك الحضارات.. فلم يبقَ منها إلا المعابد والنقوش.

وعادت ياسميناً لتَهز رأسها في نفس الشرود.. وقالت:

- لكنني أصدق أن هذا السحر كان موجوداً..

قلت: ربما. الآن كل ما يشغل بالي.. أين ذهبت البردية الثالثة؟

- بحكم عملك السابق.. أين نظنها قد ذهبت؟

- أكثر شيء أظنه، أنها موجودة في غرفة الدفن الخاصة بالأميرة ولم  
تكن مع البرديات الأولى والثانية.. المشكلة أن غرفة الدفن المزعومة  
منه.. سرقت منذ زمن.. هذا إن كانت غرفتها من الأساس وليست  
بمردمويه.. وربما كانت البرديات الثلاث في الغرفة التي سرقت في  
الماضي.. ووصلت البردية الأولى لجدتك بشكل أو بآخر.. لكن بظل  
السؤال: لماذا لم تكن البردية الثالثة موجودة مع مسعود وآل عواد  
من البداية؟

أخذت ياسميناً تتمشى في الغرفة وتتفحص البرديات بيديها  
رتقلب فيها وقالت وهي تنظر إلى البردية الثانية:

- الموضوع كله معقد ومرهق.

- ربما لو ذهبنا إلى بيت «آل عواد» للاستفهام أكثر.

- ربما لكن ليس الآن.. الآن عليك أن تعزمني على قهوة في  
اللازنا.. وسأسمع لك أن تنغزل فيّ قليلاً. وربما أسامحك.

وكانت تبسم وتنظر إليّ بطفولتها التي تظهر بين حين وآخر..  
تهدت في صبرٍ على إلحاحها للذهاب إلى المارينا الآن.. وقلت:

- هل أنتِ فعلاً لا يملك الموضوع إلى تلك الدرجة.. ألا يدفعك  
الفضول حتى لمعرفة ما وراء هذه البرديات؟

سكنت حركتها تمامًا هذه المرة وغادرتها روح الطفلة التي كانت  
منذ دقيقة.. وعادت عينا ياسمين القويثان اللتان تقتحمان روحي  
فور أن تنظر إليّ في عيني وقالت وهي تقترب:

- كان يمني أن أعرف في البداية.. والآن قد عرفت ما وراءها..  
لم يعد شيء بهم.

- وما هو وراءها؟

- وراءها أنت يا يحيى.. أن أجذك.

واقتربت أكثر.. وقالت:

- لا تدرك الراحة والطمأنينة التي شعرت بها اليوم عندما قمت  
من النوم ووجدتك نائمًا جوارى على المقعد.. للمرة الأولى في حياتي  
أجرب إحساس الأمان هذا.

ثم أراحت رأسها على صدري ولفت ذراعيها حول عنقي في  
قوة وتابعت في همس:

- وأنا لن أتنازل عن هذا الإحساس ما حييت.

ووجدتني أطوقها بين ذراعي وأضمها إلى أكثر وأكثر.. وغمرتني  
سكينة لم أكن أعرفها منذ رحلت زينب.. فتركت نفسي للسكينة  
تغمرنى وتربت على روحي.. لكن جزءًا عنيذًا من عقلي كان هناك..

مع البرديات القابعة على الطاولة تجاورها علامات استفهام كثيرة..  
وسعرت باسمينا بشرودي .. فقالت وكان صوتها خافتًا تمامًا:

- ماذا الآن.. لماذا تقاوم.. ماذا تريد أن تثبت أيضًا؟

قلت وأنا أضغطها أكثر:

- لا.. لم أعد أقاوم.. فقط يأخذني الفضول بشأن البرديات ولا  
يريد أن يتركني وشأني.

- دعك من كل هذا الآن.. لا شيء يهم الآن سوانا..

- لو أعرف فقط ما علاقتي أنا بكل هذا.. ولماذا قصدي  
معود تحديدًا؟

- وما أدراني.. يمكنك أن تسأله بعد ذلك.. هذا هو ما أخبرني  
به زين.. وعمار والملثم الذي كان معها.

- الملثم.. أي ملثم؟

- الرجل الثاني الذي حضر مع عمار عند مقبرة روز.. الرجل  
الذي كان يملك المفاتيح الخاصة بالمقبرة.

انتهت لما تقول ودار في رأسي ظن غريب فأبعدتها بهدوء عن  
صدرتي وسألتها وأنا أنظر في عينيها بفضول شديد:

- وكيف كان يبدو هذا الملثم؟

- قلت لك من قبل يا يحيى.. كان شكله مهيبًا في الليل ولم المح  
له وجهًا، كان يضع عباءة بيضاء هائلة على جسده ويلف معظمها  
حول وجهه فلم أر منه أي شيء.

قلت وقد بلغ فضولي منتهاه:

- عبادة بيضاء.. وملثم؟

- نعم.. كان الوقت ليلاً، وكان يبدو واضحاً في عباءته تلك وكان منظره مربعاً.

عدت لأجلس على المقعد أفكر ورأسي تتناوبه مئات التفسيرات لوصفها لهذا الملثم.. وعدت لأسألها:

- ما الذي قاله لك مسعود تحديداً بشأن قدومك إلى هنا؟

- لم يقل لي إنما قال لزين.. وزين هو الذي أخبرني.

- نعم نعم أفهم.. أعني ما الذي قاله لك نصاً؟

- قال زين.. اذهبي إلى الغردقة.. إلى وادي حبيبة، وابحثي عن كبيرهم الذي يعمل هناك هو الذي يملك الإجابة على أسئلتك. قمت مرة واحدة من فوق المقعد وقد فهمت أخيراً وصحتُ:

- كبيرهم.. كبيرهم.

وسألتهني باسمينا:

- ماذا؟

- لم يكن يقصدني يا باسمينا.. لقد كان يقصد الشيخ ياسين.

ونظرت إلى البرديات مرة أخرى، وقلت بعد أن أدركت كل شيء..

- الضريح!!

\*\*\*

انطلقت السيارة في الطريق بسرعة داخل الممر الجبلي في الطريق



إلى القرية.. وكانت الظلمة حالكة وكانت ياسميناً تقول:  
- ألم يكن من الأفضل أن نذهب في الصباح.. أرى الطريق بصعوبة.

فرددت:

- لقد رأنا عارف صباحاً وأنت تدخلين إلى غرفتي.. وإن صح  
ظني فهم يعرفون الآن بأمر البرديات وبكل شيء.. لا يمكنني  
الغامرة والانتظار حتى الصباح.  
- الطريق سيء جداً.

- لو كنتِ حكيتِ لي منذ البداية بالتفصيل ما كنا تأخرنا هكذا.  
التفت إليّ ياسميناً وقالت بتحفظ:

- وكيف لي أن أفهم مَنْ كان يقصد زين.. كانت معي برديات  
مكتوبة باللغة الهيروغليفية.. وكنت أنت خبيراً باللغات وتعيش  
في وادي حبيبة.. ما الذي يجعلني أفكر في شيخ قبيلة بدوية يقطن  
الجبال؟

أشرت إليها أن تتبّه إلى الطريق وقلت:

- في الغالب هم ليسوا بيدو.. أظن أنهم أقرباء لبيت «آل عواد»  
بشكلٍ أو بآخر.. على الأقل الشيخ ياسين وولده.

ثم عدت أنظر إلى الطريق وأفكر في البرديات.. لو صح ظني فقد  
هربت الأميرة الزعفرانة مع «حور» هذا عبر ساحل البحر الأحمر  
وتوجهت شمالاً على خط الساحل.. واستقر بها المقام بين الجبال..  
وربما عاشت هناك حتى دُفنت فيما أصبح بعد ذلك قرية الجبل..  
لكن لا يمكن التأكد إلا برؤية ذلك بنفسي.. وقلت لياسميناً:

- اتعلمين.. لو آتينا على صواب، فنحن على بعد خطوات من أهم كشف تاريخي في العصر الحديث.. ربما أكثر أهمية من مقبرة «نوت عنخ آمون» نفسها.. ستكون هذه مقبرة ملكية بكر لم يدنسها إنسان من قبل.

نظرت إليّ باسمينا وقالت في ابتسامة خبيثة:

- الآن كل ما أصبح يهمك هو المقابر والاكتشافات.. لا تنسَ أنه لولا فهمي الخاطئ لكلام زين لما تقابلنا من البداية.

ثم عادت تنظر إلى الطريق.. وكنت أبتسم فقد كان كلامها صحيحًا.. فلولا ما حدث لكنت قابعًا الآن في غرفتي أنقاسم وحدثي مع صمت الجبال من حولي.

وصلنا القرية بعد نصف ساعة من القيادة المتهورة لياسميننا.. وزاد يقيني أننا على الطريق السليم عندما لمحت قبل مدخل القرية بدقائق من يسمونهم غفارت الصحراء مرتين متتابعتين.

دخلنا القرية وكانت مظلمة بالكامل ترقد في عتمة الليل.. ولم يكن هنا أي مصدر للإضاءة سوى نور خافت مصدره مسجد للقرية جوار المقام.. وكانت هناك إضاءة خافتة أخرى مصدرها مصباح صغير نسيه أحدهم من عُرس الليلة البارحة.. طلبت من باسمينا أن تتوقف أمام المسجد مباشرة في الساحة التي كان فيها العُرس.. وقبل أن أخرج من السيارة قلت لها:

- انتظريني هنا، ولا تخرجي من السيارة مهما حدث ولا تركي أبوابها مفتوحة.. وكوني متأهبة للحركة في أي وقت.

توترت باسمينا بعد ما قلته لها من تحذيرات وسألت:

- أوجد خطر ما؟

- لا.. لا أظن.. لكنه احتياط.. نحن لم نفهم كل شيء بعد.. وربما

نناخطئين في ظنوننا.

ثم أخذت بردية واحدة من البرديات التي وضعتها في حقيبة السيارة ولم آمن أن أتركها في الاستديو ولا في غرفتي بالكامب.. ولم أكن أستطيع تركها من يدي وقد كنت أدرك قيمتها الكبيرة.. ثم دخلت إلى المسجد.. وكان الشيخ ياسين هناك كما توقعت. أمام المنبر الصغير للمسجد وكان جالساً يقرأ في صوتٍ خافتٍ.. وصدّق على ما كان يقرأ ونظر إليّ في صمتٍ وقلت:

- السلام عليكم..

فردّ بهدوءٍ شديد:

- وعليكم السلام والرحمة.

وأغلق المصحف أمامه ثم سأل:

- لماذا تأخرتم هكذا يا ولدي.. نتظركم منذ الصباح.

فاجأني رده هذا.. وقلت في رأسي في الغالب قد أعلمه عارف بتحركاتنا.. ثم سألته:

- تنتظروننا؟ من الذين ينتظروننا؟؟

- أنتظرك أنا.. وولدي يزيد ومن كان يتبعكم.

ثم نهض من مجلسه وقام بتهدئة الإضاءة في المسجد إلى أقصى درجة ممكنة.. وبدأ يقرب.. فسألته وأنا أشير إلى البردية في يدي:

- أتعرف شيئاً عن هذه يا شيخ ياسين؟

فقال بعد أن اقترب مني ونظر إليها.. ثم تناولها من يدي وأخذ يتفحصها بين يديه ويقلبها.. ثم أعادها وولاني ظهره واتجه إلى خارج المسجد وقال:

- طيلة عمري وأنا أنتظر اليوم الذي أعرف أي شيء عنها يا ولدي.. أي شيء.

ثم تابع وهو يخرج من المسجد، وكنت ما زلت في مكاني:

- ثواني لأوقظ يزيد ابني ثم أعود إليك.

ونظر إلى سيارة ياسميننا وقال في لوم:

- يمكنك أن تطلب من السيدة القدوم.. نحن قوم مسالمون يا ولدي ولا خوف منا.. أنت تعرفنا منذ زمن!

ثم تركني في المسجد وخرج.. وبقيت واقفاً في مكاني وقد تأكدت ظنوني جميعها ولم يبقَ إلا أمراً واحداً كلما فكرت فيه وجدته مبالغاً فيه.. لكن لم يكن لدي شك في أمر آخر.. وخرجت إلى باب المسجد وأشارت إلى ياسميننا أن تنتظر.. وطمأنتها بابتسامة كانت مرتبكة.. ولا حظتها ياسميننا فازداد توترها خاصة بعد أن عاد الشيخ ياسين ومعه يزيد ولده.. وكان بادياً عليه الضجر وقد أخرجناه من بيت عروسه الجديد.

كان يزيد يحمل في يده بضعة أعواد غليظة من جذوع الأشجار المقلعة في نهايتها رأس مطعم من جريد النخل.. يبدو أنها تستخدم كمشاعل.. وكان الشيخ ياسين في يده زجاجة صغيرة وحلقة معدنية

صدقة بها مفتاحان كبيران في طرفيها.. وأشار إلى الشيخ ياسين وإلى ياسميناً فخرجتُ من المسجد وتوجهت إلى ياسميناً التي كانت تراقب وقد بلغ قلقها ذروته.

خرجت من السيارة وتبعنا الشيخ ياسين ويزيد إلى الساحة الجانبية.. حيث كان يوجد الباب الخلفي المدخل الضريح.. ولم أسأله لم لم ندخل من باب المسجد.

أولج الشيخ ياسين أحد المفتاحين في الباب الخشبي العتيق، وظل يحاول فتحه لكنه لم يفتح.. وقد بدا أنه قد مرَّ عليه زمن لم يقم أحد بفتحه.. ثم أخذ يزيد منه الزجاجة وسكب بعض ما كان فيها من زيت للتشحيم داخل القفل.. ثم حاول مع الباب مرة أخرى.. وظل الباب يقاوم دفع يزيد والشيخ ياسين فانضمت إليهما وبقينا نحاول حتى استجاب القفل ثم فُتح الباب أخيراً. وقام الشيخ ياسين بإشعال أحد الجذوع التي كانت في يديه.. ثم مدَّ ذراعه إلى الداخل والمشعل في يده.

كانت غرفة صغيرة أدركت من موقعي أن جدارها المقابل للباب هو الجدار الذي يفصلها عن الضريح.. وقد عزلت عنه بهذا الجدار فقط، وكان في منتصفها باب خشبي صغير يصل المقام بغرفتنا هذه مباشرة. ولم يكن من باب آخر من ناحية المدخل الخاص بالمسجد.

قام الشيخ ياسين بإخراج المفتاح الثاني من الحلقة التي كانت في يده، وأولج المفتاح بالباب ففتح مباشرة دون مقاومة مثل الباب الأول.

وكانت الإضاءة الخضراء القادمة من الغرفة الكبيرة التي تحتوي  
الضريح تجاه المسجد تساعد على الرؤية بشكل كبير.. ودخل الشيخ  
ياسين ويزيد.. ودخلت خلفهما ومن ورائي ياسمين.

كان يتوسط شاهد الضريح من الداخل صندوق خشبي فوقه  
مفرش كبير من القماش من نفس اللون الأخضر الصادر من  
المصاييح ومن نفس لون الجدران الخشبية للضريح من الداخل  
والخارج.. وكان الصندوق عموديا كشاهد ضريح للناظر من خارج  
المقام.

قام الشيخ ياسين ويزيد بدفع الصندوق من مكانه فتحرك في  
يسر تحت دفع يديهما.. وبعد ذلك قام يزيد بطي السجادة التي  
كانت تحته فوجدنا حلقتين معدنيتين لباب صغير يفضي إلى أسفل  
الضريح.. ومدَّ يزيد يده إلى الحلقتين المعدنيتين اللتين كانتا في الغطاء  
الباب الأرضي وجذبهما إلى الخارج بقوة شديدة حتى فتحه.. فظهرت  
لنا درجات عدة تقود إلى ما هو كائن تحت الضريح.. وقال الشيخ  
ياسين في صوته الهادئ دوماً:

- انتظروا دقيقة أو دقيقتين ليتجدد الهواء بالداخل.. لم يُفتح هذا  
المكان منذ زمن بعيد..

والتصقت بي ياسمين وبدا الذعر على وجهها وهمست:

- ما الذي يوجد بالداخل.. أهذه مقبرة؟

فأومأت بالإجابة.. ثم قلت للشيخ ياسين:

- منذ متى وأنتم هنا؟

- سنين عدة يا ولدي.. سنين لا يعرف أحد عددها.

- وهذا الضريح بالطبع مجرد تمويه

- في هذا الزمان ضريح.. في زمان سابق كان معبدًا صغيرًا يسكنه راهب.. ومن قبله ربما كان كهفًا.. لم يعد أحد يذكر ما كان عليه.

فسألته:

- والقرية؟ أُمُّم من البدو فعلاً؟

- من البدو ومن الصعيد.. من النوبة ومن القبائل الليبية ومن الواحات.. من كل مكان.. لم نرفض ضيفًا جاءنا.. ما دام قد جاء في سلام.

- ومن يعرف عن الضريح؟

- أنا وولدي يزيد فقط.. ومن قبل أبي وجدي وأبوه وجده.. كنا نقل الأمانة بعضنا إلى بعض.. ونسلمها دون أن نعرف ما بها.. وكل ما نعرفه أننا ننتظر سيدتنا وقت أن تأتي.

وكان ينظر إلى ياسمين التي لم تكن تفهم شيئًا فسألته ياسمين:

- سيدتكم من؟

وقال الشيخ ياسين:

- أحسست بذلك عندما رأيتك بالأمس بصحبة الدكتور.. رغم أننا يأتينا الكثير من الغرباء.. وكل حياتنا وأكل عيشنا وسط الغرباء والأجانب.. إلا أن شيئًا ما في صدري أنبأني أن الوقت الذي طال انتظاره قد جاء.. وأكّدي ظني ما أخبرني به عارف عندما رأيكم صباح اليوم.. فجلست أنتظركما طوال النهار.

وعدت إلى أسئلتني رغم أن ياسميناً لم تكن قد فهمت شيئاً بعد،  
وقلت له:

- أكان عارف يعلم بأمر الضريح؟

- لا.. لكنه كان يتبع العيون التي تراقب الطريق.

- تعني.. عفاريت الصحراء؟

فردّ وهو يتسم:

- هو ما أعنيه.. كان مَنْ أسموهم بهذا الاسم هم أبناء عمومتنا

في نجع الحسينات قديماً.. ولم تكن المدينة قد زحفت علينا قبل ذلك.

فقال ياسميناً وقد بلغ فضولها نهايته:

- أنا لا أفهم شيئاً.. عم تتحدثون جميعاً؟

فقلت لها وأنا أتناول المشعل من يد الشيخ ياسين:

- ستفهمين كل شيء بعد أن ندخل.

فسألت في ريب:

- ندخل إلى أين؟

فقال الشيخ ياسين:

- إلى جدتك يا ابنتي.. إنها تنتظرك منذ قرون.

واتسعت عيننا ياسميناً عن آخرهما فربتُ على ظهرها برفق،

وقلت:

- لا تخافي، أنا معك.

فقال الشيخ ياسين:



- اظن أنه من الصواب أن تدخل سيدتنا وحدها أولاً.

قلت في حزم:

- لن تدخل إلى أي مكان وحدها بعد الآن.

واخذت يدها وأمسكت بها في قوة فقال الشيخ ياسين «ماتراه»  
وانسح لنا الطريق إلى مهبط الدرجات من تحت أقدامنا.. ودخلت  
أولاً وتبعني ياسميناً ومددت المشعل أمامي وناولني يزيد بضعة  
مشاعل احتياطية أخرى من التي كانت معه.. وقالت ياسميناً:

- ماذا يعني بكلمة «سيدتنا هذه»؟

فضغطت على يدها بقوة أكثر وقلت:

- سنعرف كل شيء الآن.. لا تخافي يا ياسميناً.. أنا معك.

ولم تكن من مرآة في المكان حتى الملح زينب فيها.. إلا أن روحها  
كانت حولي في كل مكان.. وأقسم إنها كانت تبسم.



(١١)

## الزعفرانة

الثالث الأخير من ثلاثة

أنا الزعفرانة.. أنا الجميلة فوق كل جميلة.. أنا من انتظرتك طويلاً وكلّي أمل أن يعوضني مرآك عمّ لقيته في حياتي.. جلست وحدي أدون لكِ حتى يأتي اليوم الذي تدخلين علي فيه.. فتهدأ روحي وتستقر إلى نعيمها الأبدي  
أنا أمك يا حبيبي.

أموت شوقاً إلى رؤيتك الآن ومعرفة ما صرتِ إليه من جمال بعد أن أصبحت يافعة هكذا..

لم أكن أطيق صبراً أن أراكِ بينما أنتِ ما زلت تلهين في مرح طول الوقت في بطني.. وأشعر أنكِ تكلميني مثلما أكلحك كلما وضعت يدي فوق بطني أنحس حركتك داخلي.. وتدمع عيني كلما علمت أنني لن أكون موجودة عندما تأمن كما علمت من سننموت الحكيم.

لكفي غير حزينة.. رغم كل ما حدث.. فأنا غير حزينة.. بعد أيام قليلة

من الآن سوف أجتمع بأبيك «حور» في حياته الأبدية التي سبقني إليها..  
وسوف نتظرك هناك سوياً.. بعد أن تنعمي بحياتك هنا في العالم الأرضي.

آه يا حبيبي لو أنك رأيت أباك الجميل.. كانت له ذراعان قويان يمكنه أن يحمل  
لحظة بهما دون أن يتعب.. ولقد نعمت معه أيما نعم. ولولا ما جرى.. كانت عيناك  
سريانه أول شيء في هذه الدنيا عندما تأتين إليها بنورك.. ولطالما كان مرآه جميلاً.

بسأني سنموت أتى لي أن أعرف بأنك فتاة؟ وأنت جميلة؟

وكيف لا تكونين كذلك وأنا أحلم بك كل ليلة.. وأراك طويلة يافعة.. جميلة  
شرقة كوجه معبودي الحبيب «رع» العظيم.. وقد ورثت جمالك من أجمل الفرسان  
في طيبة وأكثرهم شجاعة.. حور الجميل.

آه يا حبيبي لو كنت رأيت وهو يحتضني أمامه فوق جواده القوي ونحن نفر  
من معسكر الشاطئ عند البحر تلك الليلة منذ سنوات بعيدة.

كنت أشعر وأنا بين ذراعيه على سرج الجواد أنني ملكة.. ملكة حقيقية لا  
زعم الأرض أمامها كسائر الملوك الذين أتوا على طيبة.. إنما كنت ملكة تبسط  
الأرض أمامها كي تنعم فيها بحريتها للمرة الأولى دون قيود.. دون حراس القصر..  
وأعين الملكة.. ودسائس «إيست».

ملكة بين يدي مليكها.. على سرج جواد أبيض قوي سريع يمرق بنا فوق الرمال  
على شاطئ البحر.. لا يتوقف ولا يتعب.. ولم أسأل «حور» عن وجهتنا وأنا معه.  
وقد كان يكفيني أنني معه.. وما هو دون ذلك بالنسبة لي لم يعد يهمني في أي شيء..  
وصلنا بعد يوم وليلة إلى حيث كان أهل والدك الطيبون يعيشون.... كانت بلدة  
صغيرة هادئة.. تبعد عن البحر أقل من نصف يوم فقط.. وعلبت من «حور» عندما

وصلنا أنهم من تبغى من نسل «كامس»<sup>(١٠)</sup>.. وقد طُردوا من رحمة «أحمس» بعد أن وثى بعض الكهنة بطمع بعضهم في الحكم.

الكهنة يا حبيبتى.. إيه من الكهنة.. رأيتم بعيني وهم ينصبون جدتك إلها بين الآلهة.. طمعاً في بعض الذهب والبخور القادم من بونت.. وخوفاً من بطش الملكة بهم بعد أن ألصقت بهم تهمة التآمر على تلي دون أن يفهموا كيف حدث ذلك.. هرب من تبغى من نسل «كامس».. وجمعوا شتاتهم واستقر بعضهم هنا جوار البحر.. وبقي بعض قليل منهم في طيبة.. عيوناً تراقب ما يحدث فيها.. وكان حفظك السعيد وهدية الإله رع لي.. أن كان والدك أحد هذه العيون التي نسلت إلى القصر.. فقط كي أقع في هواه.

كان لوالدك أخوان كبيران.. تطوع أحدهما بالعودة إلى طيبة كعين جديدة تأتي إليهم بالأخبار متى احتاجوها.. وبقي الآخر معنا هنا ضمن الحماية.. وطلب مني والدك أن أخفي هويتي عن أهل القرية البسطاء.. خوفاً من جواسيس إيست وتحتسب المنتشرين في كل أنحاء البلاد.

تزوجنا أنا وأبوك في اليوم الثالث لوصولنا القرية.. ولقد بارك رع العظيم زواجنا.. فعشت مع أليك أجمل ما عشت في حياتي.. في تلك البقعة المباركة من الأرض التي من عليها رع بأعين الماء التي جرت تحت الأرض رغم كل هذه الصحراء الواسعة التي تحيط بها من كل مكان.

تعلمت من النساء في القرية الزراعة وأحييتها.. وعلمني والدك الصيد حتى أتقنته.. ووجدت نفسي أخيراً في تلك الحياة البسيطة الهادئة.. حتى كدت أنسى من كنت..

(١٠) الفرعون الأخير من الأسرة السابعة عشر حكم حوالي من ٣ إلى ٥ سنوات فقط توفي أثناء حربه مع الهكسوس عام ١٥٤٠ ق.م

أو أنني فعلاً نسيت.. ولم أكن أتذكر ما كان لي في الماضي من حياتي السابقة إلا عندما كان عمك «آمن» آخر حور الأكبر يأتينا بالأخبار من طيبة كل حين وحين. ثارت أمي الملكة ثورة كبرى بعد اختفائي.. وثار «تحتمس» ثورة أكبر بعد أن تهدد عرشه المقبل بهروبي وعودة شرعيته للحكم من بعد أمي إلى الاهتزاز ثانية. فاستغلت أنشطته في الجيش.. وبدا وكأنه يعد العدة لغزو طيبة نفسها. وانهمكت أمي الملكة وبإشراف «سننموت» في بناء معبدها العظيم على الضفة الغربية للنيل.. وانهمكت أنا في سعادتي المتجددة مع «حور».. ولم أعد أهتم لما أصبح يحدث في طيبة كل عام.. ولم يكن يجذب أي جديد.. ارتدت أمي الملكة ذقناً مستعارة وملابس الملوك الرجال حتى تأكد للناس أنها ملكاً إلهاً. وصارت بهي المزيه من المعابد بمساعدة «سننموت».. ويشيد «تحتمس» المزيه من الكاثب ويحند الشاب من أهل طيبة وينشأ مصانع أكثر للسلاح.. وكأنهما قد دخلا في صراع وتحد كبير على من سوف يكون أكثرهم مجداً في التاريخ بعد رحيله.. وكان المستفيد الأكبر من هذا كله هو الشعب.

زادت حملات أمي التجارية ثراءً وزادت حملات «تحتمس» العسكرية أماناً وقوة.. وأحسست بيني وبين نفسي أننا قد ربحنا جميعاً بهروبي هذا من ذلك الصراع الذي لم يكن ليقتبي إلا بالدماء.

لكنني في النهاية.. ذهبت مضطرة بنفسني إلى تلك الدماء.

مرت سنوات من السعادة لم أكن أتخيل وجودها.. ولم يكن يكدر من تلك السعادة إلا تلك الأوقات التي كنت أشتاق فيها لأصبح أماً.. وأحمل داخلي ذرية لـ«حور».. وأهبه فرساناً شجعاناً مثله.

كنت أتضايق قليلاً في بداية الأمر.. وعندما مر العام الخامس عليّ دون حمل أصبح الأمر هاجساً يكرر علينا صفو حياتنا البسيطة الهادئة.. فصرّت أكثر حدة وأبكي لأهون سبب.. وكان «حور» يعلم بما يدور داخلي.. لكنني لم أكن أحتمل فكرة أن يتزوج من أخرى كي تنهيه ذرية من بعده يرثون أرضه التي تزرعها سرياً.. ويساعدونه في جمع ثمارها ويقفون إلى جواره بعد أن يشيخ في السن.. ويحضرون جلسة التحنيط الخاصة به.. ويقومون عليه الصلوات ابتهاًلاً وطلباً للسلام في رحلته المقدسة بالعالم الآخر.. وكان «حور» يلومني كلها أئيت على ذكر هذه الأفكار أمامه.. ويقسم لي بكل الآلهة أنه لم يفكر أبداً في الزواج من أخرى. ولن يفكر في ذلك حتى نشيخ سويّاً ونذهب معاً إلى عالم الأبدية.. ليهبنا «أوزر» ذرية من لدنه.. وكان دائماً ما يقول لي «أنتِ ملكتي وسيدتي.. ولا أجزؤ على التفكير في غيرك ما حييت».. فكنت أخبره أنني صرت ملكة حقاً عندما أخذني بين ذراعيه ذلك اليوم أمام شاطئ البحر.. وأخذت ألح عليه فأحضر الأطباء سرّاً من طيبة وقاموا بفحصي كثيراً وقالوا إنه لا يوجد شيء يحرمنا من هبة الأبناء سوى أن هذه هي مشيئة الآلهة.. واقترح أحدهم أن نزرع معبد آمون في طيبة تأدية للصلاة وتقديماً للقرابين وطلباً للبركة.. فازداد حزني وهمي.. وصرفهم «حور» إلى طيبة مرة أخرى بعد أن قام بتغطية أعينهم كما جاء بهم خشية أن يتعرف أحد على مكاننا.

في يوم بين العام الثامن والتاسع من زواجنا جاءني زوجة «آمن» بوجه فرج وأخبرتني أن واحدة من العرافات مشهورة بالبركة والقداسة ستزور القرية بعد أيام.. وأخبرتني أنها كان لها باع معروف في رفع العقم عن المرأة باسترضاء الآلهة ببعض الصلوات الخاصة التي تعرفها.. وبعض الخلطات من الأعشاب والعقاقير التي كانت تجلبها بنفسها من معابد «آمون» المنتشرة في البلاد.

بهت أنظرها في ترقب شديد.. وقد بدت أملاً كبيراً تعلقت به وآمنت في داخلي أن معجزة ما قد تحدث على يدها وبركة قد تحمل على من إرضاء الآلهة. وطلبت من زوجة «آمن» ألا تدع «حور» يعلم عن ذلك شيئاً.. وقد خفت عليه من التعلق مثلي بالأمل دون تأكيد من إمكانية حدوثه.. فهما ادعى أُمامي أنه لا يهم بهذا الموضوع.. كنت متأكدة أنه يترق شوقاً إلى رؤية أبناء له مثل أبناء إخوته الذين يقضي معهم معظم النهار.

جاءتني العرافة في غياب «حور» وانشغاله بأمور الزراعة.. ومكثت معي النهار بأكمله.. تقرأ لي من الصلوات التي تعرفها وتسقيني من أعشابها المختلفة.. وقالت لي: - رائحتك كلها شوق إلى الذرية.. وسوف يهبك آمون ما تبغين بعد أن تجزلي له العطاء.

فلم أبخل عليها ولا على آمون بأي شيء أمتلكه.. وطلبت منها أن تمر عليّ كلما كانت قرية من القرية.. فبقيت تزورني تسقيني من أعشابها وتقرأ عليّ الصلوات والابتهالات المقدسة لآمون وغيره من الآلهة جميعاً.. وتأخذ مني ما تطلب دون أن أناقشها.. وتعددت زياراتها وزاد يأسي وطالت نوبات بكائي وتملك مني الحزن حتى كدت أن أياس منها.. وفي النهاية بعد أعوام ثلاثة من الزيارات والصلوات والأعشاب والبكاء.. انقطعت دمائي الشهيرة وبدأ بطني بالتكور والانتفاخ. فبقيت وحدي في غرفتي أصلي شكراً لآمون لثلاثة أيام متصلة.. وابتهج وجه «حور» وعادت ابتسامته التي كنت قد نسيتها.. وقال لي وهو يضحك:

- يبدو أن تلك العرافة لم تكن مخادعة في النهاية.

قلت له لما وجدته يعرف بأمرها:

- اسكتَ تعرف بأمرها؟

- أنظنين أن غريباً بدخل يقي ثلاثة أعوام دون أن أعرف عنه شيئاً؟ كنت

أعرف بالطبع.. وكنت أخاف عليك من التعلق بالأمل دون جدوى لكيفي لم أشأ أن أغضبك وقد رأيتك تبدلين لما كل غالٍ تملكينه.

ثم مال على بطني وقبلها واحتضنني.. وكنت أنتِ يئنا يا حبيبي.. ليتك كنتِ نسمعين مناجاته لك وهو يحكي لك كل ليلة عن يومه الشاق الطويل في أرضه.. ويحكي لك عن الأيام التي قضاها يتنزل في من خلف سور القصر وأنا أناجيه في غرفتي.

في زيارة لتلك العرافة عندما كانت تشرف علي أثناء حملي وقد كسبت ثقة الجميع بعد حدوث الحمل قالت من بين ثرثرتها معي:

- الأمور في المعبد صارت مزعجة وأصبح إحضار الأعشاب المقدسة مكلفاً جداً هذه الأيام.

وكنت أعرف طريقتهما الملتوية هذه قبل التقدم في طلب المزيد من الأموال فسألتها:

- ولمَ ذلك ماذا جدٌ في طيبة؟

- منذ مرض الملكة الأخير ورقدتها في فراشها منع «تحتمس» الملك البعثات البحرية التي كانت تقوم بها.. وصارت السلع أكثر غلاء.. خاصة الأعشاب المقدسة التي كان يجلبها المعبد دائماً تحت رعايتها وإشراف «سنموت» عندما كان مدير أعمال بيت آمون قبل أن يعزله «تحتمس» من منصبه.

ارتعدت أوصالي وارتجفت قلبي فور أن أتت على ذكر مرض أمي.. وكنت أظن



أب لن يكبر أبداً أو تشيخ وقد تركتها آخر مرة وهي في أوج قوتها وجمالها.. وسأت  
العراقة:

- قولي لي ما الذي أصابها؟

قالت:

- داء عضال حارّ معه الأطباء والكهنة.. ينش في وجهها ويأكله.. حتى  
إنها لم تعد قادرة على تناول الطعام.. يقولون في المعبد إن آمون الإله قد تخلى عنها  
فأصبحت منبوذة لدى الآلهة جميعها.

قلت وقد أصبحت الدموع واضحة في عيني:

- وأين ذهب «سننموت» وابنتها «ميريت»؟

- لقد عزل «سننموت» منذ فترة كبيرة بعد أن أصبح «تحتمس» هو الأمر  
الناهي في البلاد.. لكن الأميرة «ميريت» هي التي نعجب لأمرها في طيبة. منذ  
أصبحت الزوجة الملكية تركت قصر والدتها الملكة وتقيم مع زوجها «تحتمس»..  
ويقول الناس في المدينة إنهم لم يرونها مع أمها مرة واحدة منذ أكثر من عام أو يزيد.  
طفرت الدموع من عيني حزناً على ما آل إليه حال أمي في النهاية. وبعد أن  
انصرفت العراقة وقد أجزلت لها العطاء، طلبت من «حور» عندما عاد من الحقل  
أن يتأكد مما قالته لي العراقة.. فوجدته يعرف كل أخبار طيبة لكنه لم يكن يخبرني  
بأي شيء... وعندما ملته على ذلك قال لي في حدة:

- ولماذا تهتمين بأمرها الآن؟ هل نسيت أنها كانت ستقدمك قرباناً للإيقاع  
بكهنة المعبد؟

فرددت عليه من بين دموعي:

- لكنها أُمي في النهاية.. وقد تركها الخونة كلهم كي تلقى مصيرها وحدها.
- يمكنك أن تصلي من أجلها إذن.. ولترحمها الآلهة رغم ما كانت ستفعله بك.
- الصلاة وحدها لا تكفيني.

- ماذا تصدين؟

- قت من فراشي وقلت له وأنا ما زلت أبكي:
- أعني أنني أريد أن أراها.. ولو مرة واحدة.. أريد أن أودعها.. إنها أُمي.
- قال في حزم:

- هذا لن يكون.

ثم تركني وانصرف، وبقينا على خلافنا هذا لأيام.. في كل ليلة أتوسل إليه أن يدير لنا طريقة نذهب بها إلى أُمي.. فتارة ما كان يغضب.. وتارة ما كان يبرر لي رفضه بخوفه علي من الظهور في طيبة وخطورة ذلك على حياتي.. وصعوبة الدخول إلى القصر وإلى مخدع الملكة نفسها والذي لم تعد تستطيع أن تفارقه كما علمت من العرافة.. إلا أنه في ليلة جاء إلي وأنا في فراشي أبكي أُمي مثل كل ليلة وقال لي إننا سنذهب في الصباح إلى طيبة.. ولما سأته لم قد استجاب إلى رغبتي أخيراً قال:

- لم تعد طيبة مثلها تركاها.. ولم تعد الملكة ملكة.. لم أصدق نفسي عندما حكى لي أنني.

- وما الذي قاله لك؟

- لم يعد من حراس بالقصر.. فقط بعض الخدم القلائل الذين رفضوا أن يتركوا الملكة وهي تحتضر.. وقد بدأت أعمال تدمير وهدم لمعابد الملكة التي شيدها لها

«سئمت».. ويبدو أن «تحتمس» يحاول أن يحو كل ذكرى لها عندما تموت كي ينساها كل الشعب.

غلطني نوبة بكائي وازدادت حدة، واقترب مني «حور» وجلس جوارى ثم احتضني في قوة شديدة وأخذ يطمئني حتى هدأت.

ووصلنا طيبة بعد بضعة أيام من السفر الهادئ خوفاً من الطريق على حملي الذي كان في شهوره الأخيرة.

عندما وصلنا طيبة وجدتها مدينة غير تلك التي كنت أعرفها.. لم تكن أقل جمالاً أو أكثر فقراً.. لكنها كانت عابسة متوترة.. وقد أصبحت الشوارع كلها مدججة بالعربات العسكرية الجديدة التي ابتكرها «تحتمس» للجيش.. وعند كل شارع وكل زاوية عدد مهيب من الجنود الواقفين في تأهب.. رغم أنه لم تكن هنالك أي توترات أو تمردات داخل طيبة أو خارجها.. فقد كان الجيش في أوج مجده وأقوى حالاته منذ عهد الملك «ميناء».. وعندما اقتربنا من قصر أمي.. فهمت ما كان يقصده «آمن».

كانت البوابات مفتوحة على مصراعها لا يوجد أمامها حرس كما كان في السابق.. وقد تهدم معظم السور الخارجي له.. فدخلنا القصر دون أن نجد من يسألنا عن هويتنا أو وجهتنا.

في الداخل كان خادمان عجوزان يجلسان في بستان القصر القديم.. أو ما كان بستاناً في السابق وقد صار أرضاً جرداء ذبل ومات كل ما كان بها من أزهار.. وسأل أحدهم عما زبده فقال له «آمن» الذي جاء معي ومع «حور» أنه طيب

أرسلت في طلبه الملكة.. فوصف لنا مكان مخدعها دون أن يقوم من مكانه.. وقال إنه هناك طيب آخر معها في غرفتها.

وعندما دخلت على أمي وجدتها ملقاة على فراشها في تلك الغرفة التي كان محرماً على أي إنسان دخولها.. وكانت تتألم بشدة وتمسك يدها بيد «سنموت» الجالس جوارها وقد ادعى أنه طيب هو الآخر.

صرختُ حزناً فور أن رأيته وارتحمت عليها أقبل يديها ووجهها، ورحت أبكي في حزن ولوعة على ما صار إليه حالها.. وجذبني «سنموت» من يدي وقد صارت تتألم أكثر عندما احتضنتها.. جلست جوارها وأمسكت يدها ورحت أبكي في صمت.. وقال «سنموت»:

- مخاطرة كبيرة أن تأتي إلى هناك بنفسك يا بني.. أعين «تحتمس» و«إيست» في كل مكان.

- لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من رؤيتها.

فراح يتم في خفوت:

- لكن هذا خطر.. خطر كبير عليكم.

ورحت أقبل يد أمي وأنا أبكي فوضعت يدها على خدي ونظرت إلى بطني

البارزة.. وبانت ابتسامتها من بين ألسنها بصعوبة شديدة وقالت بوهن:

- كنت أنتظر دخولك علي كل ليلة يا حبيبي.. لماذا تأخرت هكذا؟

ولم أستطع أن أرد عليها.. فقالت:

- لكنك في النهاية جئت.. وهذا خير من لا شيء...

ومدت يدها إلى رقبتها وأمسكت القلادة التي كانت في عنقها ولم تكن تنزعها أبداً.. وأخرجت منها مفتاحاً صغيراً وأشارت إلى الستار التي كانت فوق الجدار وأمام الممر المؤدي إلى الصومعة الصغيرة.. وهنا صاح «حور» ولم يكن قد تكلم منذ جئنا:

- لا يا «نفرو- رع».. لا شأن لنا بهذا..

لرغمته أُمي بنظرة غضب رغم ضعفها الشديد وقالت:

- أتحب أن تضع «إيست» و«تحتمس» أيديهما على الصناديق.. هذه الأمانة ملكها وحدها.. وهي من تقرر.

- لا أمر لكِ عليها.. ألا يكفي ما فعلتِ بها؟ أنسيتِ أنك حاولتِ أن تدمي لها السم كي تورطي الكهنة في قتلها؟

- وهل كنت تظن أني سوف أعرض حياة ابنتي للخطر؟ كان ترياق السم معداً قبل السم نفسه.

نظرت إلى أُمي وأنا لا أصدق أنها تقول هذا أمامي وعيني كلها لوم. وقبل أن أنطق بأي كلام عادت ومدت يدها إليّ بالمفتاح الوحيد الذي كان موجوداً بالقلادة وقالت:

- لا وقت.. الصندوق الصغير مفتوح.. به بعض اللقائف قد أخرجتها لأقرأ بعض ما فيها ربما ساعدني على التخلص من تلك اللعنة التي حلت بي.. اجمعها كلها وضعها فيه.. أما الآخر فتركه كما هو لم يفتح بعد.. ولا تقوي بفتح أيهما إلا مضطرة.

وهنا عوى طائر بصوتٍ غريبٍ حادٍ خارج القصر فانتبه «حور» واندفع إلى النافذة وقام بفتحها وصاح:

- هذه إشارة «آمن».. هناك حرس قادمون.

واندفع يسحبني من يدي فصرخت أُمِّي، وحاولت أن تنهض من فوق فراشها وقالت:

- الصناديق.. لا تتركي الصناديق.. الأمانة يا زعفرانة.

فتناولت المفتاح منها في سرعة وهب «سننموت» يساعدي واتجهت بسرعة إلى حيث كانت الصومعة وأخذت الصندوق الأصغر.. وعاد صوت الطائر مرة أخرى فصرخ «حور»: «أسرعاء.. لا وقت».. وانضم إلينا وقام برفع الصندوق الكبير مرة واحدة وملت على الأرض أحاول جمع ما تثار من الصندوق الصغير وسمعتنا جلبة في ساحة القصر فأسرع «حور» إلى الشرفة ونظر منها مرة أخرى وصاح:

- لا وقت لدينا لقد حاصرونا.

وجذبني من يدي في غنْفٍ وهرعنا إلى خارج الغرفة ولم يترك لي فرصة كي أجمع كل ما كان ملقى على الأرض من لفائف.. ولا حتى أن أقبل أُمِّي قبل أن نخرج.. وفور أن خرجنا من الغرفة سمعت صوت «إيست» قادمة من ردهة القصر: «أريدها حية». فلم نعلم إلى أين نذهب فنأدى علينا «سننموت» هامساً وهو يشير بيده:

- الجهة الأخرى.. في نهاية الرواق يوجد مخرج خلفي لا يعرف عنه الحرس الجديد أي شيء.. خلف تمثال الملكة.

فرحت أركض مع «حور» إلى نهاية الرواق حتى وجدنا التمثال الذي كان يقصده ووجدنا خلفه باباً صغيراً فتحه «حور» بصعوبة وهو يحمل الصندوق الكبير

في يده ووجدنا درجات تهبط بنا إلى أسفل ووجدنا أنفسنا في النهاية خارج القصر  
وأمام البستان الصغير الذي كان يعمل به «حور» قديماً.. وقال لي:

- لقد أصبحنا في الجهة الخلفية للقصر.. و«آمن» ينتظرنا في الجهة المقابلة ومعه

الخليل.

ثم أخذ يفكر ويدور حول البستان بحثاً عن مخرج وأشارت إلى تهدم كبير في  
سور القصر من الناحية الجانبية.. فرحنا زكض إليه وكانت خطواتي شديدة البطء  
بسبب حملي والصندوق الذي أحمله.. وكان «حور» يجري جراً وهو يزكض.. وفور  
خروجنا من سور القصر أطلق «حور» من فمه ذلك الصوت الذي كان يصدره  
«آمن» منذ قليل وانتبه إلى صوته عدد من الحرس الذين احتلوا شرفات القصر بحثاً  
عنا وأقبل «آمن» على جواده وهو يجري جواداً آخر وأخذ الحرس يطلقون سهامهم  
نحونا وفور أن أقرب «آمن» أمسك حور بلجام الجواد الحرس وساعدني على امتطائه ثم  
ناولني الصندوقين فوق بعضهما وركب خلفي وأصاب أحد السهام ذراعه وانطلقنا  
فارين من حول القصر قبل أن يلحق بنا الحرس.. وفور ابتعادنا عن القصر قال  
«آمن»:

- لن نستطيع الخروج من المدينة هكذا.. الجند منتشرون في كل الطرقات

سندهب إلى منزل أحد العيون ولن نتحرك حتى يصبح الهروب ممكناً.

ذهبنا إلى بيت ريفي فقير لا يعتمد عن القصر إلا قليلاً.. وفور دخولنا جلست

أنفحص مكان السهم الذي أصاب «حور» في ذراعه وقال لي إنها ليست إصابة

خطرة.. وعندما رآها صاحب العين تكدر وجهه وهمس إلى «آمن» بشيء لم أسمع..

وفي المساء دخل «حور» في حمى شديدة رافقته حتى الشروق.. وعلمت من «آمن»

أن «تحتس» كان قد جعل جنده في المدينة يستخدمون السهام المسمومة.. وعندما اتصف النهار أخذ «حور» يطلق بكلام غير مفهوم وينادي على أشخاص غير موجودين.. وبعد أن غاب عنا روع في المساء.. كان قد أخذ «حور» إلى جواره.



آه يا ابنتي لو تعرفين ما لاقته أمك من أيام قاسية من الحزن والوحدة بعد أن فارقني أبوك وحيبي ونور أيامي التي ذهبت مع ذهابه.

أحسست في تلك الأيام أني كنت أموت كل يوم.. لكنني لا أبعث في الحياة الأخرى ونعيمها الأبدي.. بل كنت أبعث كل يوم في نفس الجحيم.. وأظل أنظر وأنا على فراشي في القرية إلى الصناديق التي من أجلها ضاع مني زوجي وحيبي.. وألن «تحتس» و«إيست» و«ميرويت» والعرش.. بل صرت ألن أي نفسها.. فلولاها ما كان «حور» قد ضاع مني وتركني أتجرح مرارة فقده.. وقد يئست يا حبيبي ويئست أنا أيضاً معك.. وقد كان حور هو كل أهلي ومن بقي لي في هذه الدنيا. وفي الزيارة الجديدة للعرافة أخذت أتوسل إليها أن تبحث لي عن أي شيء ينزع عني حزني ويصبرني على مرار الفقد.. وما إن دخل علينا «آمن» ورآها حتى قام بجرها من شعرها وألقاها خارج المنزل.. وقال إنه لولا مجيئها من البداية ما كنا ذهبنا إلى طيبة.

اختضت العرافة لفترة طويلة، وقبل أن يحل موعد الولادة جاءتني متسللة ذات ليلة.. وكان الحزن ما زال في مكانه لم يفارقني. وهمست في أذني أنها أعدت لي مجموعة من الأعشاب المقدسة جلبتها من معبد بعيد من معابد آمون القديمة. وناولني قنينة زجاجية صغيرة بها سائل كان شديد المرارة لم أستطع أن أشربه إلا بعد أن



أمرت على تناوله كاملاً.. وقالت إنه فيه من الأسرار المباركة التي سوف تذهب  
بمزني بعيداً عني.. وعادت بعد يومين ومعها نفس القنينة.. وبعد أن تناولتها كلها  
رُحْتُ أتعذب من مرارتها، وفور أن انتهيت وتبأأت هي لتخرج من المنزل هجم  
عليها «آمن» وصار يسبها وهو يجرها للخارج وهو يصرخ «ملعونة» وصرخت العرافة  
بصوت شق سكون الليل ثم سكنت بعدها.. وعلمت أن «آمن» قد قطع رأسها  
بسيفه.. وكان قد رآها منذ أيام وهي خارجة من قصر «تحتمس».. وفي صباح اليوم  
التالي بدأ التزيف من كل جسدي..

كان نزيفاً شديداً في البداية رحت بعده في إغماء طويلة وأفقت في المساء..  
ثم عاد مرة ثانية في صباح اليوم الجديد.. وأخذ يجيء كل نهار، تارة يكون نزيفاً  
شدداً، وتارة يتقطع بعد فترة قصيرة.. وصرت شاحبة أنتظر الموت كل يوم..  
وعلمت أن «إيست» قد استخدمت ما وجدته من اللقائف التي سقطت مني من  
الصندوق الملون وأنا أهرب من القصر.. وصرخت في «آمن» أن يبحث عن  
«سنموت» ويحضره إليّ بأي طريقة..

غاب «آمن» لثلاثة أيام ثم دخل عليّ بعدها وكان معه «سنموت»، وكان  
«آمن» قد وجده بعد بحث قصير حتى لقيه في مقبرته بشرف على إنهاء تجهيزاتها وقد  
أيقن أن وقت رحيله قد اقترب.. وعندما دخل «سنموت» عليّ ووجدني في تلك  
الحالة من الضعف والشحوب وحكى له ما كان من أمر العرافة والسائل الحُر  
الذي تناولته.. اكفهر وجهه وأبدى حزنه لما سمع.. وقال إن هناك من قام بعمل  
عويذة للعبي أنا وذريتي من بعدي..

قال «سنموت» أن «إيست» قد أرادت أن تمكّل بي وتعذبني لا أن تقتلني

مني مباشرة.. وجلس يتهل ويتضرع إلى الآلهة أن تعافني مما أنا فيه. ثم طلب من «آمن» أن يتركنا وحدنا.. وبعد أن رحل «آمن» سألني «سنموت» عن الصندوقين.. وكنت أحتفظ بهما تحت فراشي ولا أتركهما يغيبان عن عيني.

قضى «سنموت» الليلة كلها يقرأ كل ما طالته يده في صندوق وصايا التاسع المقدس.. ورفض أن يمس الصندوق الآخر وقال إنه ملعون وكل ما فيه ملعون مثله.. وبعد أن انتهى وضع يده الباردة على جبينى وصار يقرأ من إحدى اللغائف.. وكنت لا أفقه شيئاً مما يقول.. وبعد أن انتهى تنهد في صبر وقال:

- لقد لعنت بتعويدة شر وكره ولا يفل الشر والكره إلا الخير والحب.. وأنت خير يا حبيبتى وابنة خير.. وسأحاول معك ما استطعت.. لكن المكان هنا أصبح غير آمن.. سنرحل فجراً إلى قرية مهجورة مجاورة في داخل الجبل.. رأيتها وأنا قادم إلى هنا.. ربما استطعنا الاختفاء عن سبيعهم «تحتمس» أو «إيست» بحثاً عنك، ورحلنا فجراً كما قال، ولم يخبر أحداً بمكاننا سوى «آمن» خوفاً عليّ من جند «تحتمس» الذي كان يقترب.. وعادوني النزيف فور أن وصلنا وكان قد اختفى الليلة الماضية.. وقال «سنموت»:

- التلاوة ربما أبطلت جزءاً من تأثير اللعنة.. لكنها بالتأكيد لم تنهها.. ثم عاد «سنموت» يفتش في الصناديق مرة أخرى.. وكان ما انتهى إليه كثيراً وحزيناً.. قال «سنموت»:

- إما أنت.. وإما ما في بطنك.. لقد بدأنا صلواتنا لكن ما صنع لك كان أقوى من مقاومتنا له.. كان كرمها خالصاً لا يرفعه إلا حباً خالصاً.. مهما مر الزمان.

لوضعت يدي دون شعور على بطني ورحت أضحك إلي أكثر وأنت مازلت  
داخلي.. ولم أمنع بكائي.

وظل «سنموت» معي يحاول كل يوم أن يجرب كل ما يعرفه أو يصل إليه  
من صندوق التاسوع المقدس.. لكن التزيف كان يروح ليلة ويحيى ليلة أخرى.  
فاستسلمت لقدرتي في النهاية.

وفي ليلة جاء وجهك الرائع النبيل يزورني في أحلامي.. وأخذ يزورني كل  
ليلة. فعشقتك قبل أن تكوني.. وبعد عدة أيام من رؤيتي لك في أحلامي.. دخل  
«سنموت» علي ذات نهار ووجدني أبتم.. وكنت أفكر فيك. وقلت له وقد  
غمرتني البهجة:

- إنها صبية يا «سنموت».. صبية جميلة وغاية في الجمال.. لقد عشقتها.

ورحت أبكي يا حبيبي.. لكنني كنت أبكي من بهاء منظرِكَ الرائع.. وربت على  
يدي «سنموت» الطيب.. وطلب مني أن أكتب إليك.

\*\*\*

كان الوقت قد حان.. وبات قدومك وشيكاً بين لحظة وأخرى يا حبيبي..  
وكنت أعرف أن نوبة التزيف هذه المرة ستكون الأخيرة.. وطلب «سنموت»  
أن يعد عمك «آمن» محباً ليدفني فيه.. لا يعرف أحد مكانه، ولا حتى «سنموت»  
نفسه. وقال إنه سيعمل بنفسه على حفظ جسدي حتى تعودني إلي بعد أن تصيري  
بافعة وقوية لتستردني أمانتك التي تركتها لنا جدتك. وعاهدني ألا تفتحني ذلك  
الصندوق الملعون مهما كان.. فهمتنا يا حبيبي هي أن نحفظه لا أن نتطلع على ما  
به.. وقد رفض «سنموت» تماماً أن أقوم بحرقه. وقال إن هذا قد يحرر الشرور التي

حُبست داخله.. وقد رأيت ما جرى لجذتك عندما حاولت الاستعانة به.. ولقد قرر سنموت أن يأخذك بعد أن تعلي إلى هذه الدنيا.. ولكنه رفض أن يأخذ الصناديق معه.. وقال هذه أمانة لا يقدر هو على حملها.. ولا يحملها إلا من وَكَّلت له.. ورفض أن يأخذها معه حتى تكبري وتستردينا. ولا أن يأخذها أي إنسان آخر سواك.. وقال أنها ستحفظ معي في مكان مقبرتي.. حتى تأتين إلي.

دونت لك يا حبيبي ما جرى لي وما كان من أمي وأختي كي تعلمي مثلما علمت ما يدور في هذه البلاد.. وما يؤدي إليه في النهاية.. دونت لك كي تبحثي عن الحب حتى تجديه خالصاً نقياً.. فتذهب عنك هذه اللعنة.

سأدعك ترحلين مع «سنموت» ومعك رسالتي الأولى.. وسيعهد هو برعايتك في مكانٍ في الشمال بعيد عن هنا.. وسيكون مع الرسالة الأولى قصاصة بمكان لتتقين فيه بأبناء عمومتك بعد أن يشتد عودك ويقوي بأسك بعد أعوام من الآن.. وسينتظرونك في الأيام الأولى من الشهر الأول من الربيع كل عام أمام المعبد الجنائزي لجذتك الملكة الراحلة.. أو ما سيتبقى منه بعد أن يخرب فيه «تحتمس» قدر ما يستطيع.. وحتى تصبحين قادرة على حمل هذه الأمانة سيكون مع أبناء عمومتك -ومن يظفهم- البرديات الثانية كي تتعرفي عليهم بها.. ويتعرفوا عليك برسالتك.. وبعد أن تبدأ مطاردة «تحتمس» لك تمامًا.. وسأأخذك أبناء عمومتك بعد ذلك إلى مكاني الذي سأنتظرك فيه.. والذي لن يعطيه أحد سواهم. ولتسأخني يا حبيبي على كل هذا الشقاء وكل هذا التعقيد.. لكنني لم أكن لأسمح لأحد غيرك أن يحصل على تلك الصناديق وما بها من أسرار.. وقد مات والدك وأصابني هذه اللعنة بسبب محاولاتي للحفاظ عليها من أن تقع في أيدي خبيثة. وسيكون معي ما بقي من أسرار في تلك البردية الأخيرة. وفي مقامي الأخير.

سأنتظرك يا حبيبي وأظل أنتظرك يوم أن تدخلين علي بعد أن صرت جميلة  
بائعة.. تأخذين الأنظار من جمالك وورقتك كما أحلم بك دائماً هذه الأيام. أراك  
تدخلين علي وقد وجدتِ حباً خالصاً يطهرنا من هذه اللعنة إلى الأبد. ومعك  
فارسك المخلص. يحميك ويردك إلى أمك وحبيبتك التي تنتظرك هنا ومعها من  
الأمرار ما سوف يحارب العالم كله لأجل الحصول عليه.. أسرار الآلهة المقدسة..  
وكنوز الأرض المخبأة.. أسرار عائلتنا ومن سبقوها، أسرار التحنيط القديم.. وأسرار  
الموت.. لكنني تركت لك هنا ما هو أجمل من ذلك كله يا حبيبي.. تركت لك  
أسرار الحياة.

\*\*\*

(١٢)

## خاتمة

عزيزتي بيلا:

كان الوقت قد مر.. وحل نور قوي بالخارج.. وكنا نقبع في ظلام طويل أنا ويحيى لم نكن لنعرف له نهاية إن لم نلتق.

كانت حياة قاسية ووحيدة.. لكننا وجدنا في وحدتنا الصبر.. ووجدنا من صبرنا الحكمة.. وهدتنا حكمتنا إلى بعضنا في النهاية. أرى نورًا قويًا بالخارج.. وأرى حياة طيبة تنتظرني.. لم يعد يهمنا فيها الخوف من نزيف جديد.. أو المعاناة من الوحدة والحزن.

لم أعد أبحث أو أفكر إن كان ما قالته جدتي الزعفرانة عن اللعنة حقيقياً أم أنه محض أساطير.. لقد تركت لي الرسائل وظلت تنتظر قدومي كل هذه السنوات كي نجدها في النهاية أنا ويحيى.. وكل ما يهم الآن أننا وجدناها بعد أن وجدنا أنفسنا.

لم أعد أخشى شيئاً بعد الآن.. ما دامت يد يحيى في يدي.. وقد بعثنا سويًا من جديد.. وتلبستنا أرواح غير الأرواح.. أكثر جمالاً وعذوبة.. وأكثر قدرة على حب الحياة.

أراه وهو مقبل عليّ.. أرى فيه الونس والدفء.. وأرى في عينيه  
جُبا خالصًا بعد كل ما عاناه من وحدة.. أرى فيه الأمل.. وأرى فيه  
الصحة والرفقة.. أرى فيه ذلك كله.. بل وأجمل منه.

ابنتك الحبيبة: ياسمين

تمت

أحمد سلامة

\*\*\*

## على هامش الرواية



- في عام ١٤٨٥ ق.م وُلدت  
الأميرة نفرو رع لأبيها الملك  
تحتمس الثاني ووالدتها الملكة  
حتشبسوت. وهما من أهم ملوك  
الأسرة الثامنة عشر  
- توفي الملك تحتمس الثاني  
تاركًا ابنتان هما نفرو رع، وميريت  
رع. وكان له ابنا آخرًا من إحدى  
محظياته وهو الملك تحتمس الثالث.  
- تولت حتشبسوت الوصاية  
على تحتمس الثالث الذي كان  
صغيرًا.

- عين المهندس سنموت مسؤولًا عن رعاية ابنتها نفرو رع.  
وكانت علاقة سنموت ونفرو رع كما تبدو من تماثيلهما العديدة  
علاقة أبوية شديدة الحميمة.

- نصبت حتشبسوت نفسها ملكًا إلهًا على مصر استنادًا إلى  
نبوءة آمون ودونت نصوص هذه النبوءة على جدران معبدها.  
وبعد أن كانت وصية على الحكم، أصبحت هي الملك الفرعون.



وظلت تحكم حتى وفاتها وقد بلغ عمرها ٥١ عامًا. وكانت من أطول فترات الحكم لامرأة على عرش مصر.

- بعد وفاتها كُشِطت أسماؤها من على المعبد وهشمت بعض تماثيلها وجرت عمليات تخريب عديدة لاسمها وذهب أغلب الظن إلى انتقام تحتمس الثالث منها بعد أن حرّمته الملك لسنتين عديدة. وذهبت ظنون أخرى إلى أسر وملوك لاحقين بعد تحتمس الثالث.

- تميز عهد حتشبسوت بالرخاء الاقتصادي وازدهار التجارة والبعثات التجارية العديدة والتي كان أشهرها الرحلة التاريخية إلى بلاد بونت.. والتي دونت هذه الرحلة وتفاصيلها على جدران معبدها بالدير البحري.

شيد المهندس سننموت للملكة حتشبسوت معبدها الشهير بالدير البحري. وقدم سننموت تصميمًا جديدًا متفردًا للمعبد الجنائزي لحتشبسوت وأشرف بنفسه على إنشائه. وكان التصميم يختلف بشكل كامل عن تصميمات المعابد الأخرى لدى قدماء المصريين.

- بعد تولي تحتمس الثالث ملك مصر أسس أقوى إمبراطورية في مصر استمرت لسنوات عدة وكان من أقوى الحكام الذين أتوا على مصر في تاريخها. وكان يتمتع بعقيدة عسكرية لم يسبقها إليه ملك من قبل. وصلت حدود الدولة المصرية في عهده إلى نهر الفرات شرقًا، وإلى ليبيا غربًا. وإلى ساحل قبرص شمالًا وإلى منابع النيل جنوبًا.

- جرى الظن أن تحتمس الثالث قد تزوج إحدى الأميرتين

بنات حتشبسوت حفاظًا على الملك. وكانت المرشحة الأولى هي  
الأميرة نفرو رع. ووجدت نقوش تتحدث عنها بصفتها الزوجة  
الملكية له وعاهلة مصر العليا والسفلى، إلا أن اسمها تم محوه  
وحل مكانه اسم والده الملك بعد ذلك.

- لم توجد أي أخبار تتحدث عن الأميرة بشكل مؤكد بعد  
عامها السادس عشر. ويظن بعض علماء المصريات أن من تزوجها  
الملك تحتمس هي الأخت الصغرى ميريت رع، وأن نفرو رع ربما  
تكون ماتت في ذلك السن.

- حتى وقت قريب جرى الظن أن الملكة حتشبسوت ماتت  
مقتولة. إلا أنه تم التحقق من مومياء حتشبسوت وهي تبدي  
علامات موت طبيعي كان سببه الأغلب هو السرطان.

- شيد سننموت سردابًا لم يكتمل يربط بين مقبرته بالدير  
البحري وبين معبد الملكة حتشبسوت.



# الزعرانة

هنا موعدٌ مختلف: حبيبان التقياً صدفة.. لا هما يعرفان بعضهما ولا هما غريبان عن بعضهما! مُرتبطان رغم كل تلك الغربة.

"يحيى الطيب" خبير الآثار المصري الذي يحاول الهرب من حكايات الحبيبات القديمات، ومن لعنة كسرة القلب ومرارة الوحدة في نهاية كل علاقة، فيهرب إلى الصحراء بحثاً عن سرٍ قديم.. و"ياسميناً" الفتاة اليونانية التي جاءت إلى مصر هرباً من لعنة تصيبها كلما اقتربت من الرجال. فحاولت اللجوء إلى صحراء مصر ومعها سرٌ قديم، ومفتاح لكل ما يبحث عنه يحيى. يلتقيان صدفة، أو هكذا ظناً، لتبدأ رموز كل الشفرات تُحل وتتشابك أيضاً، هكذا الأمرين معاً!

## أحمد سلامة

طبيب وكاتب وروائي مصري، تخرج في كلية الطب عام 2011، يعمل طبيباً لأمراض الباطنة. عضو إدارة تحرير سلسلة "مدونات مصرية للجيب"- أول سلسلة كتب للمدونين المصريين. مستشار للتحرير والنشر. قام بتحرير العديد من الكتب الأدبية لعددٍ من الكتاب والمؤلفين على مدار سنوات، صدرت روايته الأولى "محطة الرمل" عام 2013 وصدر منها طبعات عديدة حتى الآن.

